الياس حبيب فرحات

ذكرياتي

بين صباح الحياة ومسائها

بلو اوريزونتي — ولاية ميناس جيرايس — البرازيل

— ١٩٧٥ —

إلياس حبيب فرحات

ذكرياتي

بين صباح الحياة ومسائها

بلو اوريزونتي — ولاية ميناس جيرايس — البرازيل

الباب الاول

مذكرات

عزيزي القارئ . ليست هذه ترجمة
حياتي وليست هي مذكراتي وانما هي اشياء
وقعت لي اعرفها انا وتجهلها انت فعسى ان
تجد فيها ما يروقك و ينفعك و يسليك !
وقد فرغت من كتابتها في سنة ١٩٤٧ .

فرحات

تاريخ المولد

كنت إلى الاسبوع الماضي أعتقد اعتقادًا ثابتاً اني من مواليـد سنة ١٨٩٣ . ولكن حدث ان تسلمت منذ أيام إحدى المجلات التي تصدر في بيروت وكان في الجزء الذي تسلمته فصل عني يقول كاتبه فيه اني ولدت في سنة ١٨٩١ . وبالطبع لا أستطيع أن اجادل هذا

الكاتب الأديب إذ لا سجل رسمي لدي ولأنني لا اذكر هذا الحادث العظيم ...

ومما لا ريب فيه اني ولدت في اليوم الثامن من شهر كانون الاول في إحدى تينك السنتين وسأظل على هذا اليقين حتى يقيض لي الله كاتباً آخر يزعم اني ولدت في شهر شباط مثلاً أو شهر ايلول أو نيسان !

في هذا اليوم يوم ميلادي السعيد ! صرخت أول صرخة في وجه الظلم . وما اظن صرختي تلك كانت « موزونة ومقفاة » كصرخاتي التي ارسلها اليوم .

قلت اني ولدت في سنة ١٨٩٣ . ويقول الكاتب الذي ورد ذكره اني ولدت في سنة ١٨٩١ . ولكن للحكومة البرازيلية رأياً ثالثاً في الموضوع . وهو ولا شك أبعد الآراء عن الصحة مع انه أقربها إلى القلب ! تقول أوراق هويتي اني ولدت في الثامن من شهر كانون الاول سنة ١٩٠٠ الف وتسعمائة (فقط لا غير)، وفي الأمر سر لا بد من اماطة اللثام عنه .

عندما تزوجت أو عندما عزمت على الزواج كنت اقطن في مدينة كوريتيبا عاصمة ولاية برنا، وكانت العروس تقطن في بلدة "ريو ناغرو" من تلك الولاية . ولما كان لا بد من تقديم أوراق هوية رسمية لاتمام معاملات الزواج المدني، ولم يكن لهذه الأوراق من اثر، كانت خطيبتي وذووها يجهلون تاريخ ميلادي فقد قدروا عمري آنذاك تقديراً يتفق ورغبة العروس طبعاً... إذ زعموا انه واحد وعشرون عاماً، وكان ذلك

في منتصف سنة ١٩٢١ . وهكذا جاء عمري ناقصاً في رأيي سبع سنوات وفي رأي الأديب « الدرويش » تسعاً .

بعد سنوات أصدرت الحكومة البرازيلية أمراً لكل انسان يقطن في البرازيل توجب عليه فيه حمل دفتر هوية . وكان على الذين لا أوراق رسمية لديهم تثبت تاريخ ميلادهم أن يقدموا ، إذا كانوا متزوجين ، أوراق زواجهم وأنا كنت في هذا الصنف . فقدمت إلى الدائرة المختصة في هذا العمل أوراق زواجي . على انني أفهمت المسجل ان عمري مغلوط فيه واني من مواليد سنة ١٨٩٣ . فنظر في الورقة التي أعطيته إياها وجمع وطرح وضرب ثم أنشأ يقول وعمر السامعين يطول : جنابك غلطان انك بحسب أوراقك هذه من مواليد سنة ألف وتسعمائة فقط . قلت ولكن هذه الاوراق مغلوطة وأنا أدرى بعمري من كاتبها . فقال باسماً لا بأس ويجب أن لا تغضب فانك ستخرج من هنا راجعاً سبع سنوات إلى الوراء ولو كنت امرأة لخرجت شاكراً مسروراً ...

وكان في جانبي ساعتئذ رفيقي وصديقي الحميم خليل كرم . وكان يزعم غروراً منه ، انه أصغر مني سناً . فنظرت اليه وقلت له بلهجة المنتصر : والآن أتكذب الحكومة البرازيلية وهذه الأوراق الرسمية؟! فاصفر لونه وبلع ريقه وسكت !.

الوالداه

الأب : حبيب جرجس فرحات . ويقول شيوخ الاسرة ان نسب فرحات يرجع إلى اسرة حيدر أو أبي حيدر في بسكنتا . وان فرحات هذا

أو أباه أو جده نزح من بسكنتا وأخوين له اسم أحدهما عبد الله وهذا سكن «بطشي» واسم الآخر نمر وهذا نزل في وادي شحرور. وأنا أعلم ان لنا انسباء نعرفهم ونزورهم ويزوروننا في «بطشي» و «وادي شحرور».

الأم: كاتبه بنت كامل كامل من بيروت حي مزرعة العرب «حي القبضايات ...» وأعلم ان أصل المرحوم جدي كامل من وادي شحرور. ولا أدري إذا كان هو الذي نزح إلى بيروت أو أبوه أو جده.

البلدة مسقط الرأس: كفرشيما وهي قرية تقع في الجنوب الشرقي من مدينة بيروت عند طرف صحراء الشويفات الشمالي الشرقي بين الحدث والشويفات ووادي شحرور. ينتهي عندها الساحل ويبتدئ الجبل. وهي غزيرة المياه كثيرة البساتين وفيرة الاخضرار. تقوم ابنيتها على تلين متقابلين بينهما فسحة تملأها الحدائق وعلى تل ثالث أعلى من أخويه يتجه إلى البحر وفي قمة هذا التل دير لطائفة الروم الكاثوليك «دير القرقفة» تحيط به أشجار الصنوبر الجميلة النضرة. هذه كفرشيما: تلان منبسطان متقابلان كأنهما جناحا طائر وتل في الصدر شامخ كأنه صدر هذا الطائر ودير في قمة هذا التل الشامخ كأنه الرأس يكسوه ريش أخضر..

تبعد كفرشيما عن بيروت نحو ثمانية كيلومترات فاذا سار المسافر من بيروت على طريق صيدا واجتاز الحدث «حدث بيروت» يصل إلى نهر الغدير. فيقطعه على جسر حجري جميل مؤلف من خمس قناطر. وما ان يصل إلى طرف الجسر حتى يخرج من الطريق العام فرع يتجه شمالاً. هذا الفرع من الطريق يؤدي إلى كفرشيما الواقعة على مسافة

كيلومتر واحد من الجسر. ولكفرشيما في تاريخ الأدب العربي الحديث ذكر ممتاز. فمن هذه القرية الصغيرة طلع آل الشميل وآل تقلا واليازجي وكسباني وغيرهم ... وفي هـذه القرية في بيت متواضع من (حارة المجّادين) على مقربة من محلة الرملية ولد صاحب الترجمة.

الطفولة: لا أذكر من طفولتي إلا انني كنت ولدًا كالأولاد الذين يلعبون في ساحة «الرملية» التي كانت تعقد في دكاكينها مجالس الرجال. وأذكر اني كنت محبوبا من هؤلاء لشدة حافظتي و«خفة دمي» فكان إذا جاء «النَوَر» إلى الساحة فرقصوا وغنوا بلغتهم المخلوطة ومضوا، دعاني الرجال إلى تقليدهم، فرقصت وغنيت بتلك اللغة دون أن أفهم منها حرفاً. ولكني كنت اتقن التمثيل كأني فرخ نوري! ولا أزال أذكر من ذلك الغناء «الجيل» مقطعاً هو (آرُم بارُم شادُرما). وأذكر اني عندما كنت ولداً لا يتجاوز عمري ست سنوات، وكنت ألعب حسب العادة في الرملية، دعاني شاب اسمه خريستو - توفي وأنا صبي - لآخذ حماره إلى العين فاسقيه. فسررت لهذه الدعوة سروراً عظيماً لأن العين تقع في منتصف القرية ولأني سأذهب إليها راكباً الحمار. ولما كان الحمار كبيراً وكنت أنا صغيراً جررته بالرسن إلى قرب حائط. ثم علوت الحائط. وقفزت فجاءت قفزتي أكبر مما يجب أن تكون، إذ وقعت على الارض إلى الجانب الآخر معفراً بالتراب وصوت صراخي يملأ الساحة. فتراكض الرجال فرفعوني ونفضوا ثيابي وأخذوني إلى البيت - وهو قريب -

مكسور الذراع أو « مفكوشها ... » حيث بقيت أكثر من شهر طريح الفراش .

وأذكر اني كنت ألعب مرة في الساحة . فجاء رسول من البيت يقول لي ان أخاك وديعاً جاء من بيروت . وقد جاب لك طربوشاً جديداً . فطرت إلى البيت فرحاً . ولكن وجدت فيه بدلاً من أخي وديع ومن الطربوش الجديد رجلين غريبين فأمسكاني وكشفا عن ذراعي وأجريا لي عملية التلقيح ضد الجدري ، ولا يزال أثر هذا التلقيح ظاهراً على عضدي كأنه « ريال مجيدي » !...

وكان علي أن أذهب إلى مدرسة الدير لأتعلم القراءة عند أحد القسوس . والمدرسة تبعد عن البيت أكثر من كيلومتر . وقرب البيت مدارس غيرها ولكن (ابن الطائفة يجب أن يدرس في مدرسة الطائفة) حتى لا يهرطق طبعاً ... فكنت أذهب إلى هذه المدرسة كل يوم . وكنت كما قلت سابقاً سريع الحفظ لا يكاد يجاريني فيه واحد من الزملاء . وهكذا كنت أبداً في المقدمة . وكان القسيس المعلم يعطيني « الرسائل » كل سبت محتماً علي قراءة الفصل الخاص منها في الكنيسة صباح الأحد . فكنت آخذ الكتاب كله إلى البيت وادرس ليلاً « الرسالة » التي علي أن أقرأها في الكنيسة في اليوم التالي ، ادرسها حتى اغيبها جيداً . وفي القداس كنت أضع كتاب الرسائل على (القراية) وأتوسط الكنيسة ولا كتاب في يدي فاقرأ الرسالة غيباً وأنا « مكنفش » زهواً واعتزازاً ...

لا أذكر السن التي ابتدأت أذهب فيها إلى المدرسة. على انني اؤكد اني تركت المدرسة «مدرسة الضيعة» ولي من العمر عشر سنوات. ثم لم أدخل بعدها مدرسة أتعلم فيها قط. بلى ! ذهبت إلى مدرسة في الشويفات مع رفاق لي مدة أسبوع ثم تحولت عنها إلى مدرسة في وادي شحرور. كنت أذهب اليها وحدي مدة شهر. كانت تدير هذه المدرسة نسيبة لي من وادي شحرور اسمها المعلمة (ليّا). وكانت تعلم مبادئ اللغة الانكليزية. وكانت رغبتي بعد ان حفظت العربية «صرت أقرأ المزامير».. في أن أتعلم الانكليزية. فغار مني ابن عم لي اسمه سبع سبع فرحات وهو أكبر مني سناً. فذهب معي إلى مدرسة النسيبة اسبوعاً تشاجر في آخره مع أولاد الوادي فشج رأس أحدهم. وكانت هذه الشجة آخر عهدي بالمدارس اذ خفت بعدها أن أذهب إلى الوادي فيثأر مني الأولاد. ولقد تعلمت من الانكليزية ما لا يزال عالقاً في ذاكرتي إلى الساعة وهو: يو آر كات – يو آر موس...

قبل أن أودع المدارس نهائياً أصبحت في نظر أولاد المدرسة «قوّالاً» أي اني كنت اشتهرت بقول الزجل اللبناني المعروف (بالقرادي).

وكان صديق لي اسمه حليم يشتغل في معمل للكراسي في بيروت. وكان هذا المعمل لرجل من كفرشيما اسمه ابرهيم هاشم. فرأيت أن أذهب مع حليم فأتعلم صناعة الكراسي في معمل ابرهيم هاشم الكائن آنذاك في بيروت على (طريق الشام). فاستأذنت والديّ فاذنا لي بذلك، وهكذا ابتدأت أعمل وليس لي من العمر إلاّ عشر سنوات

وبضعة أشهر. وكان علي أن أتعلم قبل كل شيء تسخين الغراء ثم تقشيش الكراسي أي نسج مقاعدها. على ان ترددي إلى معمل ابرهيم هاشم لم يطل أمره. وذلك اني هجوت الرجل (بردة قرادي) نقلها إليه أحد الزملاء في العمل فطردني... فنقلت إلى معمل آخر قريب منه. وكان هذا الرجل من كفرشيما أيضاً واسمه سعيد سعادة.

ظللت أكثر من سنة أشتغل في معمل سعيد. وكان معظم رفاقي من أولاد الضيعة. وكنا ننام في المعمل. ولا نرجع إلى الضيعة إلا مساء السبت من كل اسبوع حيث نقضي فيها الأحد ونعود الاثنين إلى بيروت. وكنت في بعض الليالي أذهب إلى بيت خالة لي في « مزرعة العرب » قرب كنيسة « مار ميخائيل » فانام هناك. وكانت خالتي تقص علي وعلى ولديها سليم وخليل نوادر وحكايات عن القديسين وعجائبهم! واذكر من قصص خالتي قصتين إحداهما أشد غرابة من الاخرى. الاولى حكاية دير مار جرجس الحميراء ومائه الذي ينبع من مكان ما ثم يجري إلى أراضي الدير مجتازاً أرضاً للمتاولة دون أن يروي فيها نبتة واحدة لأن مار جرجس عليه السلام لا يحب المتاولة! فكان يأمر المياه أن تنزلق عند مرورها في أراضيهم انزلاق القطرة الواحدة منها عن لوح زجاج. حتى إذا وصلت إلى أراضي الدير انفلشت فيها وتغلغلت وروت من الأشجار والاعشاب ما شاء مار جرجس أن تروي...!

والحكاية الثانية حكاية (مار مخايل) وكنيسته القريبة وجرسها. كانت خالتي تؤكد لنا ان جرس كنيسة مار ميخائيل يدق لنفسه بقوة

عجائبية وان البخور يتصاعد من قبة الكنيسة كلما قتل مسلم مسيحياً في المدينة ... ولم تكن هذه العجيبة إلا دعوة « لقبضايات المزرعة » ليتسلحوا ويثأروا للمسيحي القتيل!

* * *

ولا بد من الاعتراف بأني كنت قليل الثبات في العمل. فكنت دائم الانتقال من معمل نجارة افرنجية إلى معمل نجارة عربية وبالعكس. وكانت دائرة شهرتي كقوال « معنى وقرادي » آخذة في الاتساع. فبعد ان كانت محصورة بين أولاد المدرسة انتشرت بين أولاد الضيعة وشبانها. فصار هؤلاء لا يعقدون مجلس طرب إلا وأنا معهم. يأخذونني إلى الأفراح والأعراس « لانازل فحول القول ». ولقد فاتني أن أقول ان المرحوم والدي كان في شبابه « قوالاً » وعليه فان « مرضي وراثي »!

قلت ان المرحوم أبي كان في شبابه قوالاً. إلا اني لم أسمعه يغني ولا مرة. لأنني إذ كنت صبياً كان هو قد تجاوز الكهولة إلى الشيخوخة. ولكني كنت أسمع عنه ما يزيد رغبتي في «الفن» ويحفزني إلى مجاراته. واذكر انه أول مرة سمعني (اغني) على ضفة نهر النذير قرب الجسر منازلاً المرحوم سعيد الكلارجي - وكان هذا قوالاً مشهورًا - بكى سرورًا.

في تلك السن المبكرة غزا الحب قلبي اغزاه بطريقة وحشية جنونية ملأت أوساطه وحواشيه ولم تترك فيه « مغرز ابرة » خالياً. كانت « العروس » نسيبة لي. وكانت في ابان صباها يتدفق سحر الانوثة من عينيها السوداوين الواسعتين. كانت في مثل السن التي

كنت فيها أو كانت أصغر قليلاً . رجع أبوهـا من أميركة وهو على شيء من الغنى بالنسبة إلى محيطه وبالنسبة إلى غنى تلك الأيام . وكان ميالاً إلى الأدب يروي كثيراً من أخبار العرب وأشعارهم ويشترك في مجلة « الهلال » وكانت هي « العروس » متقدمة علي في « المعرفة ». فرأيت أن اسابقها واسبقها . فكنا نجلس « أنا وهي » فنقرأ « الهلال » ونقرأ روايات الهلال ونقرأ الشعر ونقرأ كل مـا يقع في أيدينـا من كتب . وكنا إذ نقرأ رواية « فتاة غسان » لزيدان نغير اسمينا فاصير أنا « حماداً » وتصير هي « هنداً » وهما اسما بطلي الرواية . وكنا، لما يجمعنا من صلة النسب ، نجتمع أبداً وبدون تحفظ حتى اشتهر في القرية أمر حبنا . ولما كنا لا نزال ، في حكم العقلاء ، طفلين رأى والدانا أن يحدا من « طيشنا » . فأرسلها أبوهـا ألى مدرسة داخليـة للراهبات في « برج البراجنة » القريبة من كفرشيما وأرسلني أبي مع « أولاد كنعان » إلى زحله . وأولاد كنعان جيران لنا في كفرشيما كانوا يشتغلون في زحله نجارين . وكانت لهم شهرة تتفق مع اتقانهم العمل واجتهادهم فيه ، حتى انهم كادوا يحتكرون النجارة في تلك المدينة الجبلية . فقلما قام فيهـا بناء جديد إلا صنعوا هم « منجوره » . واظن الآن ان للطائفية دخلاً في هذا النجاح . فهم من طائفة الروم الكاثوليك ومعظم سكان زحله من هذه الطائفة . وبهذه المناسبة اذكر انه عندما كنت معهم في زحله كان معنا في جملة العمال رجل حلبي فكان يقول لي ضاحكاً :

« والك الياس ! انتو الكواتلي وين في منكم غير في حلب وفي زحله وفي جهنم !!!؟ » صدق والله !

ولكن زحله بعيدة. وأنا يكاد الشوق إلى الضيعة يميتني وذكر الحبيبة وخيالها يملآن كياني. فرحت انظم الازجال والاشعار التي يعلم الله كيف كانت من حيث اللغة والصرف والنحو. على انني أكاد اؤكد الآن انها من حيث الاوزان كانت « مضبوطة ». لأني لا اذكر اني نظمت في حياتي شعرًا مكسورًا.

بقيت في زحله شهورًا كانت كأنها أعوام. لم يكن يصل إلى يدي من المال ما يكفي لشراء جواز سفر إلى كفرشيما. وكنت أتهيب الهرب اليها مشياً على الرجلين ففي أحد الأيام كتبت إلى المرحوم أبي هذه « القرّادية » :

العصفور اللي بعدو صغير | منشوّق للضيعة كثير
في سجنو موش راح يبقى | بس يريش بدو يطير !

ولما كان المرحوم من « اولاد الذكا » فهم حالاً ما اريد. فكتب إلى « المعلمين » أن يشددوا علي المراقبة ويمنعوا عني أية كمية من النقود تكفي لجواز سفر ! وأخيرًا رأيت ان لا بد من الهرب فهربت مشياً إلى أول محطة للقطار وهي سعد نايل. وهناك اختبأت بين الأكياس المعدة للشحن. حتى إذا وصل القطار دخلته متكلًا على الله وعلى « آدمية » المفتش الذي لم يخب ظني فيه، لأنه عندما وصل إلي وسألني عن الجواز

أفهمته ان لا جواز ولا نقود معي واني من كفرشيما واني اريد أن أرجع إلى أهلي فشفق علي وتركني .

وصلت إلى البيت بغتة فاستقبلتني امي رحمها الله بالتقبيل وتظاهر أبي بعدم الرضا . ثم لم يلبث ان رضي . وثاني يوم وصولي ذهبت إلى برج البراجنة لأزور نسيبتي المحبوبة المسجونة في المدرسة متسلحاً بالقربى . فلما جاءت الراهبة لترى ماذا اريد أفهمتها اني نسيب أنيسه واني اريد مشاهدتها . فدعتها فجاءت فكاد يغمى علي إذ وقعت عيني عليها . ووضعت يدي في يدها مسلماً . وكنت واياها نرتجف كاننا تحت عاصفة ثلجية ولم نكن إلا تحت عاصفة نارية ... وكانت الراهبة كريمة فانها إذ تأكدت اننا نسيبان تركتنا وذهبت . فجلسنا على مقعد هناك أسألها وتسألني وأعيننا الأربع تقابل كل منها أختها لا تحيد عنها قيد شعرة ا واذكر اني سألتها عن كتاب مجنون ليلى وكنت تركته لها فقالت باسمة : « أطمعوني عليه بجدرة » . ثم أخبرتني ان الراهبات اكتشفنه معها فأجبرنها على طرحه في الموقد ا لأن الحب خطيئة مميتة ...

لم يطل جلوسنا معاً لأن الراهبة عادت تدعوها إلى الدرس . فنهضت ونهضت اودعها بالنظر دون اللسان لأني شعرت ساعتئذ اني أخرس ا

* * *

وكان آخر عهدي بالتجارة سفرة فاشلة قمت بها إلى عين زحلتا حيث سُرقت هناك ثيابي وسقطت في نهر الصفا في مكان قرب ينبوعه المتدفق . وقد نجوت من الغرق بأعجوبة . ولما رجعت إلى البيت ، بعد اشهر

قليلة ، كان الوسخ يغطي ثوبي الوحيد الذي تركه لي السارق . وكان شعر رأسي نازلاً على كتفي كشعر فناني الافرنج في القرون الماضية ا على ان حنان الأم لم ير الوسخ ولم يهتم بالشعر الطويل . فتلقتني بالتقبيل ودموع الفرح بعودتي إلى البيت تجول بين أجفانها . وأما أبي فتلقاني ببرودة مصطنعة لم تلبث ان زالت . فانه كان رحمه الله رجلا طيباً يأبى ان يوجه إلي أو إلى سواي كلمة سوء . ولم يكن كالوالدين الذين يرغمون أولادهم على اتباع خطة معينة يرسمونها لهم .

بعد أيام من رجوعي من عين زحلتا لقيت صديقاً لي يعمـــل في احدى جرائد بيروت منضّد حروف . فقلت له اني سأكون رفيقه وسأتعلم صنعته تاركاً صنعة النجارة . فسر بهذا واقرني عليه الأمر الذي ضاعف رغبتي . فأطلعت والدي على رغبتي هذه فقال الوالد باسماً : حسن جداً ستصير ان شاء الله « جرنلجي » .

هبطت بيروت ورفيقي المنضد . فأخذني إلى ادارة جريدة الوطن وكان صاحبها آنذاك الشاعر شبلي ملاط . ولأول مرة في حياتي وقع نظري على شاعر . واذكر الآن ان الملاط أسمر شديد السمرة وجهه منقوش بالجدري[1] . في مطبعة الوطن تعلمت (صف الحروف) .

---

(١) عندما زرت لبنان سنة ١٩٦٠ ذهبت صحبة الشاعر وديع سليمان لزيارة شبلي الملاط وكان مرض الشيخوخة قد اقعده فسر بي سروراً بالغاً وأخبرته اني كنت أتصوره أسمر منقوشاً بالجدري واني الآن اشعر بخطأي فأجاب باسماً لعلك خلطت يومئذ بيني وبين احد رفاقي اذ ظلت صورة الرفيق عالقة في ذهنك وأنت تحسبها صورتي .

وقد كنت أحب هذا العمل لأنه يدنيني مما اريد من القراءة، قراءة الجرائد والكتب وسماع أحاديث الأدباء. ومن جريدة الوطن نقلت إلى جريدة الحقيقة لصاحبها الشيخ عباس الأزهري « رحمه الله ». وكان شيخاً جليلاً وقوراً في غير عبوس مع ان اسمه « عباس ». واذكر أنه كان لطيفاً مع صغار عمال المطبعة يكلمهم كما يكلم أولاده. واذكر كذلك اني عرفت ولده الاستاذ كمالاً. وعلى نسبة ما كنت أقرأ من الجرائد ومن الكتب كانت تزداد معرفتي وترتقي لغتي في نظم الأزجال. وأصبحت الحبيبة التي كانت تعرف أكثر مني أقل مني معرفة. فصرت إذا جلست اليها احدثها عن معرفة مظهراً براعتي في « صف الكلام » التي اكتسبتها من صف الحروف ... ولم يكن في استطاعتي البعد طويلاً عن هذه الفتاة. فكنت إذا هبطت بيروت يوم الاثنين على أمل أن أعود إلى الضيعة يوم السبت أخلق لنفسي ألف عذر وعذر لأعود يوم الأربعاء أو الخميس مثلاً. فأبقى نصف الاسبوع في العمل ونصفه الآخر في الضيعة إلى جنب تلك التي أحببتها حباً جنونياً لا يعرف اللين ولا الهوادة. وكما كنت انمو جسماً وروحاً كان ينمو حبي وتنمو شهرتي كقوال معنّى. وتعرفت – لا اذكر كيف – إلى القوال الشهير أمين أيوب من الشويفات. وكان صاحب دكان في خلده. فصرت أتردد عليه كلما سنحت لي الفرصة. وكنت قد تعرفت قبلها إلى القوال الأشهر الياس الفران وكان كذلك صاحب دكان عند

نهر بيروت . فكنت (اقول معه) أحياناً . واذكر اني كنت مرة في خلده عند أمين أيوب وكان في مجلسنا بعض الناس فقلت لأمين :

مشربكني بحبال السحر وصايبني بسهام العين
فكرك بحر وحداك بحر وفي خلده مجمع بحرين

فوصلت هذه « الردة » إلى مسامع الياس الفران فسر بها ومدحني عليها .

وفي خلده كنيسة على اسم العذراء يحتفلون بعيدها احتفالاً كبيراً إذ يؤمها الوف من الناس من الجوار ومن الأمكنة البعيدة . ولا اذكر الآن ان الاحتفال يكون دينياً . فاني لم أر هناك كاهناً قط . وإنما يجتمع الناس من كل مكان فيلهون ويأكلون ويشربون ويغنون ويسبحون في البحر . وقل منهم من يعود إلى بيته قبل مضي اسبوع أو أكثر . ففي يوم هذا العيد من سنة ١٩٠٨ أو ١٩٠٩ كنت في خلده . وكان فيها من الناس خلق كثير . فجلسنا – أمين أيوب وأنا – وحولنا حلقة كبيرة من الشبان الذين يحبون السماع ويحسنون « القول والرد » . وكان عدد الحضور كبيراً جداً حتى لم يكن سطح الخان يسع أحداً غير الذين كانوا هناك . ولأول مرة نازلت أمين أيوب بصورة جدية في مجلس رسمي ... فبقينا ساعات وساعات نتجادل وننتقل من موضوع إلى موضوع وأنا معجب بنفسي والناس معجبون بهذا الفتى اليافع الذي يجادل أحد شيوخ « الفن » وأوسعهم شهرة فيرتجل الجواب المحكم الذي

فيه النكتة اللاذعة. ومما اذكره الآن اذكره لأن الناس تناقلوه يومئذ وما زالوا يتناقلونه إلى اليوم.

قال لي أمين :

بالأول كنت مغشوش وخمنتك انك ساوي
تاري بتسوى خمس قروش وما بتلحق زهراوي !

وما أن أنهى (ردته) حتى سمع الجواب الصاعقي :

بالأول خدتك شريك وعدت لحلفي رجعتك
لو اعطوني نحاسه ديك (١) بكون حمار ان ما بعتك !

وكان في يد أمين دف يضرب عليه. فألقى الدف من يده ونهض فحملني وأخذ يرقص بي والناس يصفقون ويضحكون.

وتفرق الناس ذاهبين كل إلى قريته حاملين أخبار جلستنا تلك. فاتسعت دائرة شهرتي حتى كادت تعم الجبل كله ...

ولا بد من ذكر نكتة يرويها الناس عني. ولقد قرأتها من سنوات في إحدى جرائدنا التي تصدر في أميركة الشمالية قالت بعنوان (فرحات في صغره) ما معناه :

كان الشاعر فرحات يوم كان ولداً صغيراً طالعاً من بيروت إلى قريته كفرشيما ماشياً. فلحق به عربجي من قريته نفسها اسمه عبدو.

(١) النحاسة اصغر نقد عثماني ، والنحاسة التي عليها ديك بدلاً من الطغراء كانت نقداً زائفاً ...

فقال الولد للعربجي : خذني معك . فأجابه هـذا آخذك معي بشرط أن تعمل لي « ردّة قرادي » . فرضي فرحات بالشرط وركب العربة . وما ان سارت العربة قليلًا حتى طالبه العربجي بالشرط . فقال فرحات فورًا :

كفرشيما فيهـا كفار مـا جزاهم غير النـار
تركوا لعبـادة الله و« عبدو » شقفة جحش حمار ..

وكان العربجي ذكياً ففهم النكتة وسب فرحات ضاحكاً . ورواية الجريدة صحيحة . وكان يرفقتي يومئذ صديق لي اسمه ملحم وكان معي في العربة فلما سمع ردة عبدو أراد لنفسه مثلها فقلت له :

يا من قشع يا من شاف جروحي مـا عادت تلحم
كلّ كلاب الناس ضعاف وما في غير كلبي « ملحم ! »

ومرة كنت وفريقاً من أصحابي على سطح الخان في خلده فسمعت أحدهم يقول : جاء منصور صافي . ومنصور صافي كان قوالاً ماهرًا حتى انه كاد يكون شاعرًا فصيحاً . ولم أكن أعرفه . فلما وصل وجلس معنا استقبلته بهذه الردة :

انكنّك شاطر في الحساب وتكلي في ضرب التعديـل
عدّلي قبـالك مزراب وعـدّل حالك نهر النيـل

فسر الرجل جدًا وأجابني جوابًا لا أذكره وإنما اذكر انه كال لي من المديح الكيل كيلين .

ولقد لقيت هنا في البرازيل صديقاً لي قديماً كان رفيقي يوم كنا صغيرين في الوطن . فأدهشني لفرط ما يروي لي من « رداتي » التي هي من النوع الذي تقدم . أدهشني لأني ما كنت اذكر منها شيئاً حتى لكأن ماضي لم يكن !

في أواخر سنة ١٩٠٩ « على ما أظن » دعاني صديق لي اسمه الياس ياغي إلى دمشق حيث كان ينضد حروف مجلة البطريركية الارثوذكسية فيها . فلبيت دعوته وسافرت إلى المدينة التي ضربت الرقم القياسي في البطولة الوطنية والتي قلت فيها بعد سنوات « بعد أن صرت شاعراً ... »

يا دمشق الثكلى دعي الحزن للمستسلمين المقبلين الترابا
الالى مزقوا البلاد فكانوا للوحوش التي اعتدت أنيابا
والالى حالفوا العدو على الجار المؤاخي فضيعوا الأنسابا
والالى استعذبوا الحياة مع الذل فعاشوا بين الرجال كلابا
قدست أرضك الدماء التي سالت عليها وأكسبتها ملابا

لبثت في دمشق نصف سنة قضيت معظمها في الفراش إذ قد ورمت رجلاي وتعذر علي المشي فرجعت إلى كفرشيما .

في أوائل سنة ألف وتسعمائة وعشر رجع أخواي سليم وكريم من جاميكا « جزائر الهند الغربية » . فقامت الافراح برجوعهما في البيت . وجدد المرحوم الوالد شبابه . إذ كان وهو فوق السبعين

يسير منتصباً كأنه ابن ثلاثين أو أربعين. حتى ان أخي سليماً « الشاب » العائد من أميركة كان يقصر في المسير عن « الشيخ » وهما صاعدان من « العين » إلى حارة الدير! واذكر ان صديقنا امين ايوب زارنا في تلك الاثناء. وقضى في بيتنا ليلة كانت سيدة الليالي. فقد اجتمع عندنا ليلتئذ شبان الضيعة. « ودار قول القرادي » والدق والرقص. وقد كانت « ردة » امين في تلك الليلة :

يا من عنا تغربتو وشربتو صافي الكوؤس
غبتو وتمبعو وجبتو جمال ومال وناموس!

وبينما كنا جالسين في إحدى تلك الليالي نتسامر قال أخي سليم لأبي : سأرسل الياس إلى إحدى المدارس الداخلية. ولما كان الوالد يعرف الياس أكثر مما يعرفه سليم! أجاب فوراً : لا بأس بشرط أن ترسل معه « أنيسة ».. ففهم سليم الرواية كلها وقال ضاحكاً : إذاً نزوجه! بقيت في البيت بعد عودة أخوي سنة أشهر سافرت في نهايتها إلى البرازيل إلى عند أخوي الآخرين وديع وأسعد. سافرت على أمل أن أبقى سنتين أو ثلاث سنوات وأعود بالنقود لأحقق حلمي بالزواج.. وها قد مر على سفري سبع وثلاثون سنة تزوجت في خلالها وصرت رب اسرة. وتزوجت كذلك أنيسة وصارت أم أولاد. وما زالت هذه الذكريات تلوح لي « كباقي الوشم في ظاهر اليد ». ومنذ سنتين تسلمت من نسيبتي العزيزة أنيسة رسالة تذكر لي فيها طفولتنا فقلت :

تذكرني عهد الصبابة من لها على القلب من عهد الصبابة سلطان
وقد جهلت ان البياض الذي طما على الشعر فيه للصبابة أكفان
حنانيك ان الذكريات لذائذ عواقبها في خيبة القلب أشجان
دعيني اعيش اليوم فالامس قد مضى وما لغد في دفتر العقل حسبان

وصلت إلى البرازيل في السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٠ . وكان اخواي يقطنان في قرية صغيرة في داخلية ولاية ميناس جيرايس اسمها ماريبا Maripá . فبقيت معهما فيها أكثر من سنة . ثم انتقلنا جميعاً إلى مدينة جويز دي فورا . وكان أخي كريم قد لحق بي إلى البرازيل . ولم يلبث ان لحق بنا أخونا سليم واختنا غنم تاركين في الوطن الوالدين والشقيقين الاصغرين جرجس وسعيد والشقائق نظيره وزينه ووديعه . وهكذا انقسمت الاسرة إلى « معسكرين » أحدهما في لبنان والآخر في البرازيل .

* * *

في جويز دي فورا جاء للسلام علينا أديب عربي كان ساكناً المدينة . فقال في اثناء الحديث : علمت انك تنظم الشعر فهلا أسمعتني من منظومك شيئاً ؟ وكان في جيبي قصيدة حديثة النظم كنت اظنها « آيتي » ! فمددت يدي فأخذتها ونشرتها وقرأت :

ضروباً من الأهوال حماني دهري وجر عليَّ الهمَّ والذلَّ والقهر ..

قرأت البيت وأنا انظر في وجه محدثي لأرى كيف يكون تأثيره عليه . فلما سمع العجز ضحك ضحكة جمدت الدم في عروقي . على انه

لم ينتظر أن اسأله عن سبب ضحكه بل بادرني بقوله ان العجز كله غلط. فقلت واين وجه الغلط؟ فأفهمني ان الكلمات « الهم والذل والقهر » مفعول به. وبما انها كذلك وجب أن تكون منصوبة. قلت وما يعني منصوبة؟ قال مفتوحة أي يجب أن تكون « الهمَّ والذلَّ والقهرَ » لأن الفاعل يجب أن يكون مرفوعاً والمفعول به منصوباً ولا ادري ماذا قال لي عن المجرور. والذي اؤكده لقارئي الآن ان ما سمعته من ذلك الاديب آنئذ كان ولا يزال الدرس الوحيد الذي تلقنته في الصرف والنحو. واذكر له أيضاً اني بعد هذا الدرس لم أقع قط في غلط « الفاعل والمفعول ». فكنت كلما نظمت بيتاً تذكرت هذا الدرس وحافظت على هذه القاعدة!

على أثر وصولي إلى البرازيل بعثت إلى صديقي المرحوم أمين أيوب « بمطلع معنّى » اذكر فيه ألم الفراق والشوق وما قاسيت في السفر من مشقات. أوله:

يا امين الدهر فرّقنا وبيسهامو البين خرّقنا
من بعد ما كنا نصيد سباع قصر عن العصفور خردقنا!

كذلك بعثت إلى الوالد « بقرّادية » طويلة تصورت فيها اني ارسل باخرة مشحونة شوقاً مكلفاً ربانها أن يفرق حملها على أهل الضيعة بالسواء. وقد جاء فيها هذه « الردة » التي ظلت عالقة بالذاكرة:

عابيوت كفرشيما بروم ودق بواب المغلوقا
واهدي شوقي للهموم حنا ومرقس ولوقا

موراني ، كوتالي روم هي عندي مش مفروقه
بس يكون واحد مهضوم وما يكونوا عقلاتو تحان ا

لقد عرف القارئ اني عندما كنت في الوطن كنت اعيش كما أريد . فلقد كان أبي وأمي يتساهلان معي . اعمل ما أشتهي وأذهب إلى حيث أرى – قالت على رأسي – وهكذا فقد نشأت حرًا لا أطيق القيد مهما يكن خفيفاً . ولهذا لم تطل اقامتي مع اخواني لأني شعرت ان ارتباطي في عمل تجاري في محل لا أكاد افارقه كارثة علي أن انجو منها . فتركت اخواني في جويز دي فورا و« رحلات » إلى حاضرة ولاية ميناس وهي المدينة الجميلة التي اكتب فيها الآن هذه المذكرات . ولم يكن عمر هذه المدينة آنئذ يبلغ العشرين سنة . وكنت أنا في العشرين أو فوقها قليلًا . فاستخدمت أولاً في محل تجاري لاحد المواطنين . ثم انتقلت منه إلى غيره . ثم تركت الاستخدام بتاتاً إذ تصادقت والأخوين نجيباً ورشيدًا الصانغ . وكانا يصنعان صناديق خشبية . فرحت اشتغل واياهما مدة . ثم تركتهما وتركت المدينــة وسافرت مع أحد الشبان إلى بلدة ديفينو بولس ، وكان هو من سكانها . ومن هذه البلدة أرسلت أول قصيدة لي للنشر في جريدة « أبو الهول » التي كانت تصدر في سان باولو . وكنت قد تركت قول « القرادي والمعنى » ألا قليلًا . وأخذت انظم الشعر الفصيح وكنت انظم كثيرًا . ولما لم اكن واثقاً من صحة النظم لم يكن يخطر لي في بال نشر ما انظم . وكان في ديفينو بولس شاب على شيء من الأدب . فاطلع على قصيدة لي كنت قد نظمتها في وصف

حفلات المرافع فأعجبته فقال لي لماذا لا تنشرها ؟ فقلت ومن يضمن سلامتها من الأغلاط اللغوية؟ قال اسمع ألست صديقاً لجورج الخوري كرم؟ قلت بلى . قال ان صاحب « أبو الهول » قد أعلن في العدد الماضي من جريدته انه سيسافر إلى الداخلية وان العدد المقبل سيصدره الاستاذ جورج الخوري كرم فلماذا لا ترسل إليه هذه القصيدة؟ وأخذ يحسني باستحسانه إياها ويزعم انها من عيون الشعر . فرأيت بعد تردد طويل أن انسخها وابعث بنسخة منها إلى الاستاذ المذكور . وهكذا فعلت وابثت أنتظر صدور « أبو الهول » وكان يصدر مرتين في الشهر . فكانت أيام الانتظار في نظري أحقاباً . ولا يحق لأحد أن يسأل عن نشوة الطرب التي استولت علي عندما وصل عدد « أبو الهول » وفيه قصيدتي المذكورة مع تقريظ زعم فيه كاتبه اني وان اكن غير متعلم فان شعري يبذ كثيراً من شعر المتعلمين ... عندئذ قلت لنفسي « يا أرض اشتدي ما حدا قدي » . ورحت انظم وأبعث بالقصائد للنشر في « أبو الهول ». وضاقت علي ولاية ميناس على رحبها فسافرت إلى سان باولو وتعرفت إلى شكري الخوري صاحب « أبو الهول » . وكانت الحرب العالمية الاولى في أواخرها . وكان هو سورياً عربياً لا يصدر من جريدته عدد إلا وفيه حملة صادقة على الاتراك وكل من يمت اليهم بصلة . وكانت هذه نزعتي التي نشأت عليها – الحرية قبل كل شيء – . فأرسلني شكري الخوري جابياً إلى داخلية ولاية ميناس حيث لي اصدقاء ومعارف . فرحت أقبض اشتراكات « أبو الهول » وادبر له مشتركين

جداً وأبعث مع كل رسالة بقصيدة ا ولم تطل صداقتي لشكري الخوري ذلك لانه ما كادت فرنسة تظهر على مسرح السياسة السورية حتى استحال احتلالياً افرنسياً من الطراز الاول...

الشباك

في سان باولو عرفت التشرّد وذقت الجوع، فما ان رجعتُ من (سفارتي...) لجريدة (أبو الهول) التي قمتُ بها إلى ميناس حتى وجدتني مقطوعاً فمظم عليّ الامر ورحتُ احاول دفع الجوع والتشرد عني بما امكن. ومرّةً كنتُ ماراً في شارع (ڤيسكوندي دو ريو برانكو) قريباً من ساحة (بايزاندو) التي كنت متوجهاً إليها. فما ان دنوتُ منها حتى رأيتُ عن يميني معملاً للنجارة فتذكرت اني كنت نجاراً... واندفعت إلى داخل المعمل اسأل عن (المعلم) فلما وجدته قلتُ له دون تفكير كثير: الستم في حاجة إلى معلم...؟ فقال: بلى، هل تحسن عمل شباك أباجور؟ قلتُ انها صنعتي التي تعلمتها في وطني، ولم اكن كاذباً إنما كنت مبالغاً، فأنا كنت نجاراً ولكنني لم اكن معلماً ولم اكن صنعتُ شباكاً (اباجور) ولا غير اباجور وحدي ا. فقال الرجل: تعال معي، وخرج من المشغل فخرجتُ وراءهُ وما خطا على رصيف الشارع سوى خطوات قليلة حتى دخل بناية وصعد سلماً فدخلتُ وصعدتُ وراءه فلما وصلنا إلى الطابق الثاني دخلنا ردهةً كبيرة رأيتُ في أحد جوانبها نافذتين لاحداهما شباك اباجور مركّبٌ في مكانه وللاخرى شباكٌ كالاول إنما كان هذا مكسوراً ومقتلعاً من محله وملقىً على الارض، فقال لي المعلم:

إنّا نريد أن نصنع شباكاً مثل هذا الشباك المكسور ونضعه في مكانه. ان الهواء القوي كسره فاقتلعناه ورحنا ننتظر قدومك... وكأن القدر أرسلك إلينا. فقلت: هو كذلك، انه القدر الذي يسوق الناس ويقودهم ساقني إليكم فنادني لأصنع لكم شباكاً ولأشارك في عمران سان باولو. فضحك الرجل، وقال انظر ماذا يلزم لك لتقدمه، قلتُ يلزم لي كل شيء. إذ ليس لدي سوى يديَّ وعينيَّ وعقلي ارجو أن تحضر لي أولاً متراً لاقيس به الخشب الذي اريده وورقة اقيد عليها ما يلزم من خشب. قال: ابقَ هنا دقيقة لأحضر لك مطلوبك قال هذا ونزل السلّم فرحتُ أتأمل الشباك (القتيل) والشباك الآخر الذي لا يزال قائماً مكانه وأشكر القدر الذي سهل لي الامر لان وجود شباك اتخذه مثالاً للعمل كان من عمل القدر وحده. ولم يلبث الرجل ان عاد فترك لي المتر والورق ثم قال: متى قدمتَ طلبك نقدم لك المطلوب. وعاد إلى عمله. فرحت اقيس على الشباك الذي أمامي واحسب ما يلزم وفي ظرف نصف ساعة نزلت إلى المعمل وسلمت الطلب للمعلم الذي نظر فيه ثم قال: حسن جداً، نحن اليوم في أول الاسبوع. تعال صباح غدٍ وباشر العمل لانك تجد مطلوبك جاهزاً. وهكذا كان، رجعتُ في اليوم التالي ورحتُ اعمل وحدي فكنت المعلم والصانع وكنت فرحاً لاني وجدت الامور مسهّلة، وقد سهّلها وجود المثال، كما قلتُ سابقاً.

في آخر الاسبوع كان الشباك مركباً في مكانه، وقد سرّ به صاحب العمل. وكنت ارجو أن أبقى في عملي كنجار حتى اجد عملاً

كصحفي أو كشاعر... ولكن الرجل بعد ان دفع لي اجرة عملي شكرني وودعني ا فهمتُ انه كان في حاجة إلى من يعمل له شباكاً لانَّ مصنعه للتجارة الافرنجية: خزائن وموائد وكراسي ومرايات وهلم جرًّا، ولم يكن في عماله من يحسن صنع شباك. حتى كان هذا العمل من نصيبي ا. وها انذا ما زلتُ إلى اليوم، وقد تغير الشارع فاتسع واصبح جادَّةَ عظيمةً واقتلع البناء القديم من محله وقامت مقامه بناية سحابية لا اعرف عدد طبقاتها، قلتُ وها انذا ما زلتُ كلما مررتُ في المكان اتذكر (شبا كي العزيز..) الذي أكلتُ بفضله شهرًا أو أكثر من شهر ا والذي جعلني أن اسجل لنفسي فضل المشاركة في عمران مدينة سان باولو العظيمة!

ولقد تعرفت في سان باولو أول مجيئي إليها «بالشاعر القروي». وكنت اسمعه شعري فيقول لي: ان أحسن ما في شعرك انك تنظمه ولا تعرف أن تقرأه... ذلك لانني كنت أجهل أبسط قواعد الاعراب. ومع هذا فكان قد اجتمع عندي ديوان مخطوط. وكنت اريد أن أطبعه. فطلبت من «القروي» – ولم يكن عرف بهذا الاسم بعد – أن ينظر فيه قبل طبعه. فأخذه ثم أعاده إلي بعد مدة زاعماً انه من الشعر الممتاز ا

لم أطبع ديواني ذاك آنئذ لعدم وجود نفقات طبعه. وأنا الآن احمد الله ألف مرة على الفقر الذي بفضله لم أطبع ذاك الديوان الذي لم البث أن أتلفته وأتلفت بعدئذ أضعاف ما كان فيه من الشعر السخيف. فقد أصبحت مع الايام اميز بين جيد الشعر ورديئه. وأصبح لا يعجبني منه إلا ما كان في أسمى مكان من الجودة.

وفي تلك الأثناء تعرفت كذلك بالأديبين جورج حسون معلوف وتوفيق ضعون . واشتدت اواصر صداقتنا حتى اننا كنا قلما نفترق . واشتركت مع توفيق ضعون في اصدار مجلته « الجديد » . على ان هذه الشراكة لم يطل عمرها لأنها كانت رمزية .

في أواخر الحرب العالمية الاولى ابتدأ الجهاد ضد الاستعمار الافرنسي والانكليزي اذ كانت قد انكشفت نيات تينك الدولتين . وأخذ النزاع يتفاقم بين اماني السوريين ومطامع الاستعماريين . وكانت صحافة الجالية كلها تقريباً في جانب فرنسة ومع الصحافة معظم المهاجرين . غير ان العزة الوطنية كانت تظهر في جريدتين اثنتين في كل البرازيل هما « الزهراوي » للمرحوم جورج أطلس و « المقرعة » لأول شهداء الوطنية في المهجر المرحوم سليم لبكي . لم يكن هذا الشهيد على شيء من العلم ولكنه كان على أشياء من الجرأة والوطنية . وكان يعاونه على اصدار جريدته كاتب سيىء الأخلاق بذيء اللسان والقلم لا يتورع ولا يعف . فكانت « المقرعة » تخيف الناس الذين يحترمون نفوسهم . ومع انها كانت حرة النزعة فقد كان الأحرار وهم أقلية ضئيلة آنذاك يأبون أن يكونوا على اتصال بها . وحدث ان ترك الكاتب المذكور آنفاً تحرير الجريدة فانضممت أنا إليها وانضم إليها توفيق ضعون . وقد صمم كلانا على رفع مستواها الأدبي مع المحافظة على مبدئها الوطني الحر . وهكذا كانت بحيث انها لم تلبث ان أصبحت جريدة الأحرار . وأذكر انني لم أكن اكتب مقالاتي التي كانت تظهر فيها . بل كنت

أقف لدى صندوق ٱلحروف فأفكر وانضد دون أن يكون أمامي أية كتابة . وما أظن أحداً سبقني إلى هذا .

وكانت الصحافة العربية الأخرى تشيد بفضل فرنسة على ٱلسوريين وعلى ٱلعرب وعلى ٱلدنيا كلها . فكان علينا أن نحاربها حرباً لا هوادة فيها داحضين حججها ومظهرين فسادها ومبطلين مزاعمها . ولم تكن تخلو كتاباتنا من شدة . ومع خلوها من أي تحامل على ٱلاشخاص فقد كانت أشد على خصومنا من مقالات سليم ومعاونه الاول .

في صباح ذات يوم لقيني صديق لي كان ينضد ٱلحروف لاحدى ٱلجرائد العربية في سان باولو . فأخذني بيدي وأدخلني إلى « مقهى غوارانى » الكائن في شارع ١٥ نوفمبر . وما ان جلسنا نتناول ٱلقهوة حتى قال لي : ماذا تعمل أنت في سان باولو ؟ ولماذا لا تعود إلى ميناس حيث اخوانك ؟ وكان هو يعلم ماذا أعمل أنا في سان باولو ، ولهذا تأكدت ان وراء سؤاله خبراً مهماً ، وأيقنت كما يقولون ان وراء ٱلأكمة ما وراءها . فقلت له ولماذا تريد مني أن أرجع إلى ميناس وماذا يضيرك بقائي في سان باولو ؟ قال إسمع يا الياس : أنا أحبك وأخلص لك ولا اريد أن تذهب ضحية ٱلتعصب والجهل . فقد سمعت مساء أمس (فلاناً) يحرض اليـاس صبرة على قتالك وقتـل سليم اللبكي وتوفيق ضعون . سمعته يسميكم واحداً واحداً ويقول له هؤلاء « المكا ... » يجب أن يروحوا من ٱلدرب . لهذا يا صديقي أريد أن لا تعرض نفسك للتهلكة . قلت لا بأس لا تخف علي وشكرته وقمت تواً إلى ادارة المقرعة .

فوصلتها قبل سليم وقبل توفيق . ولما حضر الاثنان أخبرتهما بالواقع . أما سليم فوقف قائلا : إذا جاؤا وجهاً لوجه وكانوا عشرة لا يهمني أمرهم . وكل خوفي أن يغدروا بي . وأما توفيق فانه ذهب إلى الغداء ولم يرجع .

في مساء ذلك اليوم قتل سليم اناجكي برصاص الياس مسرة غدراً . أطلق عليه ثلاث قذائف من مسدسه وقعت كلها في ظهره .

اختفى توفيق ضعونا ولم يبق في الميدان غير حديدان ! فاصدرت عدد المقرعة مصدراً برسم الفقيد وحملت على القاتل ودافعيه حملة مستقتل . ثم أصدرت عدداً آخر ، وكان هذا الأخير ، إذ لم يكن في اليد نقود لاصدار جريدة ولا لدفع ثمن عشاء . وكنت أسمع « همساً » ان السيد جرجي قربان من حزب الاحرار . ولم اكن أعرفه شخصياً . ومع هذا فقد عزمت على زيارته وطلب معونته . فذهبت إلى مكتبه وكان في شارع فلورنسيو دي ابراو . وهناك عرفته بنفسي وقلت له إذا شئت أن تقوم بالنفقات فاني اتابع اصدار الجريدة . ونظر الي نظرة جافة وقال بالحرف الواحد : « روح تطلع على شغله تنفعك » ! وفعلا رحت أتطلع على عمل ينفعني . وكان المرحوم جورج اطلس صديقاً لي فقدمني إلى السيدين سليم وابرهيم طعمه . فاحضرا لي صندوقاً ملآن نماذج لبضاعتهما وأرسلاني متجولا إلى ولاية ماطو غروسو وبرنا . وهكذا ابتدأت حياة جديدة لمحل السيدين سليم طعمه وأخيه .

فاتني أن اذكر ان مأتم المرحوم سليم الابكي قد كان على جانب عظيم من الأهمية. لأن هذه الجريمة هزت الجالية هزًا عنيفاً وحملتها على مرافقة الجثة إلى مقرها الأخير. وهناك لأول مرة في حياتي وقفت مؤبناً الرفيق الشهيد بابيات لا اذكر منها الآن إلا هذه:

أغمدوا السيف في التراب خضيباً حـدُّه الحـاد بالدمـاء محنّى
يا حسامَ الاحرار أغمدتَ غدرًا قبل أن تنجـلي العجاجة عنـا
إن فوز الأحرار قد صار مضمو نًا فـلا تجزعن ونم مطمئنـا

* * *

ساءني ان لا أستطيع البقاء في سان باولو وهي المدينة التي اعدها بحق عاصمة العرب في البرازيل. فان فيهـا عددًا كبيرًا من أدبائهم. وهؤلاء كانت تهمني معاشرتهم لاني كنت اكتسب منها علماً ومعرفة الأمر الذي قلما فكرت في سواه. لقد شقيت في سان باولو وتعذبت ونمت ليالي دون عشاء. ومع هذا فقد كنت اريد أن أبقى فيهـا قريباً من اصدقائي الادباء. على انني اقتنعت أخيرًا بما قسم لي. ورحت اسافر شهرين إلى ولاية ماطو غروسو ثم أعود منها إلى برنا مارًا في سان باولو. وفي برنا أقضي شهرين آخرين. بمعنى اني كنت أزور العملاء مرة كل أربعة اشهر. كانت الحال في سوريا تزداد تعقدًا والثورة تندلع نيرانها هنا وهناك. وكانت نار الحماسة في صدري تضاهي نار الثورة في ديار الشام. فكنت انظم قصائدي الوطنية وانشرهـا في جريـدة الافكار

لصاحبها الدكتور سعيد أبي جمرة ، وكانت جريدة الأفكار تمثل صاحبها الفاضل أحسن تمثيل إذ انها كانت وطنيـــة معتدلة وكان اسم الامير فيصل يرد في البرقيات يومياً فتسبه الجرائد المأجورة وتتهكم عليه وعلى العرب كافة . وما كان يزيدني تهكم تلك الوريقات إلا تمسكاً بالامير الذي كان يمثل آمال الاحرار العرب . في تلك الاثناء نظمت قصيدتي المعنوية « إلى امير اليوم ومليك الغد » ونشرتهـا في جريدة الافكار فكانت أحسن قصيدة نظمتها إلى ذلك التاريخ . وبعد أشهر رأيتهـا منشورة في جريدة « القبلة » التي كانت تصدر في مكة مع تقريظ لها بقلم صاحب الجلالة المغفور له الملك حسين بن علي . ولشدة فرحي غيبت كلمات الملك حسين وهي ما تزال عالقة في ذاكرتي إلى الساعة قال :

« إطلعت على هذه القصيدة والتمس من صحيفتنا « القبلة » نشرها إذ لو لم يكن سوى هذه القصيدة وما احتوت عليه لكفاني فخراً بهـا وبمنشئها » والتوقيع « الحسين بن علي » . وكنت على اثر دخول الامير فيصل على رأس الجيش العربي إلى دمشق نظمت قصيدة وبعثت بهـا اليه إلى مكة ظناً مني أنه يكون فيها . بيد انـــه أجابني من فرسايل بكتاب لطيف احتفظ به إلى الآن وسأحتفظ به مـا دمت حياً وكان توقيعه هكذا : « من قائد الجيوش العربية الشمالية وممثل العرب الاول في مؤتمر الصلح . فيصل »

على أثر صدور قصيدتي المذكورة آنفاً والمنشورة في جريـــدة الافكار كنت مسافراً إلى ماطو غروسو . وكان زميل لي في التجوال

التجاري اسمه على ما أظن ميكال عوده جالساً إلى جانبي. وكنا على خط نور ويستي. وكان ميكال هذا - على ضخامة جسمه - خفيف الظل لطيف المعشر لعوباً طروباً. ففي إحدى محطات القطار صعد إلى المركبة التي كنا فيها شيخ جليل من مرجعيون وكان من معارف رفيقي واصدقائه. ولم يكن يعرفني فسلم على رفيقي كما يسلم الصديق على صديقه وسلم علي سلاماً مختصراً لطيفاً. ثم جلس معنا وأخذ يتحدث ويسأل عن الاحوال السياسية في البلاد. فراح رفيقي يماكسه متعمداً اثارته مضمراً غير ما يظهر لان الشيخ كان عربياً متحمساً وكان رفيقي كذلك عربياً متحمساً. ولكنه أخذ يتظاهر بالميل إلى الافرنسيين. وبغتة سأله الشيخ: هل قرأت « الافكار »؟ أجابه نعم. وماذا في الافكار؟ قال ألم تقرأ قصيدة فرحات؟ فقال عودة متضاحكاً مظهراً التهكم قرأتها ومن يكون فرحات هذا وما هو لنهتم بقصيدته؟ انه « دبانة » لا أكثر ولا أقل! فاحتدم الشيخ غيظاً وأجابه بغضب « الدبانة » أنت وما فرحات إلا نسر! وكنت أنا ساكتاً لا ابدي ولا اعيد. فلما بلغ الجدال بينهما إلى هذا الحد لم يبق لي طاقة على السماع. فقمت من مكاني وذهبت إلى حنفية الماء متظاهراً باني اريد غسل وجهي ويدي فاغتنم رفيقي هذه الفرصة وأخبره ان رفيقهما هو فرحات لا غيره. فلما رجعت رأيت الشيخ منتصباً ينتظرني فتلقاني بذراعين مفتوحتين وضمني إلى صدره وأخذ يقبلني والدموع تجول في عينيه. فزادت ثقتي بنفسي وتأكدت ان شعري أخذ يحتل مكانه وان رسالتي

الوطنية لا بد أن تهم مجموع الجالية مرجعة الضالين منها إلى حظيرة الايمان بمجد العرب .

في سنة ١٩٢٠ التقيت لأول مرة الآنسة جوليا ابنة بشاره جبران « بشراي » في الريو ناغرو – برنا – في منزل صديقي نسيبها نخله جبران حيث كانت وأهلها يقضون السهرة في بيت نسيبهم هذا . وما ان وقعت العين على العين حتى شعرنا بخفقان القلبين وتفاهم الروحين !

وفي ٢٥ حزيران من سنة ١٩٢١ أصبحنا زوجين ولكن بعد سنة جدال وأخذ ورد و « قتال » مع أبيها الذي كان يرضى يوماً ويغضب شهراً . لأنه على ما يظهر كان يريد أن يزوجها لأحد رجال المال لا لشاعر كل ماله أقوال ! وكنت قد تركت التجوال وفتحت بيتاً متواضعاً في كوريتيبا حاضرة ولاية برنا في حي Juvevê . وتزوجنا في الريو ناغرو وسافرنا إلى كوريتيبا في نفس يوم الزواج . وهناك باشرنا حياة جديدة لا نزال – بحمد الله – ننعم بها إلى اليوم . بعيد زواجي بقليل زارني في بيتي ذاك الاستاذ حنا خباز الحمصي وكان طائفاً « حول الكرة الارضية » . وفي أثناء زيارته لي سألني : اين مكتبتك يا فرحات ? فجئته بكتاب « المرآة الوضية في الكرة الارضية » لمؤلفه الدكتور فانديك ولم يكن لدي كتاب سواه . وقلت له : اليكها يا استاذ ! فقال متعجباً : أهذه كل مكتبتك ? قلت نعم . فلمس رأسي وقال مكتبتك هنا ! وقبل أن يودعني ناولته قصيدة لا أذكر منها إلا هذين البيتين :

خباز اخبز علوماً وأطعم الجائعينا
فالعام كالخبز يضني ان يأكلوه عجينا !

في سنة ألف وتسعمائة واثنتين وعشرين قبيل رفع الستار عن التمثال الفخم الذي كانت الجالية السورية أوصت عليه لتقدمه هدية للبرازيل في عيد استقلالها المئوي ، اقترحت لجنة التمثال على الشعراء نظم أبيات تناسب المقام لتنقش على قاعدته. وكان عدد الشعراء المتبارين كبيراً. فقد جاءت الابيات من الشرق والغرب. فربحت الجائزة أبيات هذا العاجز. فكتبت عدوتي جريدة أبو الهول تقول: ان شعر المتمام تحت السنديانة بذ شعر حملة الشهادات.. على ان اللجنة ما كادت تعلن رأيها حتى أخذت تتهافت الشتائم عليها وعلى صاحب الأبيات الرابحة من بعض أصحاب الجرائد الذين كانوا قد اشتركوا في المباراة ومن بعض الشعراء المعروفين الذين عز عليهم أن يبذهم شاعر ناشئ يكاد يكون مجهولاً. وهذه الشتائم كانت « أول جائزة » نلتها على التفوق ! وأخيراً عدلت اللجنة عن نقش أي شعر واكتفت بالكتابة النثرية. وارجو الا يسألني أحد عن أبياتي الرابحة فاني أنا نفسي نسيتها. وطبعاً لم أنسها إلا لأنها أهل للنسيان! ولا ادري ما هي الميزة التي وجدتها اللجنة فيها حتى فضلتها على سواها.

في كوريتيبا ابتدأت بنظم الرباعيات. ولم يكن يخطر لي في بالي نظم كتاب خاص من هذا النوع من الشعر. نظمت أول الأمر قصيدة مؤلفة من مقاطع كل مقطع مؤلف من أربعة أبيات على نفس الوزن

والقافية وإنما في موضوعات مستقلة . ونشرت قصيدتي في جريدة الأفكار فنقلتها الجرائد والمجلات واستحسنها الأدباء . فشجعني هذا الاستحسان على متابعة النظم . فأخذت انظم مقاطع متفرقة في موضوعات مختلفة وعلى أوزان عدة حتى حصل لي منها ديوان صغير طبعته سنة ١٩٢٥ باسم (رباعيات فرحات) .

ويجب أن يعلم القارئ ان كل شعري المطبوع نظم بعد الحرب الكونية الاولى . فلقد أتلفت كل ما نظم قبلها وبعضاً مما نظم بعدها . حتى لأقدر اني أتلفت من الشعر أضعاف ما أبقيت منه .

في سنة ١٩٣٢ تألفت لجنة من أدباء سان باولو لطبع « ديوان فرحات » . وكنت أريد طبعه في جزئين . فابت علي اللجنة ذلك . على انني لم أزل على نيتي الاولى إذ سأعيد طبعه – إذا قدر لي ذلك – في جزئين اسمي أحدهما الربيع والثاني الصيف . وسأطبع جزءاً ثالثاً مما اجتمع لدي بعد طبع الديوان واسميه الخريف . واترك طبع « الشتاء » إلى الوراث ... وفي تلك السنة سنة ١٩٣٢ أو السنة التي تلتها نظمت أول قصيدة من ديواني « أحلام الراعي » . وهذا الديوان لا يزال مخطوطاً(١) وسيبقى كذلك حتى يمن الله عليه بمن يطبعه واخوانه .

لديَّ كتبٌ لقل مالي   مالي إلى طبعها سبيلُ
إن متُ عنها يكون موتي   عن قصرٍ ما لهم كفيلُ !

(١) صدر هذا الديوان اخيراً عام ١٩٥٢ عن دار « مجلة الشرق » بالبرازيل التي وزعته هدية على مشتركيها .

في سنة ١٩٣٣ فجعت الأمة العربية بفقد قائدها وحبيبها الملك فيصل الاول . فقامت المآتم بين الجوالي العربية وفي كل بلد عربي . ونظم الشعراء في رثاء الراحل العظيم من الشعر ما لو جمع لكان منه مجلدات ومجلدات . ومن هذه المآتم مأتم عظيم أقامته الجالية العربية في سان باولو ومأتم أعظم أقامته اختها في بوانس أيرس . وقد اشتركت في المأتمين . وذلك ان جاءتني من جالية بوانس ايرس دعوة رسمية للاشتراك بحفلة التأبين كما جاءت دعوة منها إلى زميلي وصديقي القديم الشاعر القروي . عندما وصلتني الدعوة كنت في مدينة لابا في ولاية برنا . وكانت الدعوة تقول إنني أجد جواز السفر في سان باولو جاهزاً لحسابي وان « القروي » سيكون رفيقاً لي في هذه السفرة . ولم يكن معي من النقود ما يوصلني إلى سان باولو . وكان القروي قد كتب الي يستعجل حضوري لاعداد أوراق السفر فأجبته طالباً منه أن ينوب عني في اعداد أوراقي فأجابني :

« صحيح انك شاعر مجذوب ! كيف تريد أن اعد أنا أوراقك ولا بد من توقيعك عليها . وهب اني وقعتها عنك فلا بد من صورتك . أفتريد أن أضع صورتي مكانها وأقول هذا فرحات » ! افزعني هذا « التهديد » من القروي . ولجأت إلى الحل الوحيد الذي يمكن أن يوصلني إلى سان باولو . وذلك ان كان عندي قطيع من الغنم فيه بعض الحملان فبعت هذه وسافرت بثمنها إلى سان باولو . وفي أثناء وجودي في سان باولو أقامت الجالية حفلتها للمرحوم الملك فيصل . فاشتركت

ورشيداً فيها . وكان الخطيب المشهور الاستاذ ميكال قزما قد جاء من بوانس ايرس إلى سان باولو فعرفه بي أحد الأصدقاء قائلاً : هـذا هو الشاعر الذي يربي خنازير في برنا ، فقلت : وفي سان باولو أيضاً ...

قبيل سفرنا إلى العاصمة الفضية أقامت لنا العصبة الاندلسية حفلة وداع في أحد ابهاء بناية مارتينيلي حضرهـا معظم ادباء سان باولو وخطب فيها المرحوم ميشيل معلوف رئيس العصبـة وحسني غراب ونصر سمعان والمرحوم جورج أنطون كفوري والآنسة فكتوريا صفدي وخطب باسم العصبة الاندلسية الصديق العزيز الاستاذ جورج حسون معلوف . وكان وداعنا في محطة القطار الذي أقلنـا إلى ثغر سانطوس حافلاً أخذت لنا وللجمهور فيه صورة سينمائية . وفي سانطوس زارتنا في الباخرة لجنة من قبل الجالية ، جالية تلك المدينة . وفي أول ليلة قضيتها والقروي « بين السماء والماء » اجتمع المسافرون ومعظمهم من السياح أصحاب الثراء وأخذ الشبان والشابات يرقصون . فقلت للقروي : هات العود واضرب عليه ولأقسمن لك اننا نرقص عجائز لندن ! فأبى وذهب إلى مخدعه . وبقيت أنا وحدي انظر إلى الراقصين والراقصات يتهادون على سطح « استوريا » وهي كالعروس تتهادى على سطح اليم . وفي تلك الساعة تناولت من على إحدى المناضد علبة سكاير فارغة وكتبت عليها :

جلستُ وحدي وآمالي مبعثرةٌ والركب مجتمعٌ زوجين زوجينِ
وكلما جال طرفي صحتُ منتفضاً يا قرة العين مـا اناك عن عيني

كأنما أنا في بحرين قـد وصلتُ هذا بذا ظـأمٌ من وحشة البَين
و«عشتروت» سماءٌ لو وُجدتِ بها لكنتُ منكِ ومنها في سماءين

ثم حملت العلبة وذهبت إلى حيث القروي . فوجدته مكباً على منضدة ورأسه بين يديه . فالقيت العلبة أمامه فقرأ ما فيها وقال دون أن يرفع رأسه : أرأيت كيف ان الوحدة تفتك ؟! عندما وصلنا إلى مونتي فيداو استقبلنا فيها وفد من جاليتها برآسة الوجيه الصديق رزق الله نفاع ووفد آخر كان قد قدم من بوانس ايرس اذكر من أفراده الآن الصحافي الاديب جورج عساف وزميله عبد اللطيف الخشن والاديب عبد النور ستوت وفريق من مراسـلي الصحف الوطنية . وقـد أخذوا صورتنا ونشروا عنـا شيئاً كثيراً . وفي بوانس ايرس كان في انتظارنا من الجالية الكريمة العزيزة خلق كثير وفي طليعتهم صديقنـا العزيز النطاسي جورج صوايا .

يوم وصولنا إلى بوانس ايرس صدر عدد من الجريـدة « السورية اللبنانيـة » وفيه مقال ترحيب « بالشاعرين العظيمين القروي وفرحات ». وفيه انذار وتحذير بتوقيـع « العالم العلامة والبحر الفهامة » الاستاذ سيف الدين رحال للمسلمين ألا يستقبلوا فرحات وان لا يصافحوه لانه يربي الخنازير ويتاجر بها في البرازيل .. فقال لي أحدهم ألا تريـد أن تأخذ، معك متى رجعت وتضمه بين الخنازير ؟ فأجبته فوراً كلا اني لا اريد أن أنزع « الرَّسا » أي لا أريد أن افسد العرق !..

كان موعد تأبين الملك فيصل ثاني يوم وصولنا إلى بوانس ايرس أي في الثامن من شهر كانون الاول ١٩٣٣ . وفي الموعد المضروب غص بهو سرفنتس على رحبه بأسر الجالية العربية حتى انهم قدروا عدد الحضور بثلاثة آلاف نسمة . وقد جاءت حفلة التأبين من أروع الحفلات وأفخمها وأكثرها رونقاً . وقد تحولت من حفلة تأبينية إلى مهرجان وطني حماسي .

بقينا أربعة أشهر في الارجنتين ننعم بضيافة جاليتنا العربية الكريمة، أربعة أشهر كانت كأنها عيد واحد متصل الحلقات . فالحفلات كانت تتوالى والمهرجانات لا ينتهي أحدها حتى يبدأ ما بعده .

نسيت أن أذكر اني والقروي سافرنا كعثمانيين . وقد أشر على جوازي سفرنا قنصل اسبانيا الذي كان آنذاك يتولى الدفاع عن مصالح العثمانيين . وذلك لاننا لم نعترف بسلطة فرنسا ولا تعرفنا إلى قناصلها ولا إلى معاهدة لوزان « الجزيلة الاحترام » .

وكنت قد رجعت من بوانس ايرس وحدي . فلما كان مأمور المرفأ في سانطوس يفحص جوازي قال متسائلاً : عثماني ؟! لا وجود للدولة العثمانية اليوم ! فأجبته اجل لا وجود لها اليوم ولكنها وجدت . وها أنا من بعض الاحافير التي تدل على وجودها .. فقال لقد أعجزنا هؤلاء الناس . بالامس كانوا أتراكاً عثمانيين ثم صاروا سوريين عرباً واليوم نسمع منهم نغمة جديدة يريدون أن يتنعموا بها انهم لبنانيون ! وكان رئيسه قد سمع الحوار بيني وبينه فأمره بختم الجواز « وسد النيع » .

وطئت أرض سانطوس وأبرقت حالاً إلى صديقي نصر سمعان أن ينتظرني في محطة سان باولو. ولكن عندما وصلت اليها لم أجد أحداً. فذهبت توّاً إلى بيت نصر فاستقبلني بابتسامته المشهورة.... قائلاً عليك أن تدخل البلد راكباً على جحش ابن اتان كما دخل المسيح اورشليم. فجاءه الجواب: ليس الذنب ذنبي ألم أبرق اليك لتوافيني إلى المحطة..؟ وكان ذلك اليوم أحد الشعانين! « راحت السكرة وجاءت الفكرة ».

وصلت إلى لابا فرأيت نفسي بعد مهرجانات بوانس ايرس مضطراً إلى العمل. فان الخنازير التي كنت قد تركتها سارحة في أرض لحمي هناك، قد ماتت في غيابي جوعاً.. ولما لم يكن لدي وقت للتفكير ذهبت فوراً إلى كوريتيبا، وتوّاً إلى زيارة صديقي عبده تقلا الذي كان يدير محلاً تجارياً ومصنعاً للّحف، فاتفقت معه على التجوّل في داخلية الولاية لبيع اللحف، واني اذكر هذه الحادثة هنا لأنّ لها علاقة بحادثتين متشابهتين جرتا لي في اثناء بيع اللحف:

وصلتُ إلى بلدة في شمال (برَنا) اسمها كواتيغوا وكان يوم أحد والسوق مقفلة. فبعد ان بدلت ثيابي في المنزل خرجت إلى السوق لأتعرف إلى البلدة التي ازورها لأول مرة. وبينما أنا اسير متطلعاً إلى الوجوه علني أتبين فيها وجهاً عربياً رأيت شيخاً جالساً على كرسي فوق رصيف الشارع عربي الوجه واللسان. فدنوت وسلمت وسألته لمن المحل؟ فقال لابراهيم شما. فسألته أأنت؟ فقال كلا. اجلس فانه لا يلبث أن يحضر. فجلست ثم قدم ابراهيم فاذا هو شاب حسن الملامح

طويل القامة. فعرفته بنفسي قائلا : الياس فرحات. فلم يهتم لهذا الاسم الكريم! ثم جلسنا نتحدث وكنت اريد أن اكتشف سريرته فسألته: أتطالع الجرائد؟ فقال بعضها. قلت وما الذي تطالعه منها؟ قال تجيئني مجلة كذا من مصر وأطالع جريدة «الرابطة». فقلت في نفسي ما دام يقرأ الرابطة فانه ولا شك يعرفني بالاسم. ثم سألته: وكيف ترى الرابطة؟ قال أراها حسنة لولا بعض الشعراء. فامسكت قلبي بيدي وقلت يظهر انك لا تحب الشعراء. فأجاب: احب بعضهم حباً جماً واستثقل البعض الآخر. فقلت لنفسي: جعلني الله من صف المحبوبين! ثم وجهت اليه السؤال التالي: لا أريد أن أسألك عن الشعراء الذين تستثقلهم ولكن هلّا أخبرتني عمن تحب منهم؟ فقال فوراً: احب فرحات والقروي. فهدأ روعي! وسألته مغالطاً: وماذا تحب في هذا الفرحات؟ فنظر إلي نظرة خاطفة وأجاب متحمساً: انشالله ما يعجبك فرحات؟! ثم انتبه لنفسه وسألني: ما الاسم الكريم؟ قلت محسوبك اليـاس فرحات. فصرخ «والله اني لفي حضرة الشاعر!» وجعل يتلطف بي ويكرمني ثم قال لي قم اعرفك إلى البلدة وتجارها. قلت أما إلى البلدة فجائز وأما بتجارها فلا لأن اليوم أحد فقال لا بأس اننا نزورهم في بيوتهم قم. فقمت فتولى هو نفسه التعريف وبيع اللحف!.

أما الحادث الآخر فانه وان يكن يشبه هذا الا انه أشد غرابة منه.

أخذت من صديق لي رسالة توصية إلى صديق له في بلدة في الداخلية اسمها — على ما أظن — كارلوبولس. فلما وصلت اليها سلمت الرسالة

إلى صاحبها وكان الوقت عصراً . فقال سنذهب بعد العشاء إلى بيت فلان وهناك نتعرف إلى العرب كلهم لانهم يجتمعون كل ليلة عنده . وبعد العشاء ذهبنا فاذا الاجتماع في المحل . الرجل شاب مفتول العضل أسمر اللون جالس وامرأته الصبية وراء الجناح « البلكون » وعشرة من المواطنين أو أكثر جالسون في الدكان خارج الجناح . فقال رفيقي بصوت عال : حضرته الخواجه الياس فرحات ! فقال صاحب البيت أهلًا وسهلًا ولكنه لم يتحرك هو ولا تحرك سواه . ولما لم أجد كرسياً فارغاً اجلس عليه اتكأت على الجناح تجاه صاحب البيت . وكنت منذ اللحظة الاولى انتبهت إلى نظرات السيدة الموجهة إلي . فكانت تنظر إلي وكأن عينيها تتكلمان . فخشيت أن ابادلها « التحديق » فأثير غيرة زوجها . فكنت ارد طرفي عنها وهي تزداد تحديقاً إلي . أخيراً تقدمت من زوجها وقالت له بصوت منخفض سمعته لقربي منها : هذا الشاعر فرحات . فنظر زوجها إلى وجهي وقال بصوت أسمعه : «لا موش هو !» فأجابت بلى هو وأنا اعرفه وصورته عندنا في ديوانه . فنظر الرجل إلي ثانية وسألني أتسمع ما تقول ؟ قلت نعم اسمع . فقال : وأنت ما رأيك ؟ قلت ضاحكاً : رأيي من رأيها !.. فوثب الرجل عن كرسيه وقام يعانقني ويجدد الترحاب بي ثم وجه كلامه إلى زواره قائلًا : يا جماعة ! هذا الشاعر فرحات ! فنهضوا كلهم يسلمون علي سلاماً جديداً وألح هو وقرينته علي بالدخول إلى المنزل . وانتقلت السهرة من الدكان إلى « قاعة الشرف » . أما السيدة الصبية صاحبة البيت وصاحبة الفضل في هذا

التكريم فانها شقيقة صديقي الكريم الخفيف الروح سليم ديب الحمصي. عرفتني لاول نظرة كما يعرفني معظم الحمصيين والحمصيات.

في صباح اليوم التالي كان صهر صديقي سليم ديب يدور على تجار البلدة يبيع اللحف بالنيابة عن الشاعر...

نبوءاته صادقاته ونبوءة كاذبة!

في اوائل سنة ١٩٣٩ كنت في كوريتيبا. وكنت وصديقاً لي قادماً حديثاً من الوطن جالسين في مقهى فقرأنا في إحدى الجرائد المحلية تهديدًا موجهاً من دالاديه رئيس وزراء فرنسا إلى السوريين. وكان دالاديه (ما غيرو) يسمع تهديد هتلر «ويطاش». فقلت لرفيقي: أتحسن الترجمة من العربية إلى الافرنسية؟ فقال نعم. فاحضرت ورقتين ورحت أكتب على احداهما رسالة بالعربية إلى دالاديه. وراح رفيقي يترجم ويكتب بالافرنسية على الورقة الاخرى. ومما كتبته وقتئذ قولي: أرى أيها السيد العظيم أن توجه تهديدك إلى هتلر الذي يهدد فرنسا «وكل من شد على مشدها» حتى لا يصح فيك قول شاعرنا العربي:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ربداء تجفل من صفير الصافر

واعلم أيها السيد العظيم ان الساعة آتية لا ريب فيها. وان فرنسا ستكون أول ضحاياها. واننا نحن السوريين سنرتاح على الاقل من سماع التهديد المتواصل الذي يوجه الينا من رجال فرنسا القبضايات!

وهكذا كان...

هذه هي النبوءة الاولى وأما النبوءة الثانية فهي رباعية نظمتها في تلك الاثناء وهي :

يا هتلرُ احذر وسر ما سرت منتملا ... انَّ الطريقَ مساميرٌ واشواكُ
والحاكمين رداء الحق يؤلمهم ... ان يهزأ الحق بالثوب الذي حاكوا
عكرت صفو لصوص الدهر فامتلأت ... بالجند أرض وبالتهديد أفلاك
إني ليوشك يعروني الحنان على ... لص يحاكمه لص وسفاك

وهذه نبوءة تمت بحذافيرها .

واما النبوءة « السياسية » فهي اني كنت أظن تهديد أميركا باقتحام اوروبا لا يخرج عن التهويل فقلت :

أرى صحفاً كبرى تضيق حقولها ... بكل سخيف بالسخافة مشحون
وأسمع في المواج أخبار حملة ... اذا صدقت لم يبق عال على دون
فأسأل نفسي أين يا نفس تبتدي ... ومن يتولى أمرها ، أي مجنون ؟
ومن ذا الذي يجتاح دولة هتلر ... ودولة رزفلت كدولة انطون ..

ما كل مرة تسلم الجرة !

بين حين وآخر التقي من الادباء من يسألني : كيف وأين تعلمت اللغة العربية ؟ وبين آونة وأخرى اقرأ أو أسمع من يقول : فرحات درس العربية على نفسه ! والحق يقال اني لا اعرف كيف ولا أين تعلمت هذه اللغة ! فاني لم أدرسها على نفسي ولا على غيري . فقد رأى القارئ اني تركت مدرسة الضيعة ولي من العمر عشر سنوات . ولم أكن

قرأت من الكتب عن الراهب إلا مزامير داود. ولم أتصفح حياتي كلها كتاباً في الصرف والنحو. وفي المدرسة لم يكن لهذا العلم أو لهذين العلمين من أثر. ولا أظن أن الراهب المعلم كان يعرفهما أو يعرف منهما شيئاً. وبعد تركي المدرسة لم أدرس قط. وإن أكن قرأت كثيراً، فان القراءة شيء والدرس شيء آخر. وحتى سنة ١٩٢١ لم تكن مكتبتي تحوي من الكتب غير «جوغرافية فانديك». وفي تلك السن كنت أنظم الشعر الفصيح. ولا أزعم الآن اني ملكت ناصية اللغة ولكنني اقدر ان لغتي على الغالب سليمة. لم أدرس الصرف ولا النحو ولا العروض. والدرس الوحيد الذي استفدت منه هو الانتقاد الذي وجهه إلي ذلك الأديب في جونز دي فورا. فصرت أميز بين الفاعل والمفعول. وأنا من طبعي لا جلد لي على الدرس ولا أحب التعمق في المعنى ولا التعقيد في اللفظ. فاذا لم أفهم الشيء المكتوب بسهولة تركته وشأنه! وإذا كان يظهر في شعري شيء يشبه التعمق فما هو إلا عفو الخاطر. ولست مفتخراً في هذا وإنما اسجل حقيقة. ولا أنظم حين أنظم الشعر إلا ما يرد علي من الخواطر السانحة. واني لأعجب لزميلي وصديقي «الشاعر القروي» الذي لا يخلو جيبه من دفتر صغير يسجل فيه خواطره نثراً حتى إذا جلس ينظم أدخلها في شعره مدخلاً كريماً. وأنا لا أجلس إلى مكتبة لأنظم ولكنني انظم شعري ماشياً في السوق أو مسافراً في الحافلة أو في القطار أو نائماً في الفراش. أنظم أبياتاً قد تبلغ العشرة أو العشرين وأخزنها في ذاكرتي حتى تتسنى لي كتابتها.

بعد سنة ١٩٢١ أي بعد أن تزوجت وصار لي بيت خاص آوي اليه، اشتريت « البيان والتبيين » للجاحظ وقرأته ثم قرأت « المتنبي » ثم « القرآن » . ولقد سمعني أحد اصدقائي مرة أقرأ في القرآن « واجوده تجويدًا » فقال: لو سمعك المسلمون تجود القرآن هكذا لكفروا به وبالذي أنزل عليه ! ثم رحت أقتني بعض الكتب الحديثة واقرأها . فالعقاد مثلًا يحتل الصدر من مكتبتي الحديثة يجيء بعده طه حسين . وعندي الآن من الكتب النفيسة ما لا يزيد بالعدد عن العشرة . منها كتابان أو ثلاثة كتب للعقاد ومثلها أو أقل منها لطه حسين وعندي « ملوك العرب » للريحاني وعندي من الدواوين ديوان المتنبي وابن الرومي وحافظ ابراهيم والمطران والملّاط ودواوين « القروي » وديوانا أبي ماضي وغيرها . ولقد استفدت من قراءة المجلات والجرائد ولا سيما ما كان يجيء فيها أحيانًا من النقد اللغوي لاساتذة معروفين . وتتألف مكتبتي من بعض المجلات المجلدة وبعضها الآخر دون تجليد .

وقد ورد علي من الوطن مؤخرًا عدة رسائل من ادباء يريدون أن يكتبوا شيئاً عن الادباء العرب في أميركا ويريدون أن يعرفوا شيئاً عن طفولتي وأين درست وكيف تعلمت؟ فلي أمل أن يروا في كلمتي هذه ما يريدون أن يعرفوه رأيت أن اكتبها ذاكرًا فيها بعض ما علق في الذاكرة من شؤون طفولتي وشبابي . وها أنا اختمها بوصف حياتي المتيدة في أبيات نظمتها مؤخرًا وهي :

ثلث حياتي شاعر ينظم ما في نفسه ومثلها فلاح

وثلثها الباقي وسيط فاشل | صعب عليه العرض والالحاح
فلي من المنظوم ما يدفعه | جمهورنا الشتام والمداح
ولي من المزروع ما يتركه | نحل به يام أو يجتاح
ولي من المبيع رزق تافه | وصاحب الرزق له الارباح
والحمد لله فهذي نعمة | ليس لمثلي مثلها يتاح
ما دام عرض المرء موفوراً فما | على زمان باخل جناح

نصر وانا ومحمود شريف

من زمن غير بعيد زارني الصديق العزيز الشاعر نصر سمعان ، قلت زارني وأنا اعني انه زار مدينتنا (الافق الجميل) وبالطبع زارني فيها ، وكان نصر يحمل عينات بضاعة لاحد معامل عمان باولو يريد أن يبيع عليها ، فبعد ان عمل هنا في المدينة سألني : ألا ترافقني إلى بعض مدن قريبة من هنا ؟ فقلتُ له اني يا نصر ارافقك إلى كل مكان مهما يكن بعيداً فاني أراه في مرافقتك قريباً . فقال نصر : أنا لا اعرف ولا مدينة غير هذه التي نحن فيها ، فقلت وأنا لا أعرف إلاّ اسامي المدن التي هي قريبة منا ، اسمع ان على مسافة أقل من ساعتين بالسيارة الجماعية تقع مدينة يزعمون انها مدينة حسنة ، يطلقون عليها اسم (السبع البحيرات) أو (البحيرات السبع) وكنت أعلم ان في المدينة وفي ضواحيها سبع بحيرات صغيرة فهل نذهب اليها ؟ فقال نصر نذهب ، فاخذتُ أنا شيئاً من العينات التي ابيع عليها وأخذ نصر عيناته ، وبينا

كنا في محطة السيارات ننتظر دور حافلتنا تذكرت ان لنا في مدينة (السبع البحيرات) صديقاً قديماً أديباً هو الاديب المصري الوحيد في البرازيل وهو محمود شريف فقلت لنصر : هل تعلم ان لنا عملاً لا يمت إلى التجارة بسبب هناك في المدينة التي نقصدها؟ فنظر إليّ نصر مستفهماً بعينيه دون لسانه، فقلت ان محمود شريف مقيم في المدينة من سنوات منقطع فيها عن العالم العربي وعن زملائه الادباء العرب في البرازيل وأعلم انه يدرّس الانكليزية في ثانوية المدينة ويعطي دروساً بهذه اللغة لمن يريد ان يتعلمها. فقال نصر: عال. عال. عال..، اننا سنتاجر وسنزور محمود شريف. ثم جاءت سيارتنا فدخلناها وجلسنا كلٌّ في مكانه، وكان المكانان متلاصقين. عندما دنونا من المدينة لاحت لنا البحيرة الاولى فقلنا (مشتركين) : هذي المياه شريفٌ شرّفها لو أنها وسكي لنشّفها !...

بعد قليل كنا في المدينة وكان الوقت عصرًا فرحنا نسأل (في الحانات ...) عمن يعرف محمود شريف ويهدينا اليه. وبعد ان سألنا في عدة حانات ... قال لنا فتى كان يدير إحداها : ها، انتما تبحثان عن الاستاذ شريف؟ فقلنا : اجل، إنا نريد الاستاذ شريف! فقال كان هنا من ساعة زمان، فشرب قنينة (غوارناه) (مبردات وطنية) وذهب إلى غرفته، فقلنا واين غرفته؟ فدلّنا الفتى عليها، فشينا اليها ونحن نفكر ونعجب كيف يشرب محمود شريف (الغوارناه) وأين الوسكي؟ واين العرق؟!

اخيراً لقينا محمود ففرح بلقائنا كما فرحنا بلقائه. وقد قضينا السهرة نتمشى حول البحيرة التي تتوسط المدينة وراح محمود شريف يصف لنا المدينة وانها احسن مدينة في الدنيا لانه لم يأ كل خبزه بعرق جبينه إلاّ فيها... ووصف لنا اهل المدينة احسن وصف وقال: انكما تبيعان كل بضاعتكما هنا لان تجار البلدة كرام ويحبون الغرباء، وقد افترقنا عنه حوالى نصف الليل بعد ان ودعنا محمود شريف وقد قال لنا انه لن يرانا في اليوم التالي لانه يوم فحوص في الثانوية التي يدرّس فيها وانه مضطر ان يشترك فيها.

في اليوم التالي جلنا في السوق وزرنا التجار ولكننا لسوء الحظ لم نستفتح!

السيارة تعود إلى الافق الجميل عند الساعة الواحدة بعد الظهر. تغدينا في الفندق. ودفعنا حسابنا لصاحبه، وقد صعب علينا ان نترك المدينة دون ان نودع محمود شريف وداعاً يليق به وبمدينته... فكتبنا على هامش إحدى الجرائد التي وجدناها على منضدة هناك هذا (الشعر الوداعي...)

ارض البحيرات أفتِ منها ومن ساكنيها
لو لم تكن دار شؤمٍ ما عشت اليوم فيها!..

واقتطعناه من الجريدة ووضعناه في غرفة محمود شريف مدخلينه من تحت الباب!

الباب الثاني

عودة الغائب

— كلمة : —

كان شيخ المجاهدين الاديب الكبير الصديق محمد علي الطاهر ، قد اطلع على أحد أجزاء هذه المخطوطة . فكتب إليّ من بيروت يقول : « كنا ننتظر منك شيئاً غير هذا ، كنا ننتظر مثلاً درساً للاوضاع السياسية في البلاد . ان كتابك هذا يسر أصحابك ويفرح انسباءك » فأجبته :

إذا قال لك قائل اني ألفت هذا الكتاب لاعرضه على لجنة جائزة نوبل فأرجو أن تكذبه عني ...

حسبي ان في كتابي هذا أصحابي وانسبائي والحقيقة !

* * *

« عودة الغائب » كتاب طبع على حدة في إحدى دور الطبع في بيروت، ولأمر ما اهمل طابعوه اصلاح أغلاطه المطبعية، ولا سيما في النصف الاخير منه، فجاء محشواً بالاغلاط التي لا يمكن اصلاحها. وكان ان طابعيه في بيروت، قد أرسلوا إليَّ، بالبريد الجوّي، نسخةً منه، وهي النسخة الوحيدة التي اطلعتُ عليها، وهي النسخة التي انقل عنها الآن، واحتفظوا بسائر النسخ عندهم لا يوزعونها ولا يبعثون إليَّ بشيء منها ولا يطلقون سراحها. وبعد ان ارتفع صوتي بالاحتجاج وبطلب خمسين نسخة منها لاوزعهـا هنا على أصحابي، بعـد تصليح أغلاطها المطبعية طبعاً، وكانوا يزعمون انهم أرسلوهـا إليَّ وانهم لا يحتفظون عندهم بشيء منها، وفي أواخر سنة ١٩٦٧ تسلمت من البريد عندنا انذارًا ودعوةً لاتسلم بضاعةً لي فيه، مرسلة من بيروت باسمي، فذهبت لأرى (البضاعة) واذ أروني ثلاثة طرود كبيرة تحوي كتباً مشحونة باسمي من بيروت، وانهم يطالبونني بكشف (فاتورة) بقيمة هذه (البضاعة) ليبنوا عليه قيمـة الضريبة الجمركيـة التي يجب أن يتقاضوها... ففهمت فورًا ان هذه البضاعة هي مجموعة نسخ (عودة الغائب) التي مضى على صدورها في بيروت اكثر من ثلاث سنوات، ولما كنت واثقاً بان (بضاعتي) هذه بما فيها من اغلاط مطبعيـة لا تصلح للبيع، واني على كل حال لن اتاجر فيهـا ولن ارضى بان يظهر باسمي كتابٌ فيه هذه الاغلاط الفظيعة، قلت للمأمور الذي يخاطبني: ان هذه البضاعة وان تكن مشحونة باسمي فهي ليست لي لاني لم اطلبها.

واني لن اتسلمها . فقال الرجل : إذًا تعيدها إلى مصدرها ، فقلت له هذا شأنكم لا شأني فقال تعني انك تريد ارجاعها. قلت اعني اني لن اتسلمها.. فقال : إذًا وقّع على هذه الورقة ، فوقعتُ على الورقة وانتهى عملي في ادارة البريد !

عدت إلى منزلي وانا افكر في طبع (عودة الغائب) طبعة جديدة تخلو من الاغلاط المطبعية وتخلو من ردّي على الفئة الضالة التي ما زالت تحاربني منذ خمسين سنة اولاً لاني لم اعترف بانتداب فرنسا على لبنان وثانياً لاني لا ارضى عن تمزيق الارض العربية إلى دويلات . فلبنان وسورية وفلسطين والاردن والعراق وسائر ما خلق لنا الاستعمار من دول كانت في زمن الحكم التركي ولايات وانصاف ولايات وارباع ولايات ! وقد صارت حسوماً كالضرائر بعدما كانت لجسم واحد اعضاء ...

وهكذا قررتُ ادخال عودة الغائب في الكتاب الجديد الذي سأصدره تحت اسم « تذكاراتي من صباح الحياة إلى مسائها » فتكون المذكرات التي الفت القسم الاول من كتابي (قال الراوي) وهي تنتهي في سنة ١٩٤٧ تكون المذكرات اول هذا الكتاب ، ثم (عودة الغائب) وهي تبتدئ في اوائل سنة ١٩٥٩ وتنتهي في ١٩٦٠ واخيرًا تجيء (مغامرة صيد في حوض اراغوايا) .

وهكذا تصبح الوقائع التاريخية التي حدثت لي متسلسلةً ، ويكون الكتاب الجديد اهلًا للظهور إلى النور وللتمتع بالحياة ! منذ

ان رحل عن سورية ولبنان آخر جندي افرنسي . واستقلت هذه البلاد العربية التي انبتتنا والتي انفقنا في خدمتها حياتنـــا مجاهدين في سبيل استقلالها بقلمنا ولساننا ، مهملين في غربتنا شؤوننا الخاصة لاجل القيام بشؤونها ، رافعين صوتنا عالياً في وجوه ظالميها ووجوه الفريق الضال من ابنائها ، معادين في هذا السبيل اقرب الناس إلينا . منذ ان حصلت هذه البلاد الحبيبة على استقلالها التام ، راح بعض الادباء من المقيمين في الوطن ، الذين كانوا يسمعون صوتنا من بعيد ، والذين رافقونا في جهادنا ورأوا ما بذلنا من جهد في دفاعنـــا عنهم وعن بلادهم ، ايام كانت الألسنة عندهم مقطوعة والافواه مكمومة والاقلام مغلولة ، وهم لا يستطيعون قولاً ولا يطيقون كتابـــةً ، راح هؤلاء الادباء يحثون الحكومتين ، السورية واللبنانية ، على وجوب دعوتنا لزيارة الوطن لنشترك معهم في افراحهم كما اشتركنـــا معهم في احزانهم ، ولنقطف ثمرة جهادنا الطويل . فكنا بين حين وآخر نقرأ لهم في صحف الوطن دعوةً ملحةً حارة للحكومة حتى توجه إلينا دعوة رسمية ، قياماً بما يقتضيه الواجب ومعرفة الجميل . وكان ان جاء إلى البرازيل ، الشاعر الصديق عمر ابو ريشه ، وزيراً مفوّضاً من قبل الحكومـــة السورية ، وبعد ان قضى بيننا مدةً ، شاء ان يعود باجازةٍ ، وشاء ان نعود معه . فدعانا إلى مرافقته في هذه الزيارة ، دعانا وألحّ ولكننا اعتذرنا عن قبول دعوته شاكرين ، ذلك لأننا لحظنا ان الوزير الشاعر لم يدعنا إلاَّ لأنه صديق لنا ، فالدعوة إذن ، وان كانت من وزير مفوّض ، ليست دعوةً

رسمية من حكومة تشعر بان دعوتها ايانا لا تخرج عن كونها واجباً تقوم به نحو من انفق عمره في خدمة القومية العربية وانها ، اي الحكومة ، مدينة بوجودها حرةً مستقلةً لهذا المجاهد ولأمثاله من اخوانه المجاهدين ولا سيما المغتربين منهم» ، ولا اتواضع رياء فازعم اني لم اعمل شيئاً واني لم اخدم القضية العربية في شيء ، فانا منذ ان عرفت نفسي رجلاً ، لا اعرف نفسي إلا خادماً للعروبة ، واقفاً حياتي على ما يرفع من قدرها . لقد بدأ جهادي في سبيلها منذ ان كنت صبياً ، وذلك في سنة ١٩٠٨ وقت اعلان الدستور العثماني ، فبعد ان اعلن هذا الدستور بقليل اخذت المشادة بين العرب والترك تظهر وتقوى ، فكنت المتحمس للعرب واسير معهم في مظاهراتهم في بيروت ، ويوم ان ثار العرب على الترك بقيادة الشريف حسين ، كنت في البرازيل ولم اكن بدأتُ انظم الشعر الفصيح بعد ، ومع هذا فقد رحت انشر في بعض الصحف المهجرية الثائرة على الترك ، قصائد اتمرن بها على نظم الشعر الفصيح . وهكذا تعلمت نظم الشعر الهجائي بالاتراك ، او كما يقول المثل في بلادنا (تعلمنا البيطرة بحمير الاكراد) .

ثم ثرتُ مع الثائرين على فرنسا يوم باشرت احتلال بلادنا ، وما زلت ثائراً عليها حتى خرجت من البلاد إلى غير رجعة ، وكنت قد ثرت عليها مع الامير عبد الكريم الخطابي بطل الريف المراكشي يوم ثار عليها وعلى اسبانيا ، ثم ثرت مع المصريين على الانكليز ، ومع العراقيين عليهم ايضاً ، ولم تقم ثورة في اية بقعة من البقاع العربية ، إلا وكان لي

فيها شيء اقوله ! ولم اميز قط بين قطر عربي وقطر عربي آخر ، فكلهم عرب ، وكلهم اخواني وكل البلاد العربية بلادي !

إنّا وان تكن الشآم ديارنـا فقلوبنـا للعرب بالاجمـال
نهوى العراق ورافديه وما على ارض الجزيرة من حصى ورمال
واذا ذكرت بلنا الكنانة خلتنا نروى بسائغ نيلهـا السلسال
بنّا وما زلنـا نشاطر اهلهـا مرّ الاسى وحلاوة الآمـال

فكنت ، وهذا شعوري ، اعلم ان لي حقاً ، لا اطالب بـه ، ولكني انتظر ان يؤدى إليّ بطريقة من الطرق !. وكان يلذّ لي ان ارى بعضاً من اخواني المنتشرين في البرازيل يعرفون لي هذا الحقّ فيبرقون إليّ مهنئين عند كل حادث تقدمي يحدث في البلاد العربية ، فقد تسلمت من هؤلاء الاخوان برقيات تهنئـة يوم جلاء الافرنسيين ، ويوم انقلاب العراق (على عبد الاله ونوري السعيد) ! ويوم اعلان الوحـدة بين مصر وسورية !

واخيراً ... في اواخر شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٨ تلقيت من السفارة السورية في ريو دي جانيرو هذه الرسالة :

« الرقم ٢٣٤ (٦ / ١) »
« التاريخ ٢٠ — ١ — ١٩٥٨ »

حضرة السيد الياس فرحات المحترم — بيلو اوريزونتي

تحية طيبة . يسرني ابلاغكم ان وزارة الخارجية السورية تدعو حضرتكم لزيارة سوريا ضيفاً عليها ، فالرجاء اعلامنا عن الموعد الذي يلائمكم انلبية هذه

الدعوة ، مع العلم ان هناك مناسبات متعددة ، منها حضور احتفالات العيد القومي في شهر نيسان ، او ايام معرض دمشق الدولي في شهر ايلول .

وبانتظار جوابكم تفضلوا بقبول فائق الاحترام .

نهاد ابرهيم الباشا
القائم بالاعمال

هذه دعوة رسمية تصل إلى يدي في اواخر شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٨ .

كان في تلك الايام مركز السفير السوري شاغرًا . وكان يقوم بالاعمال الاستاذ نهاد ابرهيم الباشا ، وقبل ان اجيب على هذه الرسالة بالشكر والقبول طبعاً ، حملت الينا البرقيات خبر القرار الرسمي الذي اتخذه مجلس النواب السوري للاتحاد مع مصر ، وطبعاً وصل هذا الخبر إلى المفوضية السورية في الريو دي جانيرو ، فخاف القائم بالاعمال الاستاذ نهاد ابرهيم الباشا ، ان تكون الدعوة التي وجهتها إلينا الحكومة السورية بواسطته ، قد ألغيت ، فكتب إلى السيد انطون كدر ، قنصل سورية الفخري عندنا ، يطلب منه استرجاع الدعوة مني ، فلما كلمني القنصل في الموضوع دفعتُ إليه الدعوة ورحتُ انتظر ما تجيء به الايام .

بعد ايام قليلة وصل الاستاذ جمال الفرا ، وزيرًا مفوضاً لسورية في البرازيل ، والظاهر ان القائم بالاعمال اخبره عن الدعوة ثم عن استرجاعها . فرأى الوزير ان الدعوة تبقى قائمة حتى تلغيها الحكومة الداعية ، وهكذا عادت الدعوة إليّ .

في الخامس والعشرين من شهر شباط بعثتُ الى الوزير المفوض برسالة يُفهم موضوعها من الجواب الذي تلقيته منه، وهو :

الرقم ٤٠
التاريخ ١٣ — ٣ — ١٩٥٨

حضرة الاديب السيد الياس فرحات المحترم

تحية طيبة وسلاماً وشكراً لصادق تمنياتكم ، و بعد : جواب رسالتكم المؤرخة في ٢٥ شباط ١٩٥٨ حول دعوة الحكومة السورية السابقة لكم لزيارة سوريا وفيما اذا كانت الدعوة قائمةً مع قيام الجمهورية العربية المتحدة وتعيين موعد الزيارة سنكتب الى مقام الوزارة مستفسرين ومقترحين ان يكون الموعد في بحر الربيع القادم او بداية الصيف ، ونعلمكم ما يتم فور وصول الجواب .

وتقبلوا ازكى تحية وسلام

السفير

جمال الفرا .

كانت الوحدة قد تمت فعلًا . وكان الوزير المفوض السوري قد صار سفيراً للجمهورية العربية المتحدة، وفي هذا الربيع قدم الوفد العربي (وفد الجمهورية العربية المتحدة) برئاسة الوزير الاستاذ صلاح البيطار، قدم الى البرازيل، وكنت في استقباله في الريو دي جانيرو ، وبعد السلام على رئيسه الوزير قال لي : انت ستعود معنا الى الوطن ! فقلت : ولكنني اريد ان أعلم اولاً اذا كانت الدعوة الاولى لا تزال قائمةً ؟ فاجاب الوزير مبتسماً : انها كانت دعوة من ثلاثة ملايين فاصبحت دعوة من ثلاثين مليوناً ... فقلتُ اذن لا اذهب معكم الآن

ولكني اعدكم باني ساذهب في الربيع القادم، ربيع ١٩٥٩ ومتى استطعت ان اعين الموعد بالضبط اتصل بكم.

وكان الاديب السوري المشهور الاستاذ فؤاد الشايب مع هذا الوفد فتوثقت بيني وبينه عرى الصداقة. وهكذا توثقت هذه العرى بيني وبين الوزير صلاح الدين البيطار وسائر اعضاء الوفد.

في اواخر هذه السنة (١٩٥٨) صح عزمي على زيارة الجمهورية العربية المتحدة، وقد رأيت ان اسافر من هنا مع زوجتي في الباخرة الايطالية (كونتي بيانكا مانو) التي تمرّ في ثغر سانتوس بطريقها الى اوروبا في الثاني والعشرين من شهر آذار ١٩٥٩ وكان قصدي ان اصل الى دمشق يوم عيد الجلاء، فكتبتُ الى الوزير صلاح الدين اعلمه بعزمي، وعينتُ له التاريخ واسم الباخرة، ورحتُ انتظر الجواب، فانتهت سنة ١٩٥٨ ومر كانون الثاني من سنة ١٩٥٩ ولما لم يجئ جواب الوزير خفتُ الآ يكون كتابي قد وصل الى يده، وخشيتُ ان تفوتني هذه الفرصة الوحيدة، فكتبت الى الاستاذ فؤاد الشايب اخبره عن رسالتي الى الوزير صلاح، وكتبت كذلك الى الصديق القديم الاستاذ ميشيل عفلق في الموضوع نفسه، ولكني لم اتلقّ جوابا من أحد ا

وقد كنت اعلم ان زيارة الوطن لا تكفي لها دعوة من الحكومة، ولكن يلزم لها كثير من النفقات الاضافية، فانا وامرأتي سنسافر معاً، ويلزم لنا نقود لنجهز للسفر، ونقود لتكون معنا في أثناء السفر ولتكون معنا في الوطن، ان الحكومة - اذا قامت بوعدها - ستقدم

لنا تذكرتي السفر، ولا شيء غير تذكرتي السفر! ولما كنت املك هنا، في بيلو اوريزونتي، الافق الجميل! قطعة صغيرة من الارض وبيتين صغيرين، بعتُ كل ما أملك (كيف ما كان الحال) اي اني لم اشدد على الثمن، ولم اهتمّ له أكان كافياً أم غير كافٍ. ثم رحتُ اترقب الجواب المرجوّ!.

في اوائل آذار من هذه السنة، وكنت قد يئستُ من وصول الجواب المرضي، وإذ برسالة الاستاذ صلاح البيطار تصل وفيها كل ما اريد، وهو ما يأتي:

القاهرة ٢٨ شباط ١٩٥٩

شاعرنا واستاذنا الكبير

تحية عربية خالصة، وبعد، فقد اخذتُ كتابك في حينه، كما اخذت كتباً منَ الاستاذ ميشيل والاستاذ فؤاد الشائب، ومن قنصلنا العام الاستاذ عبد المجيد الطرابلسي بشأن زيارتك لوطنك الذي يحبك ويقدرك ويحب ان يلقى شاعر العرب الكبير الذي لم ينسَ وطنه وامتهُ عَلَى مدى الايام وبعد المسافات ولقد عزّ عليّ ان اجيب عَلَى رسالتك دون ان انقل اليك في الوقت نفسه انتهاء الاجراءات اللازمة لهذه الزيارة الكريمة، وصحيح ان الوقت قد طال! ولكن الامر ليس في يدي ولستُ انا الذي اقرر وانفذ في هذا المجال، ويسرني الآن ويسعدني ان اقول ان الاجراءات انتهت واننا قد حجزنا لك ولزوجتك الكريمة تذكرتَي سفر عَلَى الباخرة التي سمّيتها، فأرجو الاتصال بقنصلنا وبالشركة كما ارجو ان لا يقعدك شيء عن القيام بهذه الزيارة، ونحن والشعب العربي كله بانتظار ان نراك في القاهرة ودمشق، ويوم عيد الجلاء في ١٧ نيسان، لننعم واياك بهذا اللقاء الذي طالما حلمنا به وحان يوم تحقيقه..

وبانتظار وصولك والسيدة الكريمة ابعث اليك بخالص تحياتي ، ايها الاخ العزيز .

صلاح الدين البيطار

كانت زوجتي آنئذٍ في كوريتيبا عند ولدنا عصام ، فبعثتُ اليها برسالة مستعجلة اخبرها فيها اني واصلٌ بعد أيام قليلة وانّ رجوعها معي يجب ان يتم دون أقل عائق لان الايام الباقية لنا قليلة جداً .

أرسلتُ الرسالة ورحتُ اتصل بسفارتنا في الريو وبقنصليتنا بسان باولو ، واعد الاوراق اللازمة التي تطلبها السلطات البرازيلية لتسمح لنا بالسفر ، وقد علمت من قنصلنا في سان باولو ، صديقي الاستاذ عبد المجيد الطرابلسي ان جواز سفري موجود عنده في القنصلية ، وان سفرنا سيكون من سانطوس لا من الريو .

اسرعتُ في السفر إلى كوريتيبا وعندما حاولتُ الرجوع فوراً أبى عليّ اصدقائي الكثر ، ولا سيما الاخ الدكتور جورج كرم ان اسافر دون وداع تشترك فيه الجالية ، وهكذا كان ، فقد ارتجلت جالية كوريتيبا المشهورة بوطنيتها حفلة عشاء حضرها أكثر من مئة مدعوّ بين صديق وصديقة وقد ألقى الصديق الدكتور الياس كرم خطبة الوداع (الرسمية) فكان كعادته ، فصيحاً بليغاً مؤثراً ، وتكلم كذلك الاخ الدكتور جورج كرم والدكتور عادل كرم والاستاذ حنا كرم والاديب عبود الخوري والاديب الياس الخوري والشاعر البرازيلي هيتور ستوكلير وكان كل خطيب يتكلم باسم الجمعية أو المعهد الذي ينتمي اليه .



وداعنا في مدينة كورينيا

في صباح اليوم التالي كنا في طريقنــا إلى سان باولو فبتنا فيهــا ليلةً واحدة ثم استأنفنا السفر صباحا إلى (الافق الجميل) حيث رحنا نعد ما يلزم لنا في سفرنا الطويل ونشتري الملابس اللازمة، ونسعى ويسعى معنا صديقنــا القنصل الفخري السيد أنطون كدر في تجهيز أوراق زوجتي، وهي برازيلية المولد، وبالتالي برازيلية الجنسية.



وداعنا في مدينة بيلو اوريزونتي (الافق الجميل)

وأبى اخواننا واصدقاؤنا في بيلو اوريزونتي (الافق الجميل) أن يدعونا نسافر دون حفلة توديع تتمثل بعشاء فخم يضم جمهوراً كبيراً من سيداتنا ورجالنا، وقــد تكلم بعــد العشاء الذي كان في مطعم (شوراسكاريا كامبونيزا) الجميل العظيم، صديقنــا الدكتور فيليب

مزهر بالبورتوغالية، وتكلم بالعربية صديقنا الاديب نواف الشريطي وصديقنا الاديب الآخر طلال ذبيان . وكان علينا ان نزور بلدة (بيكاس) لنودع أخوينا كريماً ونعيم، وسائر الاهل والانسباء وهم فيها كثيرون، وذهابنا إلى بيكاس يحتم علينا المرور في مدينة (جويز دي فورا) وفي هذه المدينة لنا كثير من الاصدقاء، يؤلفون جالية كبيرة، وكلهم من مدينة يبرود السورية، فلما مررنا بهم أخذوا علينا عهداً أن نبيت بعودتنا من بيكاس عندهم (في مدينتهم) وان نقبل العشاء الوداعي الذي يعدونه لنا وهكذا كان، فقد ودعنا أهلنا في بيكاس وعدنا إلى جويز دي فورا نودع أصحابنا الذين قدموا لنا عشاء فاخراً في مطعم فخم، اشترك فيه فريق من الجنسين وتكلم فيه باسم الجالية الاديب الدكتور جوزه مقدسي والصديق الاستاذ فيليب اندراوس . وفي الصباح حملتنا السيارة إلى سان باولو .

فاتني أن اذكر اني عندما مررت في سان باولو وانا في طريقي إلى كوريتيبا اشتركت في الاحتفال الذي أقامته الجالية لعيد الوحدة الاول، واني قد ألقيت فيه قصيدة عنوانها (شبل العروبة) وهي :

اهل الوليد لدى الوليد المحول	جاثون بين مكبر ومهلل
يتأملون جماله وقلوبهم	سكرى تطل من العيون وتجتلي
شبل العروبة منذ أطل تراجعت	زمر الثعالب عن عرين المشبل
فأصاب ذؤبان السياسة نكبة	بالغاب قبل ظهوره لم تنزل
هز البلاد زئيره فتنبهت	فيها الشعوب الى الوجود الافضل



وداعنا في جويز دي فورا — عشاء اقامته الجالية اليبرودية الكريمة



مشهد آخر من مأدبة العشاء في جويز دي فورا — ويظهر فيها فرحات وهو يخطب

وتعاهدت، والحقّ يسندها على | منع اللصوص من اقتحام المنزلِ
فمضى اللصوص يجررون وراءهم | خزيًا له في شرقنا أثرٌ جلي
ويقول واحدهم لآخر خلفه | كيف السبيل لحل هذا المشكلِ ؟
ان كان ذا وهو ابن عامٍ فعله | فينا فكيف يكون في المستقبلِ ؟؟
وتشاوروا وتآمروا والكلهم | نابٌ يحزّ ومخلبٌ كالمنجلِ
شاؤوا رجومًا للنهاب فأبصروا | طرقاته مسدودةً بالأنصلِ
ورأوا شعاع الحقّ يغمر أمةً | رفعت جبين وليدها كالمشعلِ
ومشت تعاجز كلّ طاغٍ كفّهُ | حمراء تخفي النصلَ تحت المخملِ

* * *

يا عيدنا، يا عيدَ كلّ محطّمٍ | ببلاغة البرهان سيف المبطلِ
أقبلتَ والاخلاق مدبرةً وقد | ازرى الغرابُ وقاحةً بالاجدلِ
فجعلتنا بعد الهوان أعزّة | ترمي بأعيننا الكواكبَ من علِ
ونكيل للجاني الاثيم بكيله | ونقابل الفعل الجميلَ بأجملِ
فلينهل الصادون منك ليفثأوا | حرّ الظماء فانت اعذب منهلِ
وليقبل المترددون ليقرأوا | تاريخنا في وجهك المتهلّلِ
وليبحث المتفلسفون ليدركوا | أنا نسير على الطريق الأمثلِ
وليخجل المتهجمون فطالما | نكبت اخوّتنا بمن لم يخجلِ
واليخرس المتبجحون فانهم | لم يعملوا مقدار حبة خردلِ
دعوى بطولتهم ودعوى زهدهم | كذبٌ يراد به اقتناص المغفّلِ
او رحت تبحث عن عروبة بعضهم | اوجدتها محصورةً في المقوّلِ

ويكاد هذا البعض يحمل نفسه لغروره فوق السماك الأعزلِ
ويقول إنَّ أباه كان أحقَّ في نيل الخلافة من معاوِ ومن علي!

* * *

يا عيد وحدتنا تحيةَ مؤمنٍ بالوحدة الكبرى التي لم تكملِ
لكنها حتماً ستكمل عندما لم يبق من ركنٍ لها متقلقلِ
إنّا لنرجو للعراق سلامةً إنَّ العراق دعامةٌ للهيكلِ
اخواننا بين الفرات ودجلةٍ شدّوا يقين الشاعر المتبرزلِ!
غِيَرُ الزمان تبدّلت ورجاؤه بوفائكم للعرب لم يتبدّلِ
كونوا كما شئتم على أن تجعلوا حقَّ العروبة في المقام الأولِ
جاز الفضاء هتافنا بحياتكم يوم الوثوب الى السماك الأعزلِ
وجرت مدامعنا على وجناتنا فرحاً بما احرزتمو وبما يلي
ولقد مضى الزمن الطويل وأهلكم يتساءلون : متى الغمامة تنجلي
أيكافأون على الذي غرسوا لكم مما زكت ثمراته بالحنظلِ ؟
أتحوّل الاحقاد نصركمُ الى فشلٍ لامتنا وخيبة مأملٍ ؟
يرضي العروبة أن ترى أبناءها في عيدها كالطير حول الجدول
يردون ماء الوحدة الصافي على نغم النشيد الواحد المتسلسلِ
فيكون يومئذٍ بوحدتنا لها عيدٌ أغرُّ يطيب فيه الشعرُ لي

* * *

في سان باولو زوّدني الصديق الكريم القنصل العام عبد المجيد الطرابلسي بجواز سفر خاص رقم واحد، ثم بعث بجوازي هذا وبجواز زوجتي إلى القنصلية الايطالية فأشرت عليهما.

في يوم الجمعة الواقع في ٢٠ آذار أقام لنا قنصل الجمهورية العربية المتحدة العام الاستاذ عبد المجيد الطرابلسي وقرينته الفاضلة المهذبة السيدة سعاد الحفار الطرابلسي في منزلهما مأدبة عشاء اشترك فيها فريق كبير من اصدقائنا، وألقى في آخرها الاخ الشاعر توفيق بربر قصيدة وداعية طيبة، وكانت سهرتنا بعد العشاء من ألطف السهرات وأوفرها انساً.

وفي اليوم التالي أقام لنا الاصدقاء، وفي مقدمتهم الصديق الاستاذ موسى كريم، حفلة غداء في النادي الحمصي، تكلم فيها الشعراء نصر سمعان وتوفيق بربر وميشيل مغربي والاستاذ عبد المجيد طرابلسي وموسى كريم.

وفي صباح الاحد الواقع في ٢٢ آذار ذهبنا إلى سانطوس بسيارة الاخ الكريم يوسف اليازجي، وكان في وداعنا على المرفأ عدا اليازجي والقنصل العام، الاصدقاء توفيق بربر وقرينته وجورج شمّا وقنصل الجمهورية العربية المتحدة الفخري في ولاية برَنا السيد الياس عبده بيطار وقرينته ومنير أخرس والدكتور نجيب نور وزكي شوحي وزكي توما ونصر سمعان وتوفيق ضاهر. وجاء لوداعنا من كوريتيبا السيد مرعي الزغبي. وإلى القارئ الكريم شيئاً مما كتبته في مذكراتي :



مشهد للمدعوين الذين حضروا حفلة التكريم في دار القنصل العربي



فرحات يخطب في حفلة التكريم التي اقامها له الاستاذ موسى كريم في النادي الحمصي



الاستاذ موسى كريم صاحب « مجلة الشرق » يخطب

غادرنا ثغر سانطوس عند الساعة السابعة مساء، وفي تمام الساعة السابعة من صباح اليوم التالي كنا ندخل مرفأ الريو دي جانيرو الرحب الجميل، ولقد كان سرورنا بالغاً بلقاء ولدنا ايلي وزوجها، إذ جاءا من



الشاعر توفيق بربر يخطب

(الافق الجميل) يلاقياننا في الريو، كما كان في انتظارنا على رصيف المرفأ ابنا أخي الدكتوران اميل وشكري فرحات، فقضينا مع هؤلاء الاحباب ساعتين أو ثلاث ساعات ننتقل في الباخرة من صالون إلى

صالون ، وزارنا قبل اقلاع الباخرة صديقنا الاستاذ جمال الفرا سفيرنا في البرازيل ومعه مستشار السفارة الاستاذ محمد علي ، فكان لبادرتهما الطيبة هذه اثر طيب في نفوسنا ، وقد أوصى السفير بنا ربان الباخرة وضباطها ، وكان قد أوصاهم بنا في ثغر سانطوس الأخ القنصل العام ، فنقلونا بفضل هذه التوصيات من غرفتنا الصغيرة ، التي لم ننم فيهـا إلاَّ ليلةً واحدة ، إلى غرفةٍ كبيرةٍ كأحسن غرفة في أفخم فندق .

قامت بنا الباخرة عند الساعة الواحدة بعد الظهر ، وراحت تبتعد عن الارض اليابسة رويداً رويداً ، فراحت الجبال الممتدة على شواطئ البرازيل تتضاءل وتتقاص شيئاً فشيئاً ، حتى إذا أقبل الظلام لم نكن نرى منها ألاّ ما يصوره الوهم انه جبل .. على اني كنت أرى حوالي الساعة العاشرة منارةً تضيء من بعيد ، وكانت الباخرة تجري وكأنها راسية لا تميل ولا ترتج ، ومع هذا فقد شعرت في الساعات الاولى بشيء من الغثيان ، على انه لم يكن دواراً فلم يزعجني كثيراً ، والحق انه سرني ونفعني لانه أجبرني على هجر التدخين ليلتئذٍ .

في اليوم الرابع والعشرين مرّت بنا باخرتان قادمتان من اوروبا ووجهتها أميركا . وفي الخامس والعشرين ، وهو اليوم ، لم نرَ للبواخر من أثر ، وكان الجوّ لطيفاً هادئاً لا اثر للنوء فيه فرحت أتأمل هـذا المحيط الواسع الذي تحيط به السماء من جميع جهاته ، وافكر في هذه الباخرة العظيمة التي تعجّ بالخلق ، وكأنها وحيدة في هذا الكون ، إذ لا تبدو الحياة إلا فيها ، فكانت كأنها مدينة عائمة في صحراء مائعة ...

أمــا الانزعاج الذي كنت قــد شعرت بــه في الساعــة الاولى فقد زال تماماً .

دخلنا منطقة خط الاستواء، وكنا متجهين إلى (دكار) في افريقيا الغربية، وقد قيل لنا اننا سنصل إليها في اليوم الثلاثين من هذا الشهر. الحرّ شديد للغاية والعرق يتصبب من جسمي وانا اكتب هذه المذكرات.

اليوم ٢٧ آذار لم يجد علينا شيء، الا ان البحر يضطرب قليلاً والباخرة تتمايل كالحسناء إذا مشت وهي ترى ان العيون تراقبها!

لقد سئمنا اللون الازرق، مع انه في نظري، أجمل الالوان. اننا من أربعة أيام لا نرى الا السماء والماء، وفي هــذه الليلة لا نرى سماء ولا ماء، لقد لفّت الظلمة كل شيء. فالسماء غائمة لا يبدو فيها قمر ولا نجوم، ومتى كانت السماء هكذا كان البحر مثلها، انه مرآتهــا التي تتراءى فيه !

وقفت احدق إلى الافق لأرى ذلك الحد الذي يفصل بين السماء والماء فلم أرَ شيئاً ولم اسمع إلا هدير الموج المتكسر على صدر الباخرة.

اليوم السبت، ويزعمون انه (سبت النور ..) وهذا يعني ان عيد الفصح عنــد الكاثوليك يقع غــداً، والباخرة ايطاليــة، فهي إذن كاثوليكية ! وامس مرت (الجمعة الحزينة !) لم يقدموا للركاب شيئاً من اللحوم الحمراء، إلا انهم قدموا كثيراً من السمك ! ولا أفهم السر في تحليل اكل لحم السمك دون غيره من لحوم الحيوانات .

اليوم الاثنين ٣٠ آذار، وامس كان عيد الفصح، قدموا فيه للركاب على الغداء والعشاء كؤوس الشمبانيا، واحضروا بيضة مصنوعة من الشيكولاته طولها أكثر من نصف متر، وبين هتاف الركاب وضجيجهم وتصفيقهم كسروها فانطلق منها حمامتان بيضاوان، راحتا ترفرفان في جو قاعة الطعام الرحبة، فكان منظرهما في غاية الجمال.

تعبت عيناي من التفتيش في الافق عن بقعة من اليابسة استأنس بها بعد اسبوع كامل من الوحشة بين السماء والماء، على اني لم أر شيئاً.

صباح اليوم (الثلثاء) باكرًا جدًا، دخلنا مرفأ (دكار) ولما طلعت الشمس نزل قسمٌ من الركاب الى اليابسة، وكنت أنا وزوجتي من هؤلاء النازلين.

كانت شوارع (دكار) مقفلة أو نصف مقفلة، ربما بسبب عيد الفصح الذي كنا في يومه الاخير، فرحت اسير وزوجتي فيها، واقرأ ما كُتب فوق أبواب المحالّ التجارية، مفتشاً عن اسم عربي أياً كان ا وإذا بي أقرأ فوق أحدها اسم (صالح) وكان باب هذا المحل نصف مغلق، أو نصف مفتوح... فقلت لزوجتي مستبشرًا: تعالي ندخل، ان في هذا البيت رجلًا صالحًا. ودخلنا فسلمنا على شابين كانا هناك، فاستقبلانا بلطف وبشاشة، واذ علما أنا قادمان من البرازيل أخذا يستخبران عن حال المواطنين العرب فيها، وفي أثناء الحديث علمت انهما من جبل عامل، وفهمت من مجرى الحديث انهما من الشبان الاحرار كمعظم أبناء هذا الجبل. ثم انضمّ الينا رجل كهلٌ دخل معنا في الحديث

فوراً ، وكان ان ذكر أحدنا (عبد الكريم قاسم) (الزعيم الاوحد !) فبصق أحد الشابين وقال بكثير من الاشمئزاز : يلعن ابوه ، ابن كلب ! . والغريب ان هذا الحدث تكرر معنا في البندقية ، إذ لقينا فيها بعض العرب وعندما ذكر عبد الكريم قاسم بصق أحد الناس وقال يلعن ابوه ابن كلب ! فعجبت لهذا الاتفاق .

كان الرجل الكهل الذي دخل علينا أسمر ربعة القامـة مفتول العضلات ثاقب النظرات وكنت اود أن يطول اجتماعنا بهؤلاء الناس الكرام لولا ان الباخرة كانت ستقلع قبل الظهر .

عندما نهضنا مودعين ، أعلنت لهم اسمي ، كما هي العادة عنـد الذين يلتقون مصادفة ثم يفترقون ، وكانت يدي ساعتئذ في يد الكهل اصافحه مودعاً ، فشدّ عليها وقال : الياس فرحات؟ ومن البرازيل؟ قلت أجل ! فأجاب وعيناه تتكلمان أكثر من لسانه ، أي والله ! لقد كنت اظن انك هو ، أنت الشاعر فرحات !... ولا تسل يا قارئي العزيز عما أظهر لنا هؤلاء الاخوان من ضروب الحفاوة والتكريم وفي لحظة قال أحدهم هيا بنـا ، ان الوقت قصير ، وقام فقام رفيقاه وخرجنـا جميعاً فأقفلوا الباب واركبونا سيارة فخمة كانت واقفة إلى جانب الرصيف وراحوا يدورون بنا في أجمل مناطق المدينـة . كنا في السيارة وهي ملك أحدهم خمسة أشخاص : الحاج مصطفى عياد ، والسيدين ابرهيم صالح ومصطفى حمود ، وكان ابرهيم يقود السيارة وهي ملكه ، فاوقفها في أحد الشوارع وراح مشياً على قدميه إلى محل لبيع الازاهير العطرة

الندية ولما عاد الينا كان حاملًا منها باقةً كبيرة كان طيب شذاها يدل على طيب عنصره وكرم أخلاقه، وصل وقدم الباقة إلى قرينتي معتذرًا بضيق الوقت الذي لا يسمح لهم بالاحتفال بنا. فشكرناه شكرًا جزيلًا وشكرنا القدر الذي ساقنا إلى هؤلاء الاخوان الاكارم، الذين كان احتفاؤهم المفاجئ بنا طليعة الاحتفاءات التي سنلقاها في رحلتنا.

ثم أخذونا إلى المرفأ واخذوا علينا عهدًا بالمرور بهم في عودتنـا من الوطن والبقاء في ضيافتهم اسبوعًا على الأقل، وكنـا فعلًا نود القيام بما وعدنا، ولكن لسوء الحظ، لم نمر بدكار في عودتنا إلى البرازيل. وقد حاولت وأنا في ايطاليـا أن اكتب إلى هؤلاء الاخوان معتذرًا، ولكن عنوانهم الذي تكرموا علينا به قد ضاع بين أوراقي وقد فتشت عنه كثيرًا دون جدوى، على اني أراه الآن أمامي مكتوبًا على قفـا الورقة التي كتبت عليها مذكراتي، وهذا العنوان هو: صندوق البريد ٥٩٦ أو ٣٨٨.

غادرنا (دكار) عند الساعة الحادية عشر، وكنت اظن ان السفر منها إلى اوروبا يكون قريبًا من الشاطئ، على اني كنت مخطئًا في ظني هذا لان الارض الافريقيـة لم تلبث ان غابت عن أبصارنا ولم نلبث ان عدنا إلى ما كنا فيه من سماء وماء.

(دكار) مدينة جميلة نظيفة أو ان اصدقاءنا فيها لم يدعونا نرى منها إلاّ ما كان جميلًا ونظيفاً، لقد رأينا فيها كثيرًا من البنايات الحديثة، كما رأينا فيها كثيرًا من الاكواخ الزرية ورأينـا كثيرًا من الزنوج

سكانها وهم على الغالب وسخون يتعاطون الشحاذة أو ان الذين رأيناهم هم الفقراء الشحاذون الذين يؤمون المرفأ عندما تصل إحدى السفن الآتية من أميركا أو من اوروبا فيطلبون من الركاب احسانا . على اني ما ان رأيتهم ورأيت مظاهر الغنى في البنايات الحديثة حتى تذكرت قول حافظ ابرهيم للانكليز :

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتمو طيناً وارخصتمو دما

وهكذا الاستعمار في كل مكان وزمان .

اليوم الاربعاء ، أول نيسان لاحت لنا في عرض البحر جبال قالوا انها جبال جزائر الكناريا ، ففرحنا لمنظرها الجميل وراحت سفينتنا تدنو منها رويداً رويداً حتى لم يبقَ بيننا وبينها إلاّ ميل واحد ، ولقد كانت السماء غائمة والطقس بارداً ، ولا بدع في هذا ، فلقد دخلنا المنطقة الاوروبية ونحن لا نزال في اوائل الربيع وفيها كثير من اواخر الشتاء . ولقد قرأت اليوم في نشرة الباخرة اليومية ان الثلج يتساقط بكثرة في مقاطعة تورنتو الايطالية ، أما جزائر الكناريا فقد رافقتنا إلى المساء ، وكان بعضها ذا منظر عجيب ، صخرٌ منتصبٌ في قلب المحيط .

في اليوم الثاني من نيسان لم نرَ شيئاً جديداً ، فالسماء والماء هما كل ما تقع عليه العيون واللون الازرق هو اللون الوحيد الذي تكتحل به الجفون ا ، ونحن نتوقع أن نرى شيئاً من اليابسة قبل وصولنا إلى لشبونه ، ولكن لم يحدث شيء من هذا .

عليّ أن اذكر باننا منذ ان اجتزنا حدود السينيغال دخلنا حدود الارض العربية (موريتانيا أو المغرب) ومن هنا تأخذ الشطوط العربية بالامتداد حتى قلب الشرق، ومع هذا يضرب التعصب أحد الادباء بالعمى فيقول انه لا يعرف امة ذهبت دون أن تترك اثراً كالامة العربية...

الجمعة، ٣ نيسان أصبحنا في مدينة لشبونة وقد تجمع الركاب على رصيف المرفأ جماعات جماعات ليتنزهوا في المدينة، وكنا نحن في إحدى هذه الجماعات، فدفعنا كما دفع غيرنا دولارين ونصف دولار عن كل راكب بالاتوبس فمررنا بلشبونه القديمة، لشبونه المرفأ وجواره، فكنا نرى المنازل والمحال التجارية من نافذة السيارة، فقالت زوجتي: ما أشبه هذه البيوت وهذه الشوارع ببيوت الريو القديمة وشوارعها! فقلت لها وايّ عجب في هذا؟ ان الذين بنَوا هذه المدينة هنا بنَوا تلك المدينة هناك!. على اننا عندما وصلنا إلى الاحياء الحديثة تغير كل شيء، فان لشبونه الحديثة جميلة جداً، تكثر فيها الجادّات الرحبة والبنايات الانيقة والحدائق الخضراء. ولقد صعدت السيارة بنا إلى جبل يشرف على المدينة، جبل كلّه مشجّر. انهم هنا حولوا الجبل إلى حديقة غناء يكسوها نوع من الصنوبر (القزم!) والمنظر من أعالي الجبل جميل للغاية لا فرق بين الجهات التي تنظر اليها منه، على ان ضباباً كان يغطي معظم المدينة فلم نتمكن بسببه أن نراها كما هي.

ثم أخذتنا السيارة إلى دير القديس جيرونيموس، وهو دير عجيب البناء ضخمه، سقفه العالي معقود كله بحجارة بيضاء والبناء على ضخامته يحتوي على كثير من الحفر النحيف والنقوش الفاخرة، وفي الدير بهو مختص بقبور بعض عظماء البورتوغال، وفي وسطها قبر اليشندري هيركولانو الاديب البورتوغالي المشهور، وفيه قبور بعض الملوك، ثم ذهبنا إلى متحف المركبات الملوكية، وهو متحف عجيب، يحوي عشرات المركبات المختلفة الاحجام والنقوش والتماثيل وكلها مذهب، بينها مركبات ضخمة ثقيلة الوزن، كنت أتأملها وافكر في الخيل التي كانت تجرها مضافاً إلى ثقلها ثقل أصحاب الجلالة، واترحم عليها...

وقد ذهبنا إلى مدينة يسمونها (المدفأة الباردة) وهي أغرب ما رأت عيناي من حدائق، جدرانها وسقفها مؤلفة من قدد خشبية لا تزيد سمكاً وعرضاً عن ثلاثة سنتيمترات، وهي محبوكة طولاً وعرضاً، وكل ما في هذه الحديقة يملأ العين جمالاً.

لم نلبث في لشبونه سوى ساعات قليلة، وما كدنا نبتعد عن الشاطئ حتى غابت الارض عن أبصارنا، وكنت في اليوم الثاني اود أن أرى جبل طارق فاتذكر المجد الذي ذهب ولن يرجع؛ ولكننا مررنا في مضيقه في الصباح الباكر فلم نرَ شيئاً.

في الخامس من نيسان (الاحد) وصلنا إلى برشلونه، فنزلنا مع من نزل من الركاب، وقد استأجرت سيارة بالف ليره ايطالية وهي تعادل ٢٥٠ كروزيرو بالنقد البرازيلي فراحت بنا - زوجتي وانا -

تجول في الشوارع الرئيسية، وهي جميلة جداً ونظيفة للغاية، وكانت المحال مقفلة بسبب عطلة الاحد، وكان الحوذي لطيفاً، يشرح لنا ما نمر به من حدائق وقصور وأخيراً اعرف بذ كانه أنا عرب فأخبرنا انه من أصل عربي وانه من اسرة (غابس) .

لقد فاتني أن اذكر ان أول عمل قمت به في برشلونه كان الاتصال بواسطة الهاتف بجامعة المدينة، والسؤال عن الاستاذ محسن جمال الدين الذي كنت أرغب في مفاجأته بوجودي في برشلونه، وقضاء الساعات القليلة التي يسمح لنا فيها موعد قيام الباخرة، بصحبته، على اني فوجئت بجواب الجامعة : ان الاستاذ محسن جمال الدين قد التحق منذ ثمانية أيام بجامعة بغداد، وهكذا اسقط في يدي . عند الساعة الخامسة عصراً غادرنا برشلونه في مرحلتنا الاخيرة إلى جنوى. وكانت هذه أجمل مرحلة في سفرتنا كلها والطفها، فقد أصبحنا على مقربة من (كان) الافرنسية، واخذت المناظر المختلفة تتوالى، فهذه (نيس) وهذه (مونت كارلو) جنة المقامرين وجحيمها ! وهذه (سان ريمو) واخيراً ... هذه جنوى !

كنت قبل مغادرتي سان باولو طلبت من قنصلنا فيها أن يتصل بزميله في جنوى ويعلمه عن وصولنا في الباخرة (كونتي بيانكا مانو) لعله ينتظرنا على المرفأ ويسهل لنا المعاملات الجركية، فلما نزلنا إلى رصيف المرفأ رحت أتسمع وأتلفت علّي أرى أحداً يسأل عني ! ولما طال تسمعي وتلفتي دون جدوى، رحت أنا أسأل عن قنصل الجمهورية العربية المتحدة، مستعيناً على اللغة برفيق ايطالي من سان باولو وبينا أنا ورفيقي هذا

نسأل عن القنصل وإذا بصوت واضح جلي يسأل عن اليـاس فرحات ، فهرعتُ إلى صاحب الصوت ، وأنا اظنه القنصل ، ولكنه كان أحـد موظفي شركة البواخر التي اسافر في احدى بواخرها ، فلما عرفته بنفسي ناولني تذكرتي سفر من جنوى إلى (فينيسيه) البندقية في القطار ليلًا . ولم يزد على القول : القطار يسافر ليلًا ! وتركني ومضى ... فرجعت اسأل عن القنصل ، وإذا برجل يعطيني هذا الجواب الفاجع ! (القنصل انتحر أول أمس .) رحمه الله ! اما كان في امكانه أن يؤجـل انتحاره إلى الغد ؟ !

لم تطل اقامتنا في جنوى إلا ساعتين أو ثلاث ساعات ، ركبنـا بعدها القطار الليلي إلى (البندقية) ، فراح ينهب بنـا الارض ويطوي المسافات ، مارًّا بقرى ومدن كبيرة ، أهمها مدينة (ميلانو) أقول هذا على ذمة الرجل الذي سألناه فقال انهـا ميلانو ذلك لاننـا لم نقف إلا دقائق معدودات وكنا حوالي منتصف الليل ، ولقد وصلنا صباح الثلثاء — ٧ نيسان ، (الغريب اني اكتب هذا في هذه الساعة ونحن في ٧ نيسان ولكن اليوم سبت والتاريخ ١٩٦٨ ...) .

وصلنا صباحًا إلى المدينة العجيبة التي تظنها عائمة على الماء ، وقـد قطعنا من جنوى اليها الارض الايطالية بالعرض ركبنا من جنوى على ساحل البحر المتوسط وحولنا في البندقية على ساحـل الادرياتيك ! وقد نزلنا في أحد الفنادق المتواضعة ، وقبـل أن أستريـح من السفر بعثت إلى الوزير الصديق الاستاذ صلاح البيطار برسالة أقول له فيها :

« اننا قد انتقلنا من باخرة جارية إلى باخرة راسية ! فنحن اليوم في البندقية في طريقنا إلى الوطن الحبيب، وكلنا شوق اليه، إلى هذا الوطن الذي تركته وأنا في فجر الشباب وأعود اليه وأنا شيخ أثقلته السنون وشيبته الايام، تسع وأربعون سنة مضت على هجرتي، ولولا كرم حكومة (المواطن العربي الاول) لما كان لهجرتي آخر... »

مدينة (البندقية) أعجب مدن العالم وأغربها، لا شبه لها في الدنيا، قطعة فنية من عمل الطبيعة، منازلها نابتة على ضفاف الاقنية والخلجان كما تنبت الاشجار على ضفاف الانهار شوارعها الرئيسية مائية، ينتقل فيها السكان بالقوارب والمراكب البخارية، لا سيارات فيها ولا عربات ولا حيوانات غير الهررة والكلاب، وهذه لا تجول في الشوارع إلا مكممة!

تدخل (زاروباً) من زواريب المدينة وانت تظن انه لا شيء سوى (زاروب) وإذا بك تجد على جانبيه المحال التجارية التي تحوي أجمل السلع وأنفسها وألطفها وأغلاها ثمناً... كل سلعة في البندقية قطعة فنية وكل سلع البندقية من صنع البندقية، ومعظم السلع أو الاواني من الزجاج الملون المذهب المصنوع أشكالاً مختلفةً تمثل مناظر المدينة، والناس والحيوان، وهناك قطع معدنية مما صاغه فنانو البندقية عقوداً وأساور وأقراطاً ونقشوه نقشاً يذهل العقل ويبهر النظر لدقته وجماله.

كل ما تراه في البندقية يعجبك ويطربك لان كله فنٌ وجمال. أما الاثمان فانها فوق ما كانت تتصوره عقولنا... بعدما

اطلعت على أثمان بعض السلع صرت أرى أمثالها في البرازيل في غاية الرخص.

تجار البندقية من ألطف التجار في العالم، ولا بدع في هذا فهم يعيشون مع السياح الغرباء يلاطفونهم و ... ينهبونهم! كأس المبردات التي كنا ندفع ثمنها في البرازيل نصف ليرة دفعنا ثمنها هنا ثمانين ليرة! وعلى هذا يمكنك أن تقيس بقية الاشياء وأثمانها!.

سكان البندقية عشاق لها، انك تجد صورها في كل مكان وعلى كل آنية وسلعة وسقف وجدار!

إذا شئت ان تنتقل في البندقية من مكان إلى آخر عليك أن تركب الماء أو أن تركب قدميك!.

ذهبنا أمس إلى نزهة من أمتع ما عرفت في حياتي، ذهبنا إلى الجزائر الثلاث المشهورة والقريبة من المدينة، وهي (مورانو) و(بورانو) و(تورشيلو)، دخلنا في الاولى على عمال معمل الزجاج وهم في أعمالهم فرأينا منهم العجب! يأخذ احدهم مغرفة من الزجاج السائل الملتهب فيحولها بدقائق قليلة إلى سمكة او طائر او كلب او حصان او ابريق او قدح، او غير هذا من مختلف الاواني، وهذه القطع الفنية تراها معروضة في كل واجهات المدينة وعليها من الصور والنقوش ما يحير الفكر، كل قطعة عليها رسم مما تحوي البندقية من قصور او جسور او زوارق او زواريب...

لا ادري إذا كان في العالم اناس يحسنون الدعاية لمدينتهم مثل هؤلاء البنادقة!

انك ترى صور المدينة في كل مكان وعلى كل قطعة من معدن او زجاج او جلد!

من مورانو حملنا الزورق إلى بورانو، وهنا دخلنا إلى مدرسة تعلم التطريز والتخريم، فرأينا عشرات من الفتيات يعملن وفي حضن كل واحدة منهن قطعة من نسيج، وفي يدها ابرة يتدلى منها خيط! فتخلق بابرتها وخيطها الازاهير على اختلاف ألوانها وأشكالها، وإذا بقطعة النسيج تخرج من يدها وكأنها حديقة غناء!

وفي تورشيلو دخلنا الكاتدرائية القديمة، العجيبة البناء والنقوش، سقفها يشبه سقف كنيسة سان ماركس (مرقص) وهو مما لم اذكره سابقاً – مغطى كله بالفسيفساء المؤلفة من حجيرات ملونة لا يزيد حجم الواحدة منها عن السنتيمتر الواحد طولاً وعرضاً، ومن هذه الحجيرات تتألف أجمل الصور وأدقها.

اليوم الجمعة، ١٠ نيسان، لم يبق لنا في هذه المدينة سوى يوم واحد، فاغتنمناه فرصة ثمينة لزيارة جزيرة (ليدو). كنا ثلاثة، كما كنا منذ ان غادرنا سان باولو، جوليا زوجتي وأنا ورفيق حمصي من سان باولو، عجبت كيف لم أعرفه إلا في هذه السفرة وسبب عجبي انه حمصي، وانه متأدب، وأنا اكاد أعرف كل حمصي في سان باولو، هذا الرفيق الصديق اسمه رفول شاهين، شاب طويل القامة عريض

المنكبين، محدّث ذكي، إلا انه يحب تطويل الشرح بقدر ما أنا احب تقصيره! قلت له ونحن في طريقنا إلى ليدو: انك يا رفول تتكلم في يوم واحد أكثر مما أتكلم أنا في شهر! فأجابني فورًا: ان الحديث يا استاذ هو الشيء الوحيد الذي لا يكلفنا نفقة كبيرة في هذه المدينة. ان أتفه شيء هنا يكلفنا مبلغاً من المال كبيرًا إلا الكلام فانه لا يكلفنا شيئاً فلا تحرمنا منه يا استاذ! فضحكتُ وسكتُ لاني وجدت معه كثيرًا من الحق، على ان الحديث إذا لم يكن طريفاً نافعاً، وان كان مجانًا.. يكون على صمعي أثقل من كل غلاء!

في (ليدو) وجدنا مالم نجد في المدينة الام، البندقية وما لم نجد في الجزر الثلاث التي زرناها أمس، فقد وجدنا مدينةً حديثة، ذات شوارع عريضة، مستقيمة، مشجرة، ووجدنا سيارات ودراجات واوتوبيس يسير بقوة الكهرباء. وفي ليدو حدائق أنيقة جميلة وفنادق فاخرة وشط رملي للسباحة، دخلنا مطعماً فخماً قائمًا على الشاطئ، وكان وقت الغداء فتغدينا فيه، وكانت نوبة رفول في الدفع فدفع ثلاثة آلاف ومائتي ليره ايطالية ثم عدنا من ليدو تحت وابل من المطر.

يوم السبت في ١١ نيسان. عند الساعة الثالثة عصرًا، تركنا مدينة الفن والجمال، (البندقية) ووجهتنا الاسكندرية، ولم نسر إلا قليلًا حتى غابت اليابسة عن أبصارنا، على اننا في اليوم التالي، وهو الاحد، كنا نرى السواحل الايطالية والمدن والقرى منتشرة على طولها، وكان البحر رهوًا وباخرتنا الجديدة الجميلة (اوزونيا) تشق الماء وهي كأنها

تنزلق على لوح من الزجاج المموج، وكانت - أحياناً - تتهادى كالعروس، الداخلة إلى الكنيسة متكئةً على ذراع أبيها... ثم لاحت لنا مدينة (برندزي) ولما وصلنا اليها وقفنا فيها نحواً من ساعتين، ثم استأنفنا الرحلة، ايطاليا عن يميننا ويوغوسلافيا عن يسارنا. وصباح الاثنين ظهرت لنا جزيرتان (سورايا وكريت)، فإذن نحن على مقربة من الساحل اليوناني، وسنكون صباح غدٍ في الاسكندرية.

عند الساعة العاشرة من صباح الثلثاء الواقع في الرابع عشر من شهر نيسان وصلنا إلى الاسكندرية، الثانية في مدن الجمهورية العربية المتحدة جمالاً وضخامةً، وربما كان ميناؤها الاول أو الثاني في البحر المتوسط.

كانت اولى المفاجآت ان الشرطة البحرية اعترضت على نزول جوليا زوجتي إلى أرض مصر وذلك لأن قنصلنا العزيز في سان باولو نسيَ أن يؤشر على جواز سفرها، ومفهوم ان زوجتي تحمل جواز سفر برازيلي فهي في نظر (العرب) أجنبية، وهكذا سجلنا هذه الهفوة على قنصلنا العزيز في سان باولو، فقلت للشرطي الذي كان يفحص الجوازات، ضاحكاً: هذه السيدة امرأتي، فهل ترون من الواجب ارجاعها ألى البرازيل؟ فضحك هو الآخر وقال، لا سنجد حلّا بسيطاً للمشكلة، وهكذا أجرى الواجب وقبض رسماً زهيداً من المال لا يكاد يزيد عن النصف جنيه إلا قليلًا...

نزلنا إلى رصيف المرفأ ، ورحنا نتلفت علنا نجد أحداً يعرفنا أو يسأل عنا فذهب تعبنا سدىً ! فحرنا في أمرنا ، كيف نكون مدعوين من الحكومة ونكون ضيوفاً عليها ولا نرى أحداً من قبلها في انتظارنا؟! ولما لم يكن في امكاننا البقاء على رصيف المرفأ سلمنا امتعتنا إلى رجل كهل ، طويل هزيل عرض علينا خدماته بلطف وادب متناهيين ، فاستأنسنا به فأرسل الحقائب إلى دائرة المكس ، ورافقناها إلى هناك. وعندما رأينا موظفي الدائرة يريدون فتحها وتفتيشها ، استعنا برسالة الوزير صلاح الدين التي كانت في جيبي ، فقدمت الرسالة إلى المفتش فقرأها ، وفهم منها اننا ضيوف الحكومة ، ولكن فهمه هذا لم يمنعه من بعض التفتيش ، ونعترف انه وزملاءه كانوا معنا لطفاء مهذبين ، قلنا لهم اننا لا ندري أين نذهب ، اذ كنا ننتظر أن ترسل الحكومة أحد موظفيها لاستقبالنا وتسهيل امورنا. فنصحوا لنا بواسطة الرجل الذي تسلم امتعتنا ، أن نذهب إلى مركز البوليس السياحي ، فأخذنا الرجل (واسمه أحمد ابرهيم أحمد) ، وهناك في مركز البوليس السياحي ، أعطينا رسالة الوزير صلاح إلى المأمور الجالس وراء منضدته. فاطلع عليها وهز رأسه مرحباً بنا ومظهراً لنا كل لطف وعطف. ولكنه قال انه لا يستطيع أن يعمل شيئاً إذ ليس لديه شيء من التعليمات بخصوصنا! ثم اتصل هاتفياً برئيسه وراح يشرح له قضيتنا ، ولحظنا ان رئيسه طلب منه أن يقرأ له رسالة الوزير ، فأخذ يقرأها متمهلاً ، جملةً جملةً ، كان رئيسه الذي كان على الطرف الآخر من الخط كان يتفهمها وينقلها .. وأخيراً وبعد أخذ

وردَ بينهما نصح لنا بالسفر إلى القاهرة وبالاتصال بالوزير صلاح مباشرة فلم نجد بداً من قبول نصيحته والعمل بها، فأخذنا السيد ابرهيم أحمد إلى محطة القطار الحديدي وبقي معنا يقضي حاجاتنا ويسهل امورنا حتى إلى آخر ساعة، وقبل أن يودعنا طلب مني أنا اكتب على بطاقته كلمة اعترف بها بما اداه لنا من خدمات. ففعلت مسروراً لانه فعلاً كان لنا منه عون كثير، ثم شكرته ودفعت له جنيهاً واحداً جزاء صنيعه، وكنت قد فهمت من بوليس السياحة ان السيد أحمد موكل من قبل شركات الفنادق بتسهيل امور السيّاح.

قبل أن يقوم بنا القطار من محطة الاسكندرية بعشر دقائق دخل علينا فتىً ووراءه رجل يحمل آلة تصوير، فنظر الفتى في وجوه الركاب ثم تقدم إليَّ وسألني: حضرتك الاستاذ الياس فرحات؟ فأجبته دهشاً: نعم، ولكن أنت من تكون؟ ومن أين هبط عليك الوحي؟! فقال أنا من جريدة الاخبار، والوقت قصير فارجو منك أن تسمح لي بتصويرك وتصوير (المدام) وان ترد على اسئلتي، فقلت له تفضل، صوّر وسل ما تشاء، فصورنا وامطرني بوابل من السؤالات، عن حياتي في البرازيل، وكم في البرازيل من العرب، وكم ديوان شعر لي، وهل نظمت شيئاً خاصاً بعبد الناصر فكنت اجيب على اسئلته باختصار، وما زال يحاول المزيد حتى صفر القطار فانصرف شاكراً.

عند الساعة الثانية بعد الظهر ترك القطار محطة الاسكندرية ووجهته القاهرة، ولم يقف في الطريق إلا مرةً أو مرّتين.

كنت قبل دخولي القطار في محطة الاسكندرية بعثت إلى الرئيس جمال عبد الناصر ببرقية هذا نصها الحرفي :

الى مالئ الدنيا وشاغل الناس الرئيس جمال عبد الناصر • القاهرة •

تحية عربية يبعث بها اليكم جندي خاض معركة العروبة من نسع وار بعين سنة قضاها في المهجر داعياً الى التحرر من الاستعمار والى الوحدة العربية الشاملة، مجاهداً بقلمه ولسانه ممهداً السبيل لظهور القائد الاعظم، وها هو يعود اليوم الى وطنه بدعوة كريمة من حكومة فخامة القوتلي مؤيدة بعدئذ بتصديق حكومتكم الناهضة واحدى امانيه الكبار ان يصافح اليد التي اتزات بالاستعمار الضربة القاضية • ووقعتها

الياس فرحات

عندما دفعت هذه البرقيـة إلى موظف البرق، قرأهـا وكانت علامات الاستحسان تظهر على وجهه، ثم عدّ كلماتها وقال: اجرتها ثمانية وأربعون غرشاً، فقلت له طيب، ولكن الراجل دا ما يدفعش ؟! فاجاب: الراجل دا مين؟ قلت: جمال! فضحك وقال: لا دا ما يدفعش حاجه...!

وصلنا إلى القاهرة قبل الخامسة بربع ساعة، وقـد ذهبنا تواً إلى فندق فكتوريا فانزلنا غرفة حسنة ذات حمام خاص، وكان اول مـا وقع نظري من النافذة ان قرأت على واجهة احد الابنية المواجهة لنا هاتين العبارتين: (الله اكبر والعزة للعرب) و (الله اكبر ولتحيَ الجمهورية!)

من ساعة وصولي إلى القاهرة اخذت احاول الاتصال هاتفياً بالوزير صلاح الدين البيطار، ولكن على غير جدوى، واخيراً اعطاني احدهم

رقم هاتف مكتب الوزير ونصح لي بأن اكلمه عند الساعة التاسعة من صباح الغد.

في اليوم التالي، عند الساعة التاسعة تماماً رحت اطلب الوزير صلاح بالهاتف، فاجابني صوت يقول: لم يرجع بعد... قلت لم يرجع من اين؟ فقال: من سورية! وهنا كدت افقد عقلي، إذن الوزير في سورية وانا افتش عنه في مصر! ثم قال الصوت: هنا الاستاذ سامي الدروبي وهو يقوم مقام الوزير فهل تريد ان تتصل به؟ قلت نعم، وفوراً وحالاً اتصلت بالاستاذ سامي الدروبي قائلاً له: انا يا استاذ الياس فرحات، وقد قدمت من البرازيل، فلم اكد اقول هذا حتى اخذ الاستاذ سامي يرحب بي ويعتذر عن تقصير لم يرتكبه هو ولم يرتكبه احد في الوزارة، إذ لا علم لاحد بأني واصل في هذا التاريخ. ثم قدم الاستاذ سامي الدروبي إلى الفندق حيث انا وزوجتي وعرفني بنفسه ورحب بي كثيراً واظهر كثيراً من اللطف وكرر الاعتذار بان ليس لاحد في الوزارة علم باني سأصل الى القاهرة اليوم، ثم رجاني ان اتغاضى عن كل ما احسبه تقصيراً، وان اتجاوز عن كل اساءة اصابتني بسبب الاهمال غير المقصود، وقال: ان الامة كلها ترحب بك يا استاذ، وانا منذ الساعة اضع نفسي وسيارتي في خدمتك وتحت مطلق تصرفك. فشكرت له هذا اللطف المتناهي، وقلت انا لا اريد شيئاً وإنما اريد ان اعرف إلى اين امضي! فاجاب: ان كل بيت في الجمهورية إنما هو بيتك يا استاذ، اعمل البرنامج ونحن ننفذه بحذافيره، هل تريد حضور عيد الجلاء في دمشق؟ فقلت

اجل اريد، وكان في رفقته الاستاذ (حافظ) وكنت قد علمت ان حافظاً كان ملحقاً صحافياً في سفارتنا في الارجنتين، فذهب حافظ إلى ادارة الفندق واخبرها ان حسابي تدفعه الحكومة وان ليس لهم ان يتقاضوني شيئاً، ثم ودعاني وذهبا.

في الليل ركبت وزوجتي سيارةً اخذتنا إلى منزل الاستاذ ممتاز الخطيب وزوجته السيدة عائدة سري الدين، في الزمالك، وعائدة هي بنت الدكتور حسين سري الدين في بيروت، وهي اخت صديقتنا الحميمة الغالية سلمى وسلمى هي التي اعطتني عنوان اختها في القاهرة، وطلبت منا ان نزورها. فما ان وصلنا إلى منزل الزوجين الكريمين حتى استقبلانا بمظاهر الترحيب والتكريم.

سهرنا ليلتئذٍ في منزل الاستاذ ممتاز وقرينته، وكان عندهما بعض اصدقائهما فكانت سهرتنا ساهرة، كما يقولون، وفي اليوم التالي تناولنا معهما طعام الغداء، وعندما عدنا إلى الفندق جاء الاستاذ سامي الدروبي وقدم لنا تذكرتَي سفر بالطائرة إلى دمشق.

الخميس، ١٦ نيسان، تناولنا طعام الغداء على مائدة الاستاذ سامي الدروبي، حيث تعرفنا إلى عقيلته المهذبة الفاضلة السيدة احسان وإلى سائر أفراد الاسرة الكريمة، وكنا قبل الظهر قد ذهبنا في سيارة الوزير صلاح إلى الاهرام فرأيناها من داخل السيارة لاننا لم نشأ أن نترجل بسبب حرارة الشمس وكثرة الغبار، وهكذا فعلنا عندما مررنا بأبي الهول ونحن في طريقنا إلى المقطم، وكنت منذ الصباح اردد بيت المتنبي:

وخدنا بها البيداء حتى تغمرت   من النيل واستذرت بظل المقطم

والمقطم، كما يعلم الجميع، جبل قريب من القاهرة يشرف عليها من جميع نواحيها، ولا اظن انه يرتفع عنها أكثر من مئة متر، وكان محمد، وهو سائق سيارتنا، يتغزل طول الطريق، بجمال المقطم وبالآفاق التي يكتشفها الواقف في المقطم! وكان يبالغ في الوصف، فقلت له وانا اتلفت إلى الآفاق.. الرائعة غداً ساآخذك معي إلى صنين، يا سي محمد، فقال: فين دا صنين؟ قلت في لبنان! فقال، والله سازور لبنان، انهم يقولون انه جميل جداً!

لم نستطع توديع اسرة الاستاذ ممتاز الخطيب، بسبب ضيق الوقت، فقد كان علينا أن نأخذ حقائبنا إلى مكتب شركة الطيران ونشحنها من هناك ثم نتوجه إلى المطار، ففعلنا هذا، ومن المطار ودعنا اسرة الاستاذ ممتاز واعتذرنا للسيدة عائدة عن عدم التوديع إلا بهذه الواسطة، ورجوت منها أن تعتذر عني إلى الاستاذ حبيب الجاماتي، الذي كنت وعدته بزيارة، ولكن ضيق الوقت كان السبب في اخلافي.

في الساعة المعينة كنا في المطار، ومطار القاهرة كبير جميل، وكان موعد قيام الطائرة السادسة مساء ولكنها تأخرت ربع ساعة، وكان الاستاذ سامي الدروبي معنا وقد بقي معنا إلى آخر ساعة حيث ودعناه وصعدنا سلم الطائرة. وما ان طارت بنا مقدار أربعين أو خمسين دقيقة حتى ظهرت لنا أنوار مدينة قيل لنا انها بورت سعيد، ومن هنا شعرنا ان الطائرة قد انحرفت بنا إلى فوق البحر حتى لا تمر فوق فلسطين المغتصبة،

ثم بعد قليل أخذت تظهر لنا أنوار الساحل الفلسطيني متواصلة متلاحقة، وكنت اود أن أرى بيروت غير ان طائرتنا قطعت سماء لبنان بالعرض، من فوق صور أو صيدا، ولم يكن الظلام قد اشتد بعد عندما نظرت إلى أسفل فرأيت بقايا الثلوج عالقة بجبـل الشيـخ، ثم ودقائق اخرى، وكان الظلام قد اشتد، أشرفنا على دمشق الجبارة الخالدة! فاخذنا بجمال المنظر، ظلام دامس في كل مكان وأنوار دمشق تسطع في الظلام، كأن المدينة بساط كسي بالالماس والشمس عليه شارقة! لم أرَ في حياتي منظراً اخاذاً كهذا.

في مطار دمشق نسينا ما لقينا في مرفأ الاسكندرية. ما ان وقفت الطائرة حتى رأينا جمهوراً كبيراً من الناس واقفاً إلى جانب المطار، ثم تقدم منا أحـد الملاقين فعرفت فيـه حالا أديب دمشق الاستاذ فؤاد الشائب مدير الدعاية والانباء. تقدم فعانقني وعانقته، ثم اندفع الجمهور نحونا، فاذا بي وجهاً لوجه أمام الوزير صلاح الدين البيطار، والصديق القديم الاستاذ ميشيل عفلق، والصديق الآخر نائب صافيتـا السابق الاستاذ عبد اللطيف اليونس، ثم رحنا نسلم على الجمهور واحداً واحداً، وكان هناك فريق من السيدات أحاط بزوجتي التي كانت علائم المسرة والغبطة تغمر وجهها، ثم قدمن لها باقة من الازهار، وأخيراً دخلنـا قاعة الاستراحة فعرفنا الذين كانوا يعرفوننا إلى الذين لم يكونوا قـد رأونا بعد، وكان هناك فتى أخذ من يدي عندمـا نزلت من الطائرة حقيبتي الصغيرة وحملها عني متلطفاً، وقد عرفت بعدئذ انه وزير الثقافة



وصولنا الى مطار دمشق — مع الوزيرين صلاح الدين البيطار ورياض المالكي والاستاذ ميشيل عفلق

والارشاد القومي الاستاذ رياض المالكي ا فخجلت من نفسي ، إذ أعطيت حقيبتي إلى وزير ليحملها عني … ولقد كان في ٱلمطار الاستاذ الدكتور حكمة هاشم رئيس جامعة دمشق (الجامعة السورية سابقاً) وفريق كبير من ادباء ٱلمدينة وصحافييها .

بعد ان استرحنا قليلًا ركبنا ٱلسيارات إلى ٱلمدينة ، إلى دمشق الفيحاء ! ، ونزلنا في فندق سميراميس الفخم ضيوفاً على ٱلحكومة .

هكذا كان وصولي إلى ٱلمدينة الباسلة التي نشأت على ٱلتغني بجهادها .

أمامي الآن لائحة مكتوبة بخط ٱلاستاذ عبد الله عبود ، (رفيقنا الرسمي) تحوي على أسماء الذين تلطفوا فلاقونا في ٱلمطار ، وهم: الوزير المركزي الاستاذ صلاح الدين البيطار ، الوزير التنفيذي الاستاذ رياض المالكي ، المفكر العربي الاستاذ ميشيل عفلق ، رئيس جامعة دمشق الاستاذ حكمة هاشم ، مدير الدعاية والانباء الاستاذ فؤاد الشائب ، النائب السابق الاستاذ عبد اللطيف اليونس ، مدير الاذاعة العام الامير يحيى الشهابي ، الدكتور شكيب الجابري ، الدكتور شكري فيصل ، الشاعر أنور العطار ، الاستاذ ميشيل الله ويردي ، الاميرة امل الجزائري ، السيدة ساره مشاقه ، الآنسة نعيمه مغربي (عن الاتحاد النسائي) ، الاديبة إلفة عمر باشا الادلبي ، الدكتور عبد الله عبد الدائم ، والدكتور ابرهيم الكيلاني من موظفي وزارة الثقافة والارشاد القومي .

في ٱليوم الثاني ، يوم ١٧ نيسان ، كان عيد الجلاء ، أكبر عيد قومي في سورية ، على انهم لم يحتفلوا به هذا ٱلعام كالسابق حداداً على

شهداء العراق الذين كانوا يتساقطون دفاعاً عن العروبة. وهذا لا يعني ان المدينة كانت طيلة يوم العيد هادئة ساكنة، ولكنه يعني انهم لم يقوموا بالعرض العسكري الضخم كما كانوا يفعلون في السنوات السابقة، فاقتصروا على عرض فرق الكشافة من الجنسين، فكنا ونحن نستقبل الزوار في الفندق نسمع أهازيج الشبان والموسيقى العسكرية، وفي الليل كانت الانوار تغني المدينة عن نور الشمس! وكانت الاسهم النارية تشق الفضاء صعداً، وكانت الحكومة قد عينت لنا رفيقاً رسمياً كما قدمنا فقلنا، هو الاديب عبد الله عبود، وهو شاب مهذب دمث الاخلاق لطيف للغاية فكان ساهراً على راحتنا.

في الايام التي تلت يوم وصولنا إلى دمشق كانت زيارات الادباء والسياسيين لنا متواصلة، تبدأ من الساعة التاسعة صباحا وتنتهي عند منتصف الليل، ولدي الآن لوائح بخط رفيقنا الاستاذ عبد الله عبود باسماء الزوار تملأ مجلداً ضخماً!

زرنا في دمشق من الرسميين السيد نور الدين الكحالة وهو رئيس المجلس التنفيذي، والسيد اكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية، والسيد عبد الحميد السراج وزير الداخلية. وعدا هؤلاء فقد زرنا الوزارت كلها، وكانت لنا علاقات طيبة مع الوزير رياض المالكي، ومع الوزير الدكتور امجد الطرابلسي وزير التربية والتعليم، ومع وزير العدل الاستاذ نهاد القاسم، ومع امين عام وزارة الارشاد الدكتور يوسف شقرا، وامين عام وزارة الزراعة الاستاذ سعد صائب، ومع

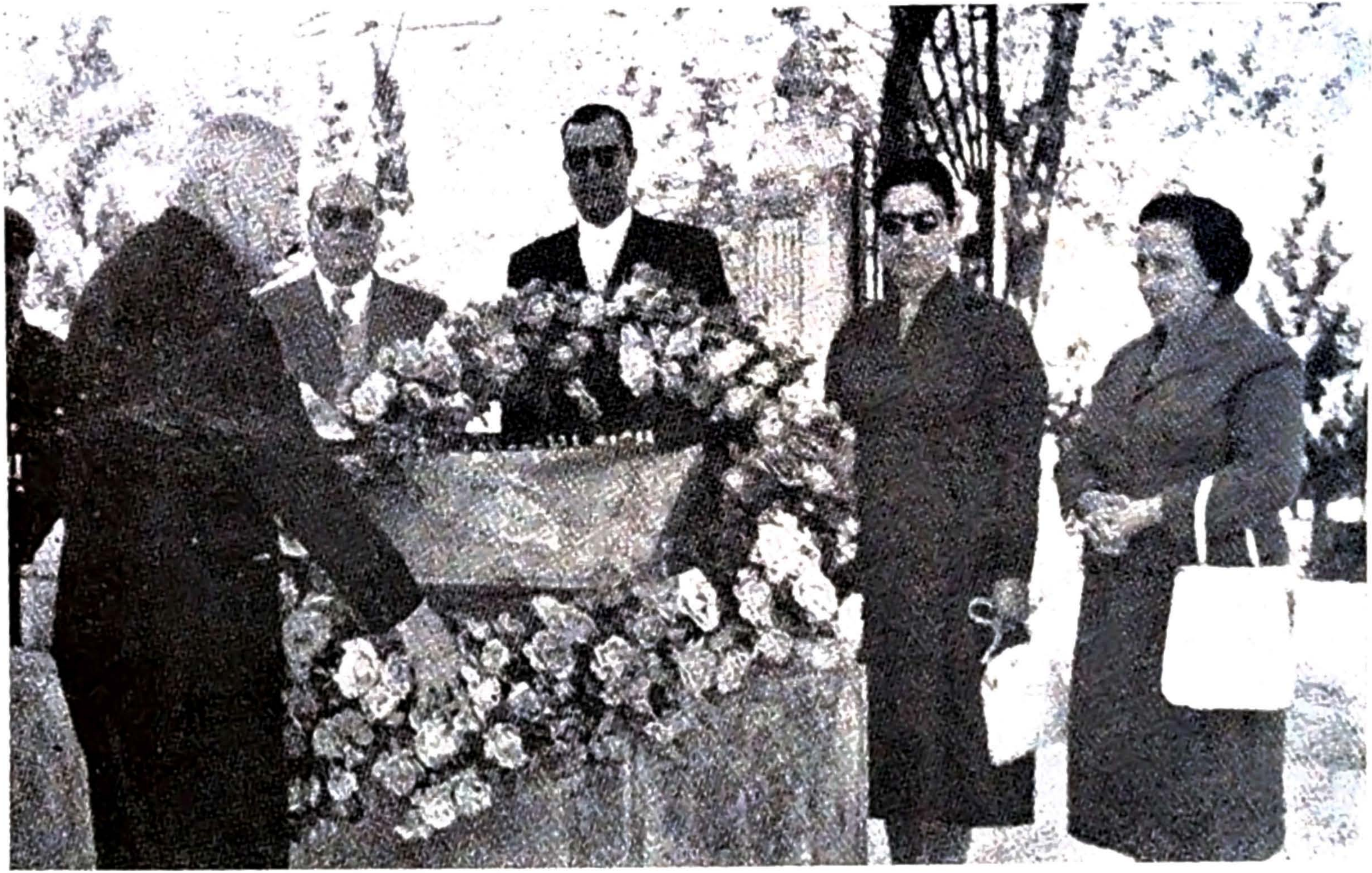
امين عام وزارة الداخلية العميد محمد الجراح، وعدد كبير غير هؤلاء ممن توثقت بيننا وبينهم روابط المودّة، ومن الذين كنـا نجتمع بهم ونأنس بلطفهم وننتفع بعلمهم الاستاذ الكبير فارس الخوري، وقـد زرناه في منزله مرارًا، والاستاذ سليم اليازجي الذي توثقت بيننا وبين اسرته اواصر الصداقـة والاحترام، وزرنا غير مرّة فخامـة الرئيس المواطن العربي الاول شكري القوتلي، وقد كانت لنا معـه أحاديث عن الجهاد والقومية العربية، وقـد أقام لنا فخامته حفلة عشاء في منزله دعا اليها فريقاً من اصدقائنا واصدقائه. وقد تعرفنـا إلى جمهور الادباء من شعراء وصحافيين وكتاب وخطباء من سكان العاصمة العربية الثانية (دمشق) ومن زوارها وهم كثيرون تصعب علي تسميتهم، ولكننا سنذكر أسماء بعض منهم ممن كانت علاقتنا بهم أقوى وأشدّ، فقد كان في مقدمة هؤلاء الدكتور الصديق سامي الدهان، والدكتور حكمـة هاشم، والدكتور شكيب الجابري، والدكتور كامل حمارنه، والشاعر أنور العطار، والشاعر عدنان مردم، وفريد اللحام، وهذا صديق قديم، إذ كان موظفاً في قنصلية سورية في سان باولو، ومثله القنصل سامي الخوري، ومثلهما احسان مراش، وكانت لنا صداقة مع الاستاذ محمود اليونس، ومع الامير العالم مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق، والدكتور عبد الله عبد الدائم، واحمد الجندي، ومدحة عكاش الذي غمرنا بلطفه وحسن معاملته. وقد اقيمت لنا حفلات سمر

في المنازل وحفلات طعام في مطاعم دمر (دمر التي هي جنات تجري من تحتها (ومن فوقها..) الانهار!).

وقد زرنا المجمع العلمي العربي، والجامعة السورية، التي صار اسمها بعد الوحدة (جامعة دمشق) وتكية السلطان سليمان، والجامع الاموي، وقبر السلطان صلاح الدين الايوبي، وقصر العظم الشهير، والبرلمان السابق، والغوطتين الشرقية والغربية، وزرنا صحبة الصديق السيد صبحي نداف وفي سيارته صيدنايا ومعلولا، ولا يجوز لنا أن ننسى الاستاذ فخري البارودي، وقد كنا ونحن في غربتنا، وسورية في معركتها الحارّة، نسميه زعيم الشباب فلما لقيناه وجهاً لوجه سميناه شيخ الشباب، ذلك لانه شيخ فيه روح شاب.

الخلاصة، كنا ونحن في دمشق نشعر باننا في بيتنا وبين أهلنا واخواننا. وكان الاخ نظير زيتون قلما يفارقنا ومثله الاخ عبد اللطيف اليونس، ومثلهما الصديق الاستاذ نجيب حرب الذي رأينا فيه الانس والمحبة والوفاء، ومثله أخوه الاستاذ امين حرب، بل وسائر أهل بيت حرب العامر.

وزرنا قبر البطل الشهيد يوسف العظمه في ميسلون بصحبة الصديق العقيد عبد المجيد تجار، وتذكرنا ونحن في ميسلون بيتاً عربياً كريماً قائماً في أبرز شوارع مدينة كوريتيبا وعلى واجهته بحرف كبير بارز يقرأ المارّ من هناك اسم (ڤيلا ميسلون) وهذا البيت كان منزلاً للرفيق اللبناني العربي الحر الكريم خليل كرم، الذي قضي منذ عشرين سنة،



علَى قبر البطل الشهيد يوسف العظمه

على ان اسم ميلون سيظل في مكانه من صدر البيت ما دام هذا البيت قائماً !

ذكرت في ما سبق أنا هبطنا مطار دمشق قادمين من القاهرة مساء السادس عشر من شهر نيسان، فما ان نشرت الصحف واذاعت محطات الاذاعة خبر وصولنا حتى أخذت الوفود ترد من مدن سورية ومن لبنان للسلام والترحيب، وبعد يومين من وصولنا قدمت من بيروت أرملة أخي سعيد ومعها أبناؤها الثلاثة جوفري الذي أطلقت عليه اسم جعفر – وايلي (وهو الياس بثوب افرنسي!) وميشيل (الذي كان في قديم الزمان ميخائيل...) فكان سروري برؤية هؤلاء الاحباب فائقاً حد الوصف إذ وجدت في هؤلاء الشبان الذين أراهم لاول مرة في حياتي اللطف والادب فضلاً عن الجمال والصحة. وفي اليوم الثاني قدمت شقيقتي وديعه من كفرشيما ومعها ولداها ميشيل وسلمى خلف، فكان لقاؤنا مؤثراً للغاية. ثم جاء ابن اختي المتوفاة نظيره شكري أبو نصر، وهذا كنت تركته يوم سفري إلى برازيل ولداً دون الخامسة، فكان طبيعياً أن لا أعرفه، فلما عرّفني باسمه انفجرت عيناه وعيناي بالدموع، وفي ذلك الاسبوع جاء من بلدتي المحبوبة كفرشيما وفد مؤلف من الاساتذة بديع هاشم وسليم نهرا، الاول صاحب ومدير مدرسة كفرشيما الوطنية والثاني يعمل في إحدى المحاكم، ثم وديع سليمان (شاعر كفرشيما الحالي) وطانيوس الخوري، وهو أديب وشاعر، ووليم سليم. ولم اكن أعرف من هذا الوفد الكريم إلا

الاولين منه لانهما أكبر مني سناً. وقد ألقى الشاعر وديع سليمان هذه القصيدة التي تعبر عن لطفه أكثر مما تعبر عن استحقاقي، قال:

يربك، باسم من قد جلّ وصفا أأضحى الشعر بين يديك وقفا
لقد غادرتنا وتركت فينا من المأثور في الزجل المقفّى
وعدتَ بخالداتٍ من قوافٍ تهزّ النفس تصويراً وعزفا
ضمنتَ لها الخلود فكل بيتٍ يساوي من نفيس الشعر ألفا

* * *

فتى الثورات كم حطمتَ تاجاً بقافيةٍ وكم فرّقتَ صفًّا
بعثتَ بها لهيباً من جحيمٍ قصفت به قلاع الشر قصفا
وما لانت لما تبغي قناةٌ فضيم النفس زاد النفس عنفا

* * *

كبير الروح ما قادتك يوماً لما تأبى ولا راعيت ظرفا
وفي شرع الاخوة كنت قلباً جرى منه معين الطهر صرفا
وفي عين المحب ترى حبيباً وعن حسد الحسود تغض طرفا
وقدست الوفا فاذا وفيٌّ أقام على وفائك كنت أوفى

* * *

أخي فرحات أهلاً في حبيبٍ يضيق عليه بحر الشعر وصفا
كفرشيما ترحب في أديبٍ سما أدبًا واخلاقاً وظرفا
رأى في جيدها عقدًا فريدًا تكامل حسنه صنعاً ورصفا
فضمّ اليه لؤلؤةً فكانت على الآداب والاخلاص وقفا

ثم ألقى الشاعر طانيوس الخوري الابيات التالية :

شاعر الحكمة قد ذبنا حنانا نحن في لبنان في شوقٍ ترانا
برّح الشوق بنا اذ لم تمد طاقة للصبر تحتل الجنانا
شاعر الرقة ضمخت الدنى فاذا الكون عبير من شذانا
لا تطل في الشام مكثاً ان في كفرشيما مهجاً ذابت حنانا

وجاءنا وفد من مدينة يبرود ليسلم علينا ويدعونا لزيارة البلدة القلمونية.

وقدم الاستاذ الكبير والاداري الحازم النزيه عارف النكدي، من عبيه، والشيخ العالم الاديب أحمد عارف الزين من صيدا، وهذا الشيخ الجليل المجاهد هو مؤسس مجلة العرفان الحرة التي حاربت الاستعمار طول أيام بقائه في الوطن .

وقدم كذلك الدكتور حسين سري الدين، من بيروت، وولداه الاستاذ سامي والآنسة مي. كما قدم باسم جريدة (الراصد) البيروتية الصحافي النشيط الاستاذ جورج الرّجي، والاديب المشهور يوسف يزبك. وقدم من بيروت كذلك باسم جريدة (الحياة) الاديب محمد قره علي، وكثير غير هؤلاء يصعب عليّ ذكر أسمائهم الكريمة.
فرأيتُ في آخر نيسان أن أزور كفرشيما زيارةً لا تستغرق أكثر من اسبوعين، اعود بعدها إلى دمشق، فكلمت ابن أخي بالهاتف واطلعته على عزمي، فجاء جعفر وايلي بسيارتهما وعادا بي وبزوجتي إلى كفرشيما، ومع اني لم اعلم كفرشيما بزيارتي التي أردتها مفاجأة، فقد تسرب الخبر اليها

عن طريق ابني أخي القاطنين في بيروت ، فما ان أشرفت سيارتنا على جسر الغدير ، خارج البلدة ، وكان الوقت ظهراً ، حتى رأينا الساحة التي يبتدئ منها الشارع الجديد المؤدي إلى قلب البلدة ، غاصاً بالناس ، رجال ونساء واولاد يعدون بالمئات ، واقفين في انتظار وصولنا فترجلنا هناك وكانت ساعة يعجز القلم عن وصفها ، إذ كنت لا أرى من خلال دموعي إلا ثغوراً باسمة وعيوناً تنهمر منها الدموع ، دموع الفرح بالعائـــد إلى العش الذي طار عنـــه من نصف قرن ، واذكر انه كان في مقدمـــة المرحبين الاستاذ حنا المرّ رئيس نادي الادب والرياضة ومعه رفاقه أعضاء هذا النادي النشيط الكريم ، والسيد شفيق ياغي مختار البلدة ، وجمهور



وصولنا الى جسر الغدير — كفرشيما


وصولنا الى الغدير
كفرشيما.



كبير من أبناء عمومتي (بيت فرحات) وكنت اظن ان ليس منهم في كفرشيما إلا القليل ، وان معظمهم في أميركا ، ولكني علمت بعدئذٍ أن فيها (ابن عمي ملحم) وحده يكاد يملأ البلدة بابنائه وابنائهم ...

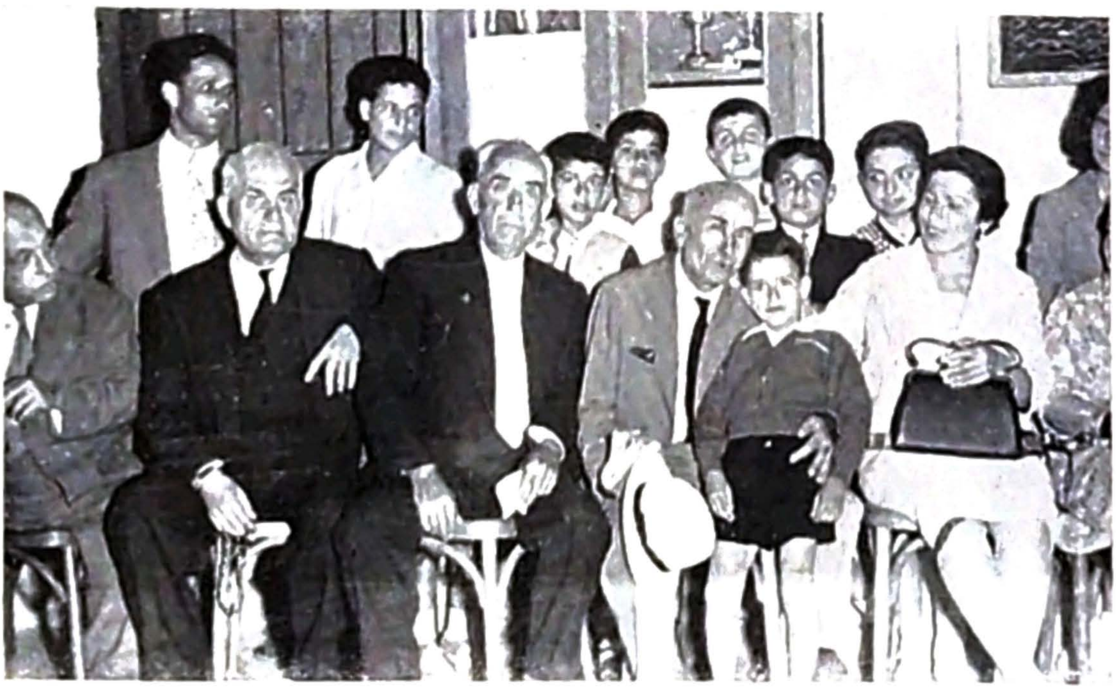


استقبالنا عند جسر الغدير مدخل كفرشيما



علَى مدخل نادي الادب والرياضة بكفرشيما





في كفرشيما



بين الاهل في كفرشيما — اليمين: الاستاذان مدحة عكاش وسعد صائب. اليسار: الاستاذ عبد اللطيف اليونس

بقينا عند جسر القدير حوالي الساعة ونحن نسلّم مصافحين ومعانقين، واخيراً سرنا تحت الشمس المحرقة مشياً على الاقدام، فاجتزنا الشارع الجديد ودخلنا منه إلى قلب البلدة، ثم ذهبنا توّاً إلى مركز النادي الكائن عند ساحة الميْن، فادخلونا قاعته الكبرى المزدانة الجدران برسوم النوابغ الذين أنجبتهم هذه البلدة الصغيرة، فهذه صورة الفيلسوف الدكتور شبلي الشميل وهذه صورة أخيه الاستاذ امين، وهذه صورة الشاعر اللغوي الشيخ ناصيف اليازجي وهذه صورة ابنه الشاعر الشيخ خليل، وصورة ابنه الآخر العلّامة الشيخ ابرهيم، وصورة ابنته الشاعرة وردة، وهذه صورة بشاره تقلا وصورة أخيه سليم تقلا مؤسسا جريدة الاهرام المشهورة ثم صورة امين الكسباني وغيرهم...

وضاقت القاعة ساعتئذٍ بالناس وقام رئيس النادي الاستاذ حنا المرّ يلقي كلمة الترحيب، فلما قمتُ لأردَّ عليه شاكراً سكت لساني وراحت عيناي تترجمان بما يسيل منهما من دموع عن شكري وامتناني وعن شعوري الذي يعجز الكلام، مهما كثر، عن وصفه. واخيراً ركبنا السيارات التي حملتنا إلى منزل شقيقتي، وكانت هي وزوجها الياس خلف، واولادها، في انتظارنا، فجددنا ذرف دموع الفرح بهذا اللقاء ونزلنا ضيوفاً في بيتها الذي اعتبرناه بيتنا ...

بقيت وزوجتي في منزل الشقيقة عشرة أيام لم نرتح في خلالها من استقبال الزوار إلا ساعة النوم. وكنت أنهض كل يوم صباحاً، قبل الاستقبالات، واسير في ازقة البلدة لأرى ما بقي مما كنت أعرفه قبل

غيابي على حاله الاولى، وما تطوّر منه وما تجدد وما جدّ، فأرى الجديد والمجدَّد شاملين، فالازقة كلها مفروشة بالاسفلت أو بالسمنتو، بحيث يمكن أن تسير السيارات في كل زقاق يتسع لها دون أن تثير غبارًا، ولم اكد أعرف بيتاً واحداً من البيوت القديمة، فالبيت الذي ولدتُ فيه، وقد أصبح ملكاً لسوانا، قد خلع ثوبه العتيق ولبس ثوبًا جديدًا غيّر من معالمه، ومثله بيوت الجيران، بل بيوت القرية كلها، و(الكسارة) التي كانت ملعب طفولتي وكانت ملهىً لي وانا في فجر شبابي، والتي كثيرًا ما ذكرتها في شعري، قد تبدل شكلها إذ أصبحت خاليةً من الصنوبر الاخضر الجميل العالي، ولم يبقَ فيها سوى بعض الصنوبر الجديد، ولما سألت عما حلّ بالصنوبر القديم قالوا لي انه قطع في أثناء الحرب الكونية الاولى، وكان الدير الذي هو صاحب الكسارة، قد قطع الارض وخططها شققاً للبناء فارتفعت البنايات الحديثة الطراز الجميلة المنظر هنا وهناك، واصبحت السيارات تتسلق الجبل إلى الدير وإلى ما حول الدير، وصارت تدور في دروب القرية لا فرق عندها بين السهل والجبل.

وانتشر خبر وصولنا إلى كفرشيما في لبنان وبيروت فجاء للسلام علينا خلق كثير، وجاء وفد من جمعية المقاصد الاسلامية، من بيروت ولم يكن مجيئه للسلام فحسب وإنما جاء يدعوني للاشتراك في حفلة يحييها في مركز الجمعية في الخامس عشر من شهر ايار بمناسبة نكبة فلسطين، فاعتذرت عن قبول دعوته إذ كان علي أن اشترك في حفلة تقام يومئذٍ

وفي هذه المناسبة في دمشق، ولكن وفد المقاصد لم يقتنع ولم يقبل عذري واظهر من ضروب الالحاح والرغبة في وجودي معهم يومذاك واشتراكي في حفلتهم ما أخجلني، حتى انهم قرروا أمامي أن يحتفلوا في اليوم الثالث عشر من أيار بدلا من الخامس عشر منه، فلما رأيت منهم هذه الرغبة الملحة الصادقة المخلصة وعدتهم بحضوري والاشتراك معهم. فودعوني شاكرين.

ولم اكن ذهبت بعد إلى بيروت فانتقلت من بيت شقيقتي في كفرشيما إلى بيت أخي في بيروت، وبيت أخي هذا كائن في حي المزرعة وقد انتقلت اليه قبل موعد الحفلة بيوم واحد. وقد لازمت البيت لا اخرج منه إلى الشارع، حتى أزفت ساعة الاحتفال فجاء وفد بسياراته فحملني ومن في البيت إلى مركزه في حي (البسطه) وجاء أهلي وأصحابي من كفرشيما يشتركون معنا في الاحتفال، ولعلها المرة الاولى التي يجيء فيها الناس من كفرشيما إلى البسطه ليشتركوا في يوم فلسطين...

وضاقت قاعة (المقاصد) على رحبها، وكان في خارجها من الناس أكثر مما في داخلها، وراح الخطباء يتناوبون على المنبر، حتى أعلن العريف انه قد جاء دوري، فضج المكان بالهتاف والتصفيق، ومشيت إلى المنبر متهيباً متأثراً وألقيت قصيدتي (لكم البداءة والختام لنا) فازداد الهتاف وتعالى، وكانوا يطلبون المزيد، فألقيتُ قصيدتي الثانية (إلى شباب العراق) وحاولتُ النزول عن المنبر فملا الاحتجاج والصياح،

بعد ! بعد ! فألقيت قصيدة ثالثة لها علاقة بفلسطين ثم قصيدة رابعة هي (نفط الكويت) وعلاقتها بفلسطين ظاهرة. ونزلت عن المنبر وهم يحتجون ويطلبون المزيد، فقلت أيها الاخوان لقد دعيت إلى حفلتكم لألقي فيها قصيدة واحدة وها انتم ترون اني ألقيت أربع قصائد، ولو كنت أعلم حقيقة ما تريدون لحملت ديواني وجلست أقرأه لكم، قلت هذا ضاحكاً فضحكوا وشكروا. وعندما انتهت الحفلة اجتمع عليَّ شبان المقاصد وشاباتها وراحوا يسلمون ويهنئون، وخرجت وجماعتي من المكان تحت عاصفة من التصفيق والهتاف، وقد رجعت في اليوم التالي إلى دمشق ولم اعد إلى بيروت إلا بعد الحفلة الرسمية التي أقامتها لي الحكومة العربية السورية في الرابع من حزيران. رجعت هذه المرة



(المقاصد) — بيروت

عن طريق الساحل بعد ان زرت اللاذقية الجميلة وبعد ان جولت في محافظتها من الشط إلى القمة.

كنا في أواخر أيار عندما وزعت وزارة الثقافة والارشاد القومي، في دمشق، الدعوة إلى الحفلة الرسمية التي تقيمها لي في الرابع من حزيران، في حديقة نادي ضباط حامية دمشق، وكنا في إحدى تلك الامسيات في ضيافة الاديب السعودي الشيخ عبد الحميد الخطيب سفير المملكة السعودية السابق في افغانستان، فشعرت ليلتئذٍ، ونحن في حديقة القصر، بشيء من البرد، على اني لم آبه له، ولكني عندما عدت إلى الفندق شعرت بالحمى تلسع جلدي فداويتها بأقراص الاسبيرين، حتى إذا نهضت صباحا وجدتني قويًا على السفر إلى حمص التي كنت قد وعدتها بزيارة أيام، فسافرت وزوجتي بسيارة عامة (اوتوبس) أو (باص ...) إلى هذه المدينة التي تربطني بمعظم أبنائها صداقات قوية قويمة، وكانت زيارتي هذه هي الاولى لها.

وصلنا (مدينة ابن الوليد) حوالى الساعة العاشرة صباحًا، فتلقاني فيها الاخ نظير زيتون، ولم اصعد درجات سلم الفندق إلا بصعوبة ذلك لان الحمى التي دغدغتني أمس والتي حاولت طردها بالاسبيرين عادت إليَّ في الطريق حاملةً معها البرد والغثيان ووجع الرأس. فأخبرت نظيرًا عما اشعر به فراح يخاطب الدكتور اسحق شهلا بالهاتف، أخبره عن وصولي وعما الاقي، فقال له الدكتور احضر واياه فورًا إلى هنا، فأنا لا أستطيع ترك العيادة الآن لانها مزدحمة بالزوار المرضى، فذهبنا



— حمص —

إلى عيادة الدكتور شهلا فوراً ، نظير وعبد الله عبود وزوجتي وأنا ، فتلقانا النطاسي الحكيم بلطفه وعلمه ، اللطف لمداواة الارواح والعلم لمداواة الجسوم ا ثم فحصني الدكتور فحصاً مدققاً و (بشرني) ان درجة الحرارة معي لا تتجاوز الاربعين ... على انه قطع عليها الطريق بزرقة من ابرته المطهرة ، (حقنه تحت الجلد) ثم أجلسني للاستراحة قائلاً انه سيدفع عني شرّ الحمى بزرقة ثانية مساء اليوم أو صباح اليوم التالي . وبينا نحن في الحديث وإذا بسيادة محافظ حمص العقيد مصطفى رام حمداني يدخل العيادة سائلاً عني ، قائلاً انه حالما علم بوصولي ذهب تواً إلى الفندق للسلام عليّ ولكنه فوجئ بالخبر غير السار وهو اني دخلت المدينة مريضاً واني ذهبت إلى عيادة الدكتور شهلا ، فجاء يعودني

ويسأل عما بي ، فشكرت له اهتمامه وطمأنه الطبيب ان لا خطر عليّ وان مسألتي ان هي إلاّ (غريب ا) آسوية ، وهي غالباً ما تجيء فجأةً وبقوّة ، وتعود بابرة أقوى منها !

بقينا في عيادة الطبيب الكريم المهذب نحواً من ساعتين ، وبقي المحافظ معنا وقد أظهر لنا كثيراً من الغيرة مما جعلنا نشعر بأننا أمام رجل انساني وحاكم غيور ، وقد أعادنا الطبيب إلى الفندق بسيارته ، وفي المساء أرسل معاونه ومعه (الابرة المطهرة) فأجرى لي ما كان أجراه الطبيب أولاً ، وفي الصباح كنت لا اشعر إلا بألم الوخزتين !.

في حمص تعرفنا إلى الاستاذ أديب ملحم البستاني محرر جريدة حمص ، وهو رجل أديب كاسمه ، لطيف المعشر وافر التهذيب ، وفيها أقام لنا السيد خير الله زخور حفلة عشاء فاخرة ، في متنزه الميماس المشهور ، دعا اليها جمهوراً كبيراً من الادباء ، وكذلك أقام لنا الدكتور اسحق شهلا حفلة غداء في نادي المدينة واخذنا بسيارته في نزهة إلى بحيرة قطينة ، وأخيراً ، وكنا رغبنا في زيارة حماه ، أرسلنا بسيارته إلى مدينة النواعير التي لم نقم فيها سوى ساعات قليلة ، لأن صديقنا المطران حريكة الذي كانت الزيارة له كان على موعد سابق مع مدير مصياف ، فتركنا ساعة وصولنا بعد ان أوصى بنا ابنة شقيقته زوجة الوجيه نورس الرستم فأضافتنا واحسنت ضيافتنا بأن صنعت لنا غداء طيباً ، عدنا بعده إلى حمص فالى دمشق ، وكان موعد الحفلة الرسمية قد ازف.

أقامت وزارة الثقافة والارشاد القومي حفلتها في الموعد المضروب، بحضور معظم الوزراء والادباء فافتتحها وزير الثقافة الاستاذ رياض المالكي، وقد أصدرت الوزارة كُتيّباً جمعت فيه كل ما قيل فيها من منظوم ومنثور، وإلى القارئ قصيدتي :

ريحُ الصَبا مرّت على بردى ... وأتت ترشّ على الهجير نـدى
فاستقبلتهـا العين ساجيـةً ... وهفا اليهـا القلب مبتردا
ذكرا وقـد نعما بيومهما ... يوماً اذاب الروح والجسدا
العين كاد الدمع يغرقهـا ... والقلب اوشك أن يموت صدى
والبحر دون الاهل مضطربٌ ... لهديره بين الضلوع صدى
وكأننا امواجهُ أُسـدٌ ... غضبى قواثب مثلهـا أُسْدا
لو سالمتني لاحتفيت بهـا ... ومسحتُ عن اشداقهـا الزبدا
وسألتها نقـلي إلى وطنٍ ... للحب فيه وللجمال مدى
اهلوه في عسر الزمان له ... يسرٌ وفي ليـل الخطوب هدى
كانوا لعين الفضل قرّتهـا ... اذ كان غيرهمو لهـا الرمدا
نفحوا العروبة من شمائلهم ... بفصاحةٍ وشجاعةٍ وندى
وبهمةٍ قعساء يورثهـا ... مضمونـةً من مـات من وُلدا
وبموردٍ للجود لو نفدت ... فوراً ميـاه البحر مـا نفدا
افدي اذا عزّ الفـداء بني ... بلدٍ له كلّ البـلاد فدى ا

* * *

وطن العروبة ، آه يا وطني لو كنت كالاوطان متحدا
لأفاد منك الشرق مفتخراً ولحاد عنك الغرب مرتعدا
ولذاب اسرائيل من جزع ولضاق يهوهه بما وعدا ! ..
ولراح الاستعمار منهزماً ما دقّ مسماراً ولا وتدا
ولمات (فستر دلس) منتحراً ولضاع جهد المقلقين سدى
فاستوفت الدنيا كرامتها واسترجع الانسان ما فقدا

* * *

ولقد اقول لمن يجادلني ويلومني ويلحّ منتقدا
فكأنه في ما يحاوله قينٌ يزيل عن الحسام صدا
هو صبّ امريكا ويزعجه اني اعد الظالمين عدى
أنا لا امد يدي إلى بلدٍ جانٍ يمدّ إلى الجناة يدا
دفع اللصوص إلى منازلنا ومضى يسوق اليهم المددا
لولاه ما تركت صوارمنا في أرض يعربَ منهمُ أحدا
لكنه سيرى نهايتهم سيرى الذي من زرعه حصدا
ولئن أراد بقاءهم أبداً فبعزمنا سنقرّب الابدا ...
لن يرحم العرب الاشاوس من لم يرحموا شيخاً ولا ولدا
فغداً تهبّ رياح نخوتهم والويل للمتصهينين غدا !

* * *

يا موطني يا موطناً حسدت احياؤه في الساحة الشهدا
في ميسلون وقفت منفرداً فحملت ثقل المجد منفردا

وغرستَ في الارض الكريمة ما قد طال حتى جاوز الجلدا
حقداً من البارود أوقده عزم الشباب الحرّ فاتقدا
فأطار امَّ المنكرات إلى باريها وازال من مَرَدا
فاعجب لها ارضاً مباركةً تسقى النجيع فتنبت الحَرَدا
واعجب لثاوٍ تحت بلقعةٍ منها يمدُّ الجيش والمددا
ويقوده للنصر وهو له داعٍ فيأتي النصر مطَّردا

* * *

اخوان يوسف هل أقول لكم أني اكتشفت الغيب مجتهدا ؟
لما بدت فيكم بطولته وعلى جباهكمُ الاباء بدا
ورأيتكم تثبون وثبتهُ فتحطمون القيد والزردا
أيقنتُ - والاحداث تثبت لي - أنّ التقمصَ صحّ معتقدا !
والحقّ إن الشام مذ وُجدت معشوقة للمجد مذ وُجدا
هي تنبت الابطال باسرةً مثل السحائب تمطر البرَدَا
كم فوق هذي الارض من بطلٍ قام الزمان له وما قعدا
وهب العروبة كل ما ملكت يدهُ وأضنى القلب والكبدا
أفنى الفتوّة مسرفاً بها وطفت كهولته فما اقتصدا
وتريده الايام تضحيةً وتريده اجداثها جَلَدا

* * *

حمداً يعمُّ الشام من رجلٍ حرٍ اذا لمح الرضى حمدا
اسدت إليّ يداً حكومتها وانا ابن من يسدي إليّ يدا

قد كنت ارجو أن أرى وطني يقظان يرفع للحجى عمدا
وبلغتُ ما ارجو فأسعدني اني وجدت الزهر قد عقدا
فالشعب يغنم عيشه رغدا والجيش يمنع بأسه البلدا
والأمن بين الناس منتشر والعدل يصلح كل ما فسدا
والخطة المثلى قد انتهجت من ليس يرضى فليمت كمدا!

* * *

في الرابع من حزيران سنة ١٩٥٩ أقامت لنا وزارة الثقافة والارشاد القومي حفلتها الرسمية، في حديقة نادي ضباط حامية دمشق، وفي الثامن منه لبينا دعوة الصديق الكريم الاستاذ عبد اللطيف



حفلة دمشق الرسمية و يظهر في الصف الامامي الوزراء وسيادة المطران والفريق جمال فيصل

اليونس إلى زيارة صافيتا، وكنا قد أخبرنا الصديق الآخر الاستاذ سليم اليازجي باننا سنزور مرمريتا، بلدة اليازجيين الكرام، لنرى هناك والدة الصديق العزيز الغالي يوسف اليازجي، فشاء الاستاذ سليم، كرماً منه ومنة، أن يكون رفيقنا في هذه الرحلة، بل شاء أن يأخذنا بسيارته الخاصة إلى مرمريتا فصافيتا، وهكذا خرجنا من دمشق عند الساعة السابعة صباحاً، وكنا الاستاذ نظير زيتون والاستاذان سليم وشحاده اليازجي، وزوجتي وأنا.

في الطريق أكلنا (الترويقه) في مطعم الروضة، في النبك، وحوالي الساعة العاشرة كنا نشرب القهوة في دار آل زيتون، في حمص، وكان الاستاذ سليم اليازجي قد أعلم بالهاتف رئيس دير مار جرجس الحميراء باننا سنتناول طعام الغداء على مائدته، فأعلم الدير بدوره، وبالهاتف أيضاً سيادة المطران اغناطيوس حريكه، مطران حماه، فوافانا إلى الدير هو ونسيبه الوجيه عبد الكريم الرستم، ومن حمص جاءت معنا الآنسة جوزيفين زيتون (شقيقة نظير) وقبيل وصولنا إلى الدير مررنا بالمستشفى الذي بناه أبناء منطقة الحصن المغتربون، فشربنا فيه القهوة ثم استأنفنا السير فلما وصلنا إلى الدير وجدنا رئيسه الارشمندريت اثناسيوس اسكاف والمطران حريكه وعبد الكريم الرستم في انتظارنا، فكان لنا من هؤلاء الاكارم استقبالاً حافلاً

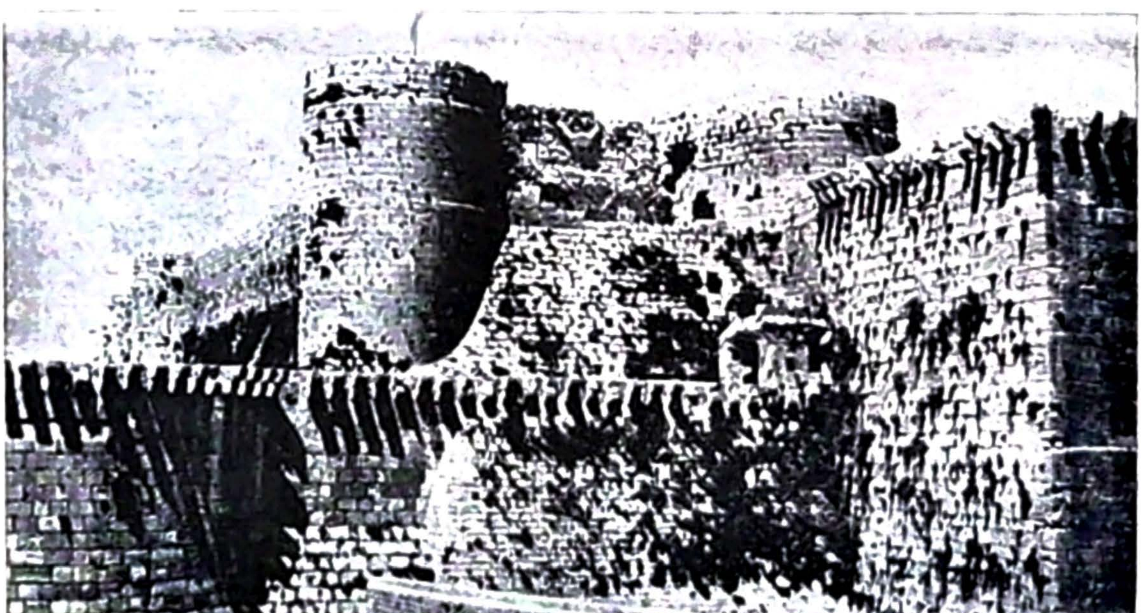
لدير مار جرجس الحميراء قصة طريفة عندي سمعتها وأنا فوق العاشرة قليلاً من خالتي (منّة) رحمها الله، كنت في تلك السن أعمل في أحد

مصانع الكراسي في بيروت ، وكنت انام في بيت خالتي في (مزرعة العرب) بيروت ، فكانت الخالة التقية تحكي لنا حكايات عن عجائب القديسين و (آدميتهم !) في إحدى السهرات أخبرتنا ان في مار جرجس الحميراء ، هذا الذي أنا ضيفه اليوم ينبوعاً يجري ماؤه أولاً في أرض (للمتاولة ...) ولكنه ينزلق عنها انزلاقاً فلا يروي فيها نبتة واحدة ! وبعد أن يجتاز أرض المتاولة ... يصل إلى أرض تخص الدير ، وحينئذٍ ينفلش فوقها ويتخلل كل ذرة من ذراتها ويسقي كل نبتة من نبتاتها ! ان مار جرجس - عليه السلام - لا يحب المتاولة !

تناولنا طعام الغداء في الدير ، ونمنا فيه القيلولة ، ثم قمنا قاصدين (مرمريتا) فلما وصلناها وجدنا البلدة كلها في انتظارنا ، فدخلنا دار الاخ يوسف اليازجي وما ان وقعت عيناي على (ام يوسف) حتى اكببت على يد العجوز مقبلاً متبركاً ، وقد طمأنتها عن الصديق الحميم ولدها يوسف وعن أخويه أسعد وحنا ، وأخبرتها ان زكية ابنة يوسف ، المتزوجة حديثاً ، لا تلبث ان تصل بصحبة زوجها إلى مرمريتا .

في السهرة غصت دار اليازجي بكرام أهل البلدة ، وقد جاء من مار جرجس المطران حريكه ورئيس الدير وعبد الكريم الرستم ، وقدم من صافيتا ، مسلماً وداعياً للزيارة ، المقدم أدهم عكاش ، صاحب مجلة (الثقافة) الدمشقية قد سبقنا إلى صافيتا وأخبر أخاه عن قدومنا ، وهكذا جاء الاخوان معاً ، الجندي الحازم والصحافي الشاعر ، جاءا إلى مرمريتا .

تعشينا على مائدة الشيخة الصالحة (ام يوسف) وكنا جمهوراً كبيراً، وعند منتصف الليل تفرقنا، فذهب المدير وأخوه إلى صافيتا ورجعنا نحن إلى دير مار جرجس حيث نمنا هناك في ضيافة رئيسه الاب اسكاف. وفي صباح اليوم التالي بعد ان تناولنا قهوة الصباحية وتوابعها، ودعنا رئيس الدير شاكرين، وودعنا كذلك سيادة مطران حماه ورفيقه السيد عبد الكريم الرستم. وقد أخذ علينا عهداً بزيارة حماه زيارة مطولة لا كزيارتنا الاولى التي لم تطل إلا ساعات. ولقد شئت قبل مغادرة المنطقة أن أزور قلعة الحصن الشهيرة التي كانت تطل علينا من قمة الجبل القريب، فذهبنا اليها، في طريقها الصعب المتعرج ولما وصلنا أبى نظير أن يدخلها معنا بحجة انه قد زارها مراراً، فبقي في السيارة، ودخلنا نحن كلنا إلا نظيراً.



قلعة الحصن — سورية

دخلنا هذه القلعة العجيبة ذات الموقع الاستحكامي الممتاز الرائع، فاشرفنا من برجها أو من سطحها على كل جهة من جهات الافق، فكنا نرى – أو كان الوهم يرينا – أنا نرى حمص من جهة وانا نرى طرابلس من جهة اخرى، وكنا نرى فعلا جبال لبنان ثم جبال العلويين. أما داخل القلعة فهو أعجب وأغرب. يقولون انها من بناء الصليبيين، ثم يقولون ان هؤلاء الصليبيين كانوا أبعد الناس عن العلم والمدنية، وهذا القول يناقض بعضه بعضاً. ان الذين بنوا هذه القلعة يجب أن يكونوا أعلم الناس بفن البناء البناء العسكري على الاقل، على اني سمعت من يقول ان الصليبيين بنوا على بناء قديم عربي كان هناك، أو انهم رمموا ما كان متهدماً من البناء العربي القديم؛ زيارة هذه القلعـة الهائلة تستغرق يوماً كاملاً، ولكننا اختصرناها إذ لم نلبث فيها أكثر من ساعتين.

تركنا قلعة الحصن، (حصن الاكراد) ورحنا ننحدر إلى السهل، وكان الصديق الاستاذ سليم قد وعدنا بغداء في (عيون الغار) فوصلنا إلى هذا المكان بُعيد الظهر، وهو مكان جميل رائع الجمال، ينبع ماؤه الصافي وكأنه ذوب الالماس ا ينبع من قلب الصخر الصلد الذي هو أمامك والذي أنت واقف عليه، صخر أملس فيه نقرات متقاربات يقفز منها الماء رائقاً صافياً أصفى من الدمع وأصفى من الندى وأروق يصب هذا الماء في شبه بحيرة، أمام الصخر الذي يتفجر منه، ومن هذه البحيرة، أو الاصح (البركة) (لانهـا صغيرة واسم البحيرة يكبر عليهـا!) يجري هذا الماء في جدول يسمونه النهر الابرش، والشيء الوحيد الذي

آلمني وأثارني ان ليس حول هذا الماء نبتة واحدة، حتى كأنه ينبع ويجري في (الربع الخالي).

جلسنا في خيمة هناك، واكلنا من السمك الذي كنا نراه يسبح أمام اعيننا، وقد اصطيد ساعتئذ، واكلنا الفراريج المشوية المغمسة بالزيت والثوم، وبعد الاكل نمنا القيلولة على حصير ممدود، متكئين على مساند أحضروها لنا، وحوالى الساعة الخامسة عصراً وصل مدير منطقة صافيتا المقدم أدهم عكاش وأخوه الاستاذ مدحة لزيارتنا ومرافقتنا إلى صافيتا، فذهبنا معاً في سيارتين، ولما بلغنا المدينة زرنا أول الامر بيت رفيقنا المقدم، فأرانا خيمةً خضراء ارتجلها لنا لنتناول فيها طعام العشاء، في مكان يشرف منه الناظر على أجمل المناظر، التي يمكن أن تقع عليها العيون، وصافيتا كلها ذات منظر جميل خلاب، تشرف على السهول المحيطة بها من كل ناحية. وقد اقترح الشاعر مدحة أن نزور (الدريكيش) وهي قرية تبعد عن صافيتا ستة عشر كيلومتراً، ذهبنا اليها في سيارتين، وقد رافقتنا حرم المقدم أدهم (ام فاروق) وولداه ليلى وفاروق، ولقد بقينا في الدريكيش إلى ما بعد الغروب ثم رجعنا إلى صافيتا. وكان المدير قد اتفق مع الاستاذ عبد اللطيف على ضيافتنا، إذ يكون العشاء في خيمة المدير والمنام في منزل اليونس، وهكذا كان. ولقد أظهر لنا المقدم عكاش من اللطف والكرم وحسن الضيافة ما يقل معه كل ثناء. وكنا قد ذكرنا انه زارنا أولاً في مرمريتا، والمسافة بين البلدتين غير قصيرة، ثم زارنا ثانياً في عيون الغار،

ثم أخذنا إلى الدريكيش ، وأخيرًا أحضر لنا هذا العشاء الفاخر الذي أنطق نظيرًا بالثناء المسجوع...

في اليوم التالي كان الغداء في منزل الصديق الاستاذ عبد اللطيف اليونس ، إذ ادب لنا مأدبة جمع حولنا فيها كثيرًا من وجهاء صافيتا ، وفي مقدمتهم الشيخ القاضي ، ومدير الناحية المقدم أدهم ، ولقد كان يتخلل الطعام الشهي اللذيذ حديث أشهى وألذ من كل طعام ، وعند العصر ، بعد القيلولة ، ذهبنا ثانية إلى الدريكيش في سيارة المقدم أدهم التي كان يسوقها بنفسه . ان هذا الرجل العسكري الحازم يغمرنا بلطفه ورعايته ولا ينفك يعرض علينا خدماته فحق له علينا كل شكر.

زارنا في منزل الصديق اليونس جمهور من وجهاء مدينة صافيتا ، منهم آل بشور ، ومنهم الاستاذ الشاعر أديب الطيار الذي أسمعني شيئاً من شعره فاذا به متأثر بابي ريشه حتى في طريقة القائه الشعر ، ومنهم الاديب الناعم الاستاذ غانم ياسين ، وهذا كنت قد عرفته في الريو دي جانيرو من سنوات أذ لقيته فيها عن طريق المصادفة ، يوم كان عائدًا من الارجنتين إلى الوطن ، واذكر انه حضر في تلك الاثناء حفلة التأبين التي أقامتها الجالية العربية للمرحوم مظهر البكري ، أول وزير مفوض لسوريا في البرازيل ، كما اذكر انه كان شديد الاعجاب بالمرثاة التي ألقيتها يومئذٍ ، وكثير الاطراء لشعري اجمالاً وها هو اليوم يجتمع بي ثانية ويخجلني باطرائه ، هذا وهو أديب واسع الاطلاع على آداب العربية.

دعانا فضيلة الشيخ يوسف ابرهيم قاضي الشرع في المنطقة، إلى تناول الغداء في منزله الكائن في قرية قريبة اسمها بيت الشيخ يونس، وهي لا تبعد عن صافيتا أكثر من دقائق بالسيارة، وقد دعا معنا أكثر من عشرين رجلاً من عشيرته وانسبائه، وابدى لنا من ضروب التكريم ما أنطقنا بالثناء على فضله وكرمه، وعند المساء رددنا الزيارة للاستاذ رفيق بشور، وهناك تعرفنا إلى عمه البالغ من العمر خمساً وتسعين سنة وهو يقرأ ويكتب دون أن يستعين بنضارات، وفي اليوم التالي تغدينا على مائدة الاستاذ غانم ياسين الذي دعانا ودعا معنا جمهرةً من كبار المدينة وادبائها، بينهم القاضي الشيخ يوسف ابرهيم وانسباؤه. أما العشاء فقد كان بدعوة من الشاعر أديب الطيار، وكان في (عيون الفار)، ولقد كان عدد المدعوين كبيراً يزيد على الثلاثين مدعوًا، وكان المقدم أدهم عكاش في المقدمة، ولقد ذكرتُ سابقاً ما يبديه هذا الرجل الكبير لي من ضروب الحفاوة والرعاية، ولقد اكتشفت فيه اليوم أديباً كبيراً يروي كثيراً من الشعر الجيد الممتاز قديمه وحديثه، ولم نعد إلى البلدة إلا عند منتصف الليل، وقد رافقنا الاخوان إلى منزل مضيفنا وصديقنا الاستاذ عبد اللطيف اليونس حيث ودعونا واخذوا علينا عهداً بالرجوع إلى صافيتا.

أبى الصديق الكريم عبد اللطيف إلا أن يجعل ضيافته تمتد إلى أقصى حدّ، فرافقنا في اليوم الرابع إلى اللاذقية، وقدمنا إلى محافظها الاستاذ عبد الحليم قدور، وأوصاه بنا خيراً، ولقد كان المحافظ لطيفاً

وكريماً جواداً فما ان عرفنا باسمائنا حتى تناول الهاتف وخاطب بـه ادارة الفندق (الكازينو) موصياً بنا وقائلا اننا في ضيافة الحكومة المحلية، والحق ان هذا الامر سرني لان الفنادق من الدرجة الاولى غالية في كل مكان، ونحن سواح ومدعوون من حكومـة الجمهورية العربية المتحدة، فلا يليق بنا ولا بها أن ننزل في الفنادق المتواضعة توفيراً للنفقات ...

قلت لنظير : ان عملا كهذا كان يجب أن يتم في حمص في سفرتي الاولى اليها، إذ لم يفكر أحد في هذا الموضوع، وحمص - رعاها الله - تحوي أكبر عدد من الاصدقاء والمعارف، لقد لقينا فيها، من بعض هؤلاء الاصدقاء اكراماً لا مزيد عليه، لان المأدبة التي أقامها لنـا في الميماس السيد خير الله زخور كانت مأدبة سخيـة أنفق عليهـا مئات الليرات، ومع هذا كنت افضل لو قللوا من التكريم وأجروا ما فيه لنا نفع عملي، ذلك لاننا في سفر والسفر يقتضي له كثيراً من النفقات. فقال نظير (خيرها في غيرها !) .

ومررنا بحمص ونحن راجعون من حلب بتنا في فندقها ليلتين اثنتين ولما رحت لادفع الحساب قال لي مدير الفندق ان الحساب مدفوع وان الذي دفعه هو الاستاذ نظير زيتون، فشكرت لنظير هـذه البادرة، وتذكرت قوله السابق : (خيرها في غيرها !) على اني قرأت في اليوم التالي في إحدى جرائد دمشق - وقد كنت وصلت اليها - قرأت هذا

الخبر : « وصل الشاعر المهجري الياس فرحات إلى حمص ، قادماً من حلب ، وقد نزل ضيفاً على صديقه الاديب الكبير نظير زيتون ... »

الخلاصة ان الاخ عبد اللطيف اليونس كان كريماً وذكياً ، وكان محافظ اللاذقية الاستاذ عبد الحليم قدور مثله كرماً وذكاءً .

غادرنا صافيتا حوالى الساعة العاشرة من صباح الرابع عشر من حزيران ، وكنا في السيارة نظير واخته وعبد اللطيف وزوجتي وانا ، ولما أشرفنا على البحر لاحت لنا جزيرة ارواد ، وكأنها دارعة حربية راسية على مقربة من الشاطئ - شاطئ طرطوس - لقد كنت ، لولا ضيق الوقت ، اود أن ازور هذه الجزيرة الصغيرة التاريخية ، ولكن الاخ عبد اللطيف رأى أن اترك هذه الزيارة إلى مناسبة اخرى ، وهكذا مررنا بطرطوس مروراً خاطفاً .

في طرطوس نقلنا من سيارتنا إلى سيارة تعمل بين طرطوس واللاذقية ، فسارت بنا في طريق ساحلي مزفت جميل ، ثم مررنا ببانياس ، وبالقرب من جبلة . وعند الساعة الواحدة بعد الظهر وصلنا إلى اللاذقية ، وهي مدينة جميلة نظيفة ذات حركة تجارية وادبية .

عرفنا المحافظ إلى رئيس البلدة الاستاذ الزين ، وارسل الينا مدير الدعاية والانباء الاستاذ معين اسماعيل ، وفي الليل التف حولنا فريق من الادباء أخذونا إلى (نادي المعلم العربي) حيث كان في انتظارنا جمهور الاساتذة ، وهناك قضينا سهرةً لطيفة سمعنا فيها شيئاً من شعر الشاعرة هند هارون ، ولم نقم إلى العشاء إلا بعد الساعة العاشرة .

في صباح الخامس عشر من حزيران توجهنا إلى زيارة (اوغاريت) في رأس شمرا ، واوغاريت أقدم مدينة اثرية اكتشفت حديثاً ، تبعد عن اللاذقية حوالى خمسة عشر كيلومترًا ، ولقد كان دليلنـا في هذه الرحلة الطريفة العالم السوري الاستاذ غبريال سعادة ، فطفق يشرح لنا كيف ان العالم الافرنسي الاستاذ شفر اكتشف هذه الخرائب ، وما معنى ما نراه من غرف وسلالم وسراديب واقبية وقبور ، وأين وجدوا أول أبجدية فينيقية في العالم ، وكيف ان هـذه الابجدية تسبق اختهـا المشهورة ، والتي كان يُظن انها هي الاولى بألف سنة . وعليه فقد كنا نسير في ممرات وسراديب بنيت من سبعة آلاف سنة . وهذا يعني ان اوغاريت هذه أقدم من التوراة وبالتالي أقدم من آدم التوراة ... وبعد ان تفقدنا ما تفقدناه من هذه الآثار التي لا تقدر قيمتها التاريخية بثمن ، ذهبنا إلى (مينه البيضا) الميناء البيضاء وهو مكان على شاطئ البحر ، جميل جدًا ، فارتحنا هناك في ظلال الدلب والحور ، ثم قفلنـا عائدين إلى المدينة (اللاذقية) .

بعد زيارة (اوغاريت) زرنا مرفأ اللاذقية ، وكما ان اوغاريت هي أقدم مدينة في العالم (كما كان يُظن !) فان مرفأ اللاذقية هو أحدث مرفأ في العالم ، فيه من المخازن مـا يكفي لخزن الوف والوف الاطنان من الحبوب وغيرها ، ومن الآلات الرافعة ما يذهل العقول ! فقـد ارونا آلة ترفع مئة طن دفعة واحدة ، وهي نقالة يذهبون بهـا في الماء ويجيئون ، والذي شغلني وجعلني افكر طويلًا هو أن هذا المرفأ الحديث

وهذه الرافعات العجيبة من صنع شركة بلغارية ، والمعروف ان بلغاريا كانت في اوائل هذا القرن واحدةً من الولايات العثمانية ، لا علم ولا عمران ولكن جهل وتعصب ديني على طول... فما ان استقلت عن الدولة العثمانية ، وتحررت عقول أبنائها بفضل الشرائع العلمانيـــة حتى أخذت تجترح العجائب العلميـــة ، وكنت افكر في ان لا سبيل إلى انهاض العالم العربي إلاّ بتحرير عقول أبنائـه من الاوهام والخرافات الدينية ، ولقد قلت هذا لرئيس المرفأ الذي تلطف وراوفقنا ثم تلطف وهيأ لنا زورقاً بخاريًا أخذنا بنزهة بحرية بعيدًا عن الشاطئ .

عند العصر ذهبنـا بسيارتين إلى مصيف (صلنفة) المشهور وهو مصيف جميل في أعالي الجبال ، يرتفع عن سطح البحر حوالى ١٢٠٠ مترًا ، والطريق اليه جميل مزفت تحف بــه الأودية الخضراء من الجانبين . وصلنفة نفسها بلدة حديثة ذات اخضرار زاهٍ ، ولقــد شعرت فيهــا بلسعة البرد ، مع ان الحرّ كان في الساحل خانقاً .

عدنا من نزهتنا في صلنفة عند السادسة مساءً ، وذهبنا توًّا إلى المركز الثقافي العربي ، حيث كان قد وزع على ادباء المدينة دعوةً إلى الاجتماع والاستماع إلى الشاعر المهجري .. وعند الساعة السابعة كان المكان مكتظاً بالراغبين في السماع .. فقدمني أحد الادباء بأبيات من الشعر وما ان وقفت على خشبة المسرح حتى ضج المكان بالهتاف وكان الهتاف يتضاعف ويتصاعد كلما ألقيت قصيدةً جديدةً ، وظلوا يضجون ويصفقون ويطلبون المزيد ، وظللت البي طلبهم حتى كادت تفرغ ذاكرتي مما فيها

من شعر محزون! واخيراً نزلت بعد ان بقيت أكثر من ساعة اسمعهم شعراً قومياً وعاطفياً!.

كان سيادة المحافظ عبد الحليم قدور في طليعة الحضور، وقد أظهر لي من ضروب التكريم ما أخجلني. وكان من شهود هذه الحفلة سيادة المحافظ السابق الاستاذ مصطفى الحوراني، ومدير المعارف الاستاذ عز الدين العطار، والاستاذ زهير حمدان من مديرية المعارف، ووزير الصحة السابق الدكتور وهيب الغانم. هذا بالاضافة إلى رئيس المركز الثقافي الاستاذ ابرهيم فؤاد سالم وهو اديب مصري يعمل في تثقيف ناشئة اللاذقيـة من سنوات، وهو رجل مهذب وفي منتهى الكياسة واللطف.

وكان اليوم التالي اليومَ الاول من عيد الاضحى، فذهبت ونظيرَا عند التاسعة صباحًا إلى قصر الحكومة لمايدة المحافظ، وكان القصر غاصاً بالمهنئين، فاستقبلنا سيادته بما عرفنا فيه من أدب ولطف. لم نلبث هناك طويلًا، إذ كنا على موعد مع الدكتور وهيب الغانم لزيارة (الفُرُلُق) و(كسب).

عندما كنا في دمشق سمعت من يقول: إذا زرت اللاذقية اياك أن لا تزور الفُرُلُق وكسب وسمعت مثل هذه النصيحة في حمص وفي صافيتا، فلما دعانا الدكتور وهيب اليهما لبينا دعوته فرحين شاكرين.

تركنا اللاذقية بعد العاشرة صباحًا في سيارتين، جوايا وجوزيفين والشاعر سليمان العيسى (الذي كانت الاقدار قد ساقته الينا) وانا

في سيارة، واخوان لنا آخرون منهم الاستاذ زهير حميدان في سيارة اخرى، واخيراً التحق بنا الدكتور وهيب في سيارته الخاصة.

سرنا أولاً شمالاً في طريق قريب من الشاطئ، ثم عطفنا قليلاً إلى الشرق، ورحنا نخترق المزارع الخصبة الانيقة، مزارع تبغ وقطن وذرة. وتكثر في محافظة اللاذقية بساتين الزيتون ولا سيما حول صافيتا وفي القرب من اللاذقية نفسها وكانت أشجار الزيتون المغروسة صفوفاً صفوفاً تذكرني بمزارع البن في البرازيل.

بعدنا عن الشاطئ وأخذنا بالتصعيد في الجبال، سائرين في طريق مزفت في غاية الجمال لما يحيط به من الاشجار الصنوبرية كما رحنا نخترق الجبال الخضراء مشرفين منها على الاودية السحيقة، وكلها مكسو بالاخضرار، حتى إذا وصلنا إلى (الكيلومتر ٤٥) وقف السائق وقال: انظروا هذا أجمل منظر في الدنيا!...

وفي الحق انه أجمل منظر، ولكن في دنيا العلويين! إذ كانت الجبال والاودية تنبسط امامنا حتى موقفنا ذاك إلى البحر الذي كان يختبئ بعيداً فلا يظهر منه سوى شيء قليل. وكان الاخضرار الذي يموز بعض جبال لبنان يمتد امامنا حتى يمتزج بزرقة الماء والسماء، ثم سرنا قليلاً ثم عطفنا عن الطريق المزفت إلى طريق ترابي ينفرج امامنا إلى اليمين، فقال السائق: نحن الآن في طريق الفُرُلُق، وكنت اظن ان الفُرُلُق قرية أو بلدة فاذا به غابة غضة تشبه إلى حد كبير غابات البرازيل، ولا سيما في ولاية (بَرَنا). وهناك في ظلال هذه الغابة عين

ماء يجري إلى حوض صغير وينساب من الحوض إلى الغابة جارياً على طبيعته، وماء هذا العين معدني ذو طعم كبريتي كريه، فجلسنا هناك قليلاً وتناولنا القهوة ثم قمنا نستأنف المسير، فعدنا إلى الطريق العام طريق (كسب) وكانت كل الجبال التي نراها امامنا مكسوة بالاخضر إلا جبلاً واحداً هو أعلاها فقد كان أقرع، ولما سألت عنه قيل لي انه (الجبل الاقرع...) وان مدينة انطاكية تنبسط وراءه.

قبل وصولنا إلى كسب وصلنا إلى مخفر عربي هو آخر مخفر في أرض الاقليم السوري، فوقفنا هناك بامر الخفير الذي اطلع على هويتنا وتركنا نتابع السير إلى كسب، ورأينا على مئة متر من المخفر العربي مخفراً آخر يرف عليه العلم التركي .. فحز هذا المنظر في نفسي. ان العلم التركي يظلل أرضاً عربية، الارض العربية التي وهبها برابرة اوروبا إلى برابرة آسيا، (هدية فرنسا إلى تركيا ...).

نحن الآن على حدود لواء اسكندرون العربي السوري المتروك! فعطفنا إلى الشمال وسرنا في طريق كسب الخاص تاركين إلى يميننا الطريق الذي يمر بانطاكية، ويذهب منها إلى انقره فاستنبول.

كسب قرية سورية سكانها أرمن، وهي قرية عامرة، تكثر حولها المزارع كما تكثر المزارع على جانبي الطريق المؤدي اليها.

لم نلبث في كسب إلا قليلاً، ثم عدنا منها في الطريق نفسه إلى مطعم (شنارجه!) وهي كلمة تركية أو أرمنية لم أفهم لها معنى.

عرجنا على (شنارجه) في طريق ترابي يكون عن يمين القادم من كسب إلى اللاذقية، وعندما وصلنا إلى المطعم كان من محاسن المصادفات ان لقينا هناك الاستاذ مصطفى الحوراني محافظ اللاذقية السابق، وهو عمّ أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية، فتلقانا بالترحاب داعياً ايانا إلى مائدته. فشكرنا له دعوته واتخذنا لنا مائدة منفردة، فجاء هو الينا يحمل ما كان على مائدته من أطايب، فطفقنا نأكل ونشرب ونحن في انتظار الدكتور وهيب الذي وصل متأخرًا يحمل السمك المشويّ والفراريج المغمسة بالزيت والثوم ا. وراح الاخ نظير يأكل ويتغزل... بالدسم ا

تركت رفاقي يأكلون وقمت إلى سيارتي انام فيها القيلولة التي لا استغني عنها. وبعد الساعة الخامسة عصرًا عدنا إلى اللاذقية في ثلاث سيارات فالتقينا في طريق العودة المحافظ الذي كان لاحقاً بنا. فوقفنا مسلمين ثم تابعنا السير إلى اللاذقية فوصلنا اليها بعد السادسة فافترقنا عند باب الفندق على أمل اللقاء في الاجتماع الذي دعينا اليه، والذي سيُعقد في نادي المعلمين عند الساعة التاسعة تكريماً للشاعر المهجري... وقد جرى الاجتماع فكان كسابقه شعراً وشعراً وشعراً... واني لشديد الاسف على عدم وجود صور لديّ لحفلات اللاذقية.

لو كان العمران في جبال اللاذقية منتشرًا انتشاره في جبال لبنان لكان للعرب لبنانان بدلا من لبنان واحد ا

في صباح اليوم التالي تفرقنا : نظير واخته إلى حمص وانا وزوجتي بطريق الساحل إلى بيروت .

نزلت في بيروت في بيت أبناء أخي ، في حي المزرعة. ولما كنا في أيام الصيف وكانوا هم يصيفون في ضهور الشوير ، فقد اعطوني مفاتيح البيت لنكون أحراراً في روحاتنا وغدواتنا نذهب إلى حيث نشاء ونعود إلى البيت حين نشاء .

كانت كفرشيما تستعد لاقامة مهرجان كبير تعبر فيه عن فرحها بعودة ابنها الذي ظل غائباً عنها تسعاً واربعين سنة، وكان نادي الادب والرياضة فيها قد وزع الدعوات لهذا المهرجان الذي سيقام في يوم الخميس الواقع في الثالث والعشرين من شهر تموز سنة ١٩٥٩ في ساحة مدرسة كفرشيما الوطنية عند الساعة السادسة مساء . وكان منهاج المهرجان هكذا :

كلمة النادي للاستاذ حنا المر
كلمة الدكتور جميل جبر – بيروت
كلمة الدكتور سامي دهان - دمشق
كلمة الاستاذ وديع ديب – بيروت
كلمة الاستاذ جورج الرجي – كفرشيما
كلمة الاستاذ نظير زيتون – حمص
كلمة الشاعر وديع سليمان – كفرشيما
كلمة الدكتور فؤاد صروف – بيروت

كلمة الاستاذ عفيف الطيبي - بيروت
كلمة الدكتور رشدي معلوف - بيروت
كلمة الاستاذ بديع هاشم - كفرشيما
كلمة المحتفى به

غير ان الحفلة لم تسر على هذا المنهاج فالاستاذ عفيف الطيبي نقيب الصحافيين أبرق من القاهرة يعتذر عن الحضور، والدكتور رشدي معلوف أبرق يعتذر من بيروت لدواعٍ قاهرة، وإلى القارئ الكريم وصف المهرجان نأخذه عن إحدى الصحف اللبنانية، قالت :

(فرحات يلقي قصيدة ثورية جديدة في لبنان والعروبة)

احتفلت كفرشيما امس الخميس بابنها البارّ الشاعر العربي الحرّ الاستاذ الياس فرحات، وكان الاحتفال الكبير دليلاً على ما للشاعر فرحات من مكانة ادبية عالية في لبنان ودنيا العرب عامةً .

ولقد اشترك في حفلة كفرشيما حشدٌ كبير من المواطنين والادباء الذين قدموا الى باحة مدرسة كفرشيما الوطنية حيث اقيم الاحتفال ، وتعاقب على الكلام عدد كبير من الخطباء والشعراء .

وكان اول المتكلمين الاستاذ حنا المرّ باسم نادي الادب والرياضة في كفرشيما الذي نظم الاحتفال ودعا اليه ، ثم تلاه الاستاذ بديع هاشم صاحب مدرسة كفرشيما الوطنية ، فحلل المرحلة الشعرية الاولى من نتاج فرحات . ثم الدكتور جميل جبر فعالج شعر فرحات على ضوء الشعر المهجري العام . كما عالج الدكتور سامي الدهان الاديب السوري المعروف شاعرية فرحات بحوار ادبي ماتع شامل ، وتكلم بعد ذلك الاستاذ وديع ديب فدرس فرحات كأديب مهجري ، ثم ألقى بعده الشاعر

السوري الاستاذ انور العطار قصيدة طيبة، اما الزميل العزيز الاستاذ جورج رجّي فقد عالج ناحية التحرر في شاعرية فرحات وشعره وحالل الدور الكبير الذي يمثله فرحات في المرحلة النار يخية التي يمر بهـا العرب . ثم جاء دور الاديب السوري الاستاذ نظير زيتون فألقيت كلمته بالنيابة عنه نظراً لطارىء صحي منعه من مغادرة حمص الى كفرشيما ، والكلمة تدور حول ما لا يعرفه الوطن عن فرحات المهاجر وكيف ان فرحات اضطر الى بيع بيته الصغير الذي ملكه في البرازيل بعد غربة ٤٩ سنة ليتمكن من الاصطياف في لبنان .

ثم القى الاستاذ وديع سليمان قصيدة موفقة ، بينما ألقى الدكتور فؤاد صروف كلمة ادبية رائعة بحث فيها الاجواء العليا التي يحلق اليها الشعر والعلم .

وكان من المفروض ان يلقي نقيب الصحافة الاستاذ عفيف الطيبي كلمةً في هذا المهرجان ، الا ان وجوده في القاهرة عَلَى رأس الوفد الصحفي اللبناني لمناسبة اعياد الثورة جعله يبرق الى لجنة تكريم فرحات معتذراً عن الحضور معرباً عن رأيه في شاعرية فرحات والامثولة القومية التي رسمها فرحات امام الاجيال العربية في كل مكان .

وكذلك كان من المفروض ان يتكلم في الحفلة ايضاً الزميل الدكتور رشدي معلوف ، الا انه ابرق في الساعة الاخيرة معتذراً عن الحضور نظراً لموانع قاهرة حرمته ، كما قال في البرقية ، المشاركةَ في تكريم العبقرية .

واخيراً جاء دور الشاعر العربي الكبير فألقى رائعتين، الاولى نظمها منذ ثلاث سنوات يوم تصوّر في الحلم انه زار لبنان ، والثانية نظمها مؤخراً في لبنان وتدور حول الانطباعات التي شاهدها الشاعر .

ويجدر بالذكر ان قصيدة فرحات جاءت تحمل طاقةً ثورية جديدة يتمثل بها الشباب الثائر المتحرر نظراً للاهداف النبيلة التي تناولتها القصيدة فجاءت حرباً عَلَى اعداء العرب جميعاً .

وبعد انتهاء الاحتفال الذي دام ثلاث ساعات انتقل المدعوون الى تناول المرطبات والحلويات ثملين بالجوّ الادبي العالي الذي ساد الحفلة الكبيرة.



مهرجان كفرشيما

برقية من الاردن

وقد أرسل الاستاذ اكرم زعيتر من نابلس البرقية التالية إلى لجنة التكريم :

« تكريم الشاعر فرحات تكريم الشمائل الانيقة والقومية الشماء والعربية الأنوف والشعر الاصيل ينسكب عطراً و يشرق فجراً .

ان الياس فرحات بكى آلام أمته سحراً و بياناً، وهلل في اعيادها انغاماً واوزاناً، وترك للدنيا القادمة ولاجيالها زهو التاريخ العربي سلافاً وعبيراً، وعنفوان كفاحهم زئيراً وهديراً .

اكرم زعيتر »

اما برقية الاستاذ محمد علي الطاهر فكانت هكذا :

« احييكم واحيي كفرشيما النبيلة منبت النوابغ والافذاذ التي تكرم ابنها البار شاعرها القومي واديبها ومسراجها وعلمها الياس فرحات شاعر العربية الكبير الذي يعد تكريمه تكريماً للخلق الكريم والوطنية الصحيحة .

محمد علي الطاهر »

ووردت برقية من الدكتور يوسف شقرا الامين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق، « يهنئ ويعتذر عن الحضور شخصياً باعمال رسمية قاهرة » .

وإلى القارئ الكريم بعض ما حصلنا عليه من أقوال الخطباء. نأخذه مما امامنا من قصاصات جرائد، قالت (الايام) الدمشقية :

(احتفلت كفرشيما بشاعرها فرحات وحضر الاحتفال خيرة رجال الوجاهة والسياسة والادب، والقيت الخطب والقصائد القيمة. وفي ما يلي خطاب الدكتور سامي دهان عضو المجمع العربي بدمشق، ننشره تقديراً للكاتب وللمحتفى به لاعجابنا بكليهما معاً) :



كلوفيس مقصود   الدكتور جورج حنا   الدكتور سامي الدهان   عبد الله عبود
(في مهرجان كفرشيما)

* * *

ايها السيدات والسادة

حين لقيت الصديق فرحات على شطآن بردى اول مرة سقطت بيننا التقاليد الكلفة فلا هو ذلك الشاعر الفحل المرتقب الذي نثرت له دمشق طاقات الورد في كل حديث وعلى كل وجه وفي كل درب، ولا انا ذلك الزائر الذي يصل من الزحام

في قلق وتردد ، فلما تحولت عنه الى ديوانه رحت اتساءل عن هذا اللقاء والود السريع ، واعجب أشد العجب لنفسي الجريئة الحبيبة معاً ، ولكن نفسي لم تسكت عَلَى اتهامها، فانبرت تبرر ما صنعت من شر، وحدثتني فيما حدثت تقول: الا تعرف الرجل؟ الم تقرأ له؟ الم تسمع به؟ انه هو الذي وقف عَلَى قمة الشعر خلال الاجيال والاقطار يغني من البرناس الى رومه ، ومنها الى الرين الى فرسايل ، وجاز خلال الشرق فطاف قممه العربية ، وسكن بغداد ودمشق ولبنان . انه الفتى الشاعر الغريب نجي الالهام ورفيق الاحلام وصديق الانسانية ، يغني عَلَى الدهور في كل لغة و يتقمص في الناس بأرفع جسد، وهو اليوم قد سكن في جسد صديقك الذي تدعوه الياس فرحات ، وتقول انه من كفرشيما ، فلا تخدع ولا تصدق ما يتخذ من اسم ومن عنوان ومن سكن .

اجل . ان جسمه صنع في هذه القرية الصغيرة لو عرفتها لرأيت في كل جدار منها ظلاً اعبقرية ، وتحت كل شجرةٍ ينبوعاً املم ومعرفة ، سكن فيها اليازجيون وآل تقلا والشميل قبل صديقك وخطوا في سمائها بحياتهم خطوطاً ما تزال مكتوبة من نور ، انهم اثاروا الجن والملائكة ، وانهم كالزوبعة في البحر اخرجوا درره وشقوا اصدافه ، وعاشوا في دنيا العرب قمم العبقرية شوامخ تكلل هاماتهم عمائم الخلود وغار الامجاد .

ومنذ صنع الجسد في كفرشيما ، نزع الله من صدر الفتى كل غلّ وزرع فيه إباءً وطموحاً وعناداً، ولكن الفتى انصرف للهو والعبث في ظاهر الامر، فاذا اقبل عَلَى المدرسة انصرف عنها صغيراً فقد ضاقت به وضاق بها ، ولم يحتمل الصبيان ولم تستمرئ نفسه المعلمين ولم يطمح قلبه الى الشهادات فقد كانت وراء نفسه فكرة عجيبة تغريه برسالة لا يعرفها الناس ، هي رسالة الانبياء وكانت تلوح لعينيه دائماً ورقة كبيرة لا لون لها ولا تواقيع يزينها، كتبت بلغة لا يفهمها الا امثال صديقك، اسمها شهادة الخلود .

كذلك يا صديقي طبع الله قلب فرحات بالزجل اللبناني الحلو، والكلام الجميل . فاذا شب تدفق عليه الشعر قبل ان يعرف العروض، ونسج من دمه وضلوعه ابياتاً

وايماناً تمتم بها في اصائله والاسحار ، وكان عليه لقاء هذا ان يدفع الجزية ، جزية العبقرية كما دفعها اولئك الذين تعرفهم وتقرأ في اعتزاز واكبار ، فقد شقوا وتعسوا وجاعوا وتعروا وجهلهم معاصروهم ، ولكنهم اخيراً فرضوا عَلَى الجيل كله حبهم واحترامهم وخلودهم .

وضاقت القرية في عين الفتى فاحتمله الموج الى شاطئ بعيد ركب اليه مراكب التجار مع باعة السلع وسماسرة الرقيق الابيض، فنزل في قوم عبدوا المال ، وساقوا قطيع الرزق عَلَى الغبار والشوك فقضوا حياتهم كالقطيع ومدية الزمان مسلطة عَلَى الرؤوس ، ولكن فتانا عاش فيهم غريباً ذاهلاً لما يرى كافراً بما يسمع، فقد هاله ان يرى القوم يقدسون الغنى، ولا يجدون الحياة الا في الثياب البراقة والعربات الفاخرة والابنية الشامخة والنساء محليات الصدور ، فتعرى في اللابسين ، ومشى في الراكبين وسكن العش في مدينة السامقات الى السحاب .

وعاش مع زوجه أم خالد كالطير والطير، يغدوان خفافاً ويرجمان ثقالاً بحب يسد الرمق ، و بيوت من الشعر تلون وجه الافق ، وغناء تسكر بـه آلهة الشعر ، فكان في جسمه مع الناس وفي روحه مع هذه الآلهة .

كنَّ يزينَّ له الحياة كما يرضين لحبيبهنَّ ، فيكتسي بالفجر اذ يلتقي بهنَّ في خلواته الروحية يباركنه ويمسحن عَلَى فمه ، ويحملنه حيث تريد روحه في مركبة الدهر الى اجواء السحر والعطر ويحملنه عَلَى بساط الربيع يعلين به السماء ، فيرى الكون من على نملاً يسير ووحشاً يدبَّ ، والضباب يعمي الابصار ، والحقد يسعى الى الصدور ، والجشع يفتك في النفوس ، والتدين يزيف الدين، والرياء يطغى عَلَى القلوب ، فاذا به يغني رباعيات ما سكر العقل قبلها الا بجام الخيام وكأس المعري وجرعات المتنبي عَلَى الفاظ البحتري وعقل ابن الرومي ، (كان بلا عقل يا دكتور سامي ..) يرى الناس كالصنم فيقول :

كم في البرية من حيٍّ تدور به	الغبراء وهو عَلَى الغبراء كالصنمِ
نور الوجود عَلَى عينيه منتشر	ونفسه لم تزل في ظلمة العدمِ

ونظر الى الدول وسخر من سلاحها المزعوم :

ونزع سلاحكم سهلٌ ولكن ... متى نزعت مخالبها السباعُ

وهكذا حماته الآلهة الى كل سهل وجبل، ودولة ومؤتمر، فعرضنَ عليه الناس والملوك والدول وكشفنَ عن بصيرته فرأى ما لا يرى قومه في الغربة والوطن، وجرحن كبرياءه حين حلقن به فوق بلاده العربية فرأى من اخلاقها ما لا يرى غيره . رأى اخلاقاً تكدرت بالمادة وإباءً يبع بالذهب، وشهد استرقاقاً واستعباداً على جسر من الالقاب والمراتب .

طفق الشاعر يغني و يغني والآلهة تطرب لنقده، ومروحه ونكاته وسخريته الجاحظية، فهو حين تجمد وجهه نظر في المرآة فقال :

ارنو الى المرآة آخذ رأيها ... جزعاً واسألها عن الاسباب
وانا انا الصبّ الذي بعرفته ... لم تأخذ الايام غير شبابي ...

واذا سقط شعره عبثت به ابنته الصغيرة (منى) فأجابها :

عبثت منای بصلعتي وتضاحكت ... لما نهضتُ الى التمشط انشطُ
ومضت بلثغتها تقول لامها ... أرأيتِ ماما اقرعاً يتمشطُ ؟
أبنيتي إن الحياة أسلمٌ ... يهنيك انك تصعدين واهبطُ
والدهر يا ولدي يغربل لمتي ... فالبيض تثبت والحوالك تسقطُ

وضحكت آلهة الشعر في السماء ضحكاً . وغنته احداهنَ ما كان ينشده قبل اعوام لتستفزه الى الشباب .

وتجهم وجه الشاعر الحبيب لهذه الذكرى، ذكرى الربيع من ديوانه، وقد كان بعده صيف وخريف فتمتم : اني اخاف الشتاء وارتجف منه !

كذلك يا صديقي اعترف شاعرك بانه ولد منذ الازل منذ القديم، وكلف بالغزل وتتوج بالحكمة، وتغنى بالجمال، وفاض بالوطنية فقد شهد العروش والدول

وتحول من زهرة الى نحلة ومن نحلة الى طير ، وقد بعثه الله اليوم في جسد عربي من كفرشيما بلبنان ، وزفته آلهة الشعر الى هذا القطر بعد طول جفاء و بعثته للعرب بعد جفاف كثير ، ليكون ناياً يغني ، وقيثارةً تنشد ، ورسولاً معجزاً، فلم يدخل الجامعات ولم يقرأ كتب الادب صغيراً ، فكان صفاؤهُ اصيلاً وكانت حياته صورةً لشعره وشعرهُ صورةً لحياته ، عَلَى بيان جميل وسهولة مذهلة ومعانٍ متصلة وتجديد لاعهد للشعر العربي بمثلهِ الاّ في الندرة بعد الندرة ، ولقد عرفت صراحته و بساطته وجرأته وعناده ، وحماسته في حبه واندفاعه في حب بلاده وتضحيته من اجلها وعشقه للعرب، ولعلك يا صديقي نسيت انك رقصتَ في مهرجان الشعر في دمشق حين غنى الآلاف المحتشدة

وطني حبيتك سيداً ومسودا   وحببت اهلك عوسجاً وورودا
ابغي لهم رتب العلى ولو انهم   تخذوا عَلَى جسدي الطريق صعودا
يا للجناية ما نظمت قصيدةً   في حسنه الاّ قتلت حسودا
ولو استطعتُ قتلتُ مال ملوكهِ   بذلاً لأبعث عزّه المفقودا

فكان يضج بالشكوى والانين كلما اصاب الشرق همٌّ ، وكان يتصل باحداثه وحوادثه كأنه يعيش فيه ، حتى كانت له نفسان واحدة تعيش معه واخرى تعيش في وطنه ، مع آلامه وآماله ، فصديقك لم يكن مهاجراً بين المهاجرين ولا يهاجر من يسكن قلبه الوطن وتعيش ارضه في جفونه ، وتضج اذناه بهمسات احبابه واصحابه، ينام عَلَى حلم مزعج الاحداث و يصحو عَلَى امل لاقيا وطنه عظيماً مستقلاً ابياً ماجداً .

وها انت تراه حقق الحلم فأصبح كالطفل يستمع الى حديث قومه فيفرح باللقاء فرح الطفل بعيده ، يمتع اذنيه بحديث عربي اصيل ، فقد كره رطانة المتأمركين وعنجهية المثرين الجاهلين . انه عيده في اهله بكفرشيما، يشهد العرس الذي يقيمه لبنان لامريس المفاخر والامجاد ، فهل تراك توفيه حق شاعريته او تفهم حياته من شعره ، كما يقولون .

ايها السيدات والسادة

وقف ڤاليري مرةً بالسربون يتحدث عن غوته سنة ١٩٢٣ فاذا به يرى ان البحث عن الشاعر من خلال الاوراق والاحاديث والقصائد عبث ، لان الناقد من يعيش معه في عزلته وسموه والمظاهر التي تحيط بالشجرة لا تدل على نكهة الثمرة، فالتربة الخفية تحت الارض هي كل شيء .

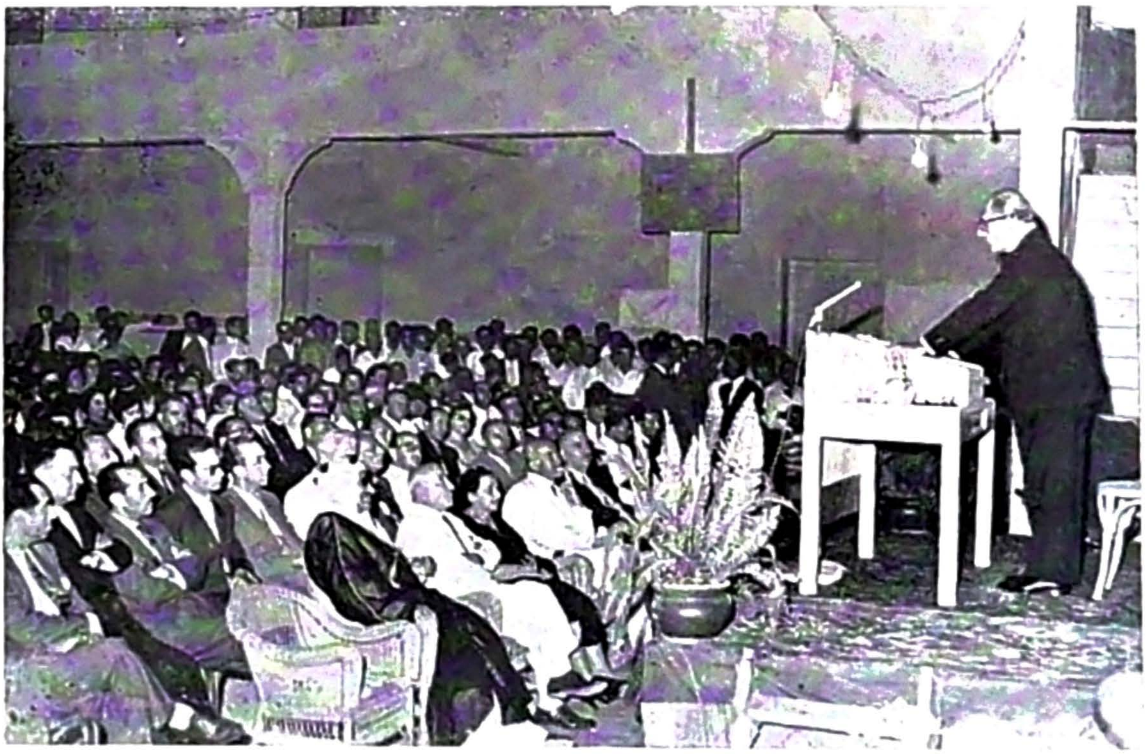
ان الثمرة امامكم ومن ارضكم المباركة ، من لبنان قرة اعين العرب ، ونافذتهم الى الشعر والجمال فلا بدّ ان تكون عظيمة لانها منكم ومن ماء كفرشيما ، فانعموا بأريجها . طال عمر الشاعر مفرداً ، وطابت نفوسكم ابداً وعمتم مساء .

كلمة الدكتور فؤاد صروف

* « فطرة الشاعر هي كالمصفاة الدقيقة تستقطر المعرفة والتجارب »
* « الشاعر يستوعب و يتمثل في قراراته ما يستبد بمعصره من قوى » .

منذ ثلث قرن او اكثر قليلاً ، بعيد رحلتي الاولى الى الشق الشمالي من الاندلس الجديدة ، حيث نعمت بضياء كوكبة من زُهرها ، تباهت اليَّ من شقها الجنوبي ، آيات عبقريات لبنانية عربية شاعرة أصيلة الموهبة ، فكان من بواعث غبطتي الادبية والوطنية جميعاً ، ان تكون المقتطف منبراً لها ، فنزلتْ يومئذٍ عند قرائها في الشرق والغرب ، اكرم منزل ، ولكن حسرةً ظلت تساورني لان الدهر لم يؤاتني على رحلة ثانية الى الجنوب، احظى فيها كما حظيت في الاولى بلقاء اعلام القلم المرهف الذين جعلوا (العصبة الاندلسية) كما كانت الرابطة القلمية ، موجة (من امواج المستقبل) في الادب العربي، و بخاصة في الشعر العربي الحديث، وكرت السنون ، وكأنها تتعمد ان تباعد بيني و بين ما كنت اتوق اليه ، فظللت اكتفي بالبريد على مضض . حتى اتيح لي في بضع السنوات الاخيرة ، ان اجتمع بصيدح وفنصل وشفيق ، ثم برشيد ، وها اننذا اليوم بين يدي فرحات ، امنية قد تحقق بعضها . ربّاه ردّ ذخائرنا الينا .

ترى اي سرٍّ علويٍّ يكمن في تراب هذه الارض، حتى تنبت خلال قرن ونصف قرن من تاريخنا الحديث — كما انبتت خلال دهور متطاولة ترتد الى فجر العقل الانساني — علماً بعد علم من رواد الادب ، تمتد جذور بعضهم هنا ، وتنبث جذور بعضهم هناك ، فاذا هم حيث كانوا بواسق نور وهدى ، او شوامخ



الدكتور فؤاد صروف يخطب في مهرجان كفرشيما

* * *

عزيمة تقدم على الشرود او الجرود، من المعاني والالفاظ فينقاد لها؟ سؤال عسى ان يستوفي الجواب عنه احد المختصين بدراسة تاريخ المعرفة عندنا . بيد انني اريد ان اشير هنا الى ما استبنتهُ دون استقراء ، ايام عملي في النشر والتحرير، من ملامح تكاد تطبع جميع هؤلاء الاعلام ، ولعل صفتها الغالبة، ان المعرفة في اغنى معالمها،

والشعر في اشرف اوصافه واروعها ، قد تلاقيا في كل كبير منهم ، عَلَى تفاوت — تشيل كفة هنا وترجح كفة هناك .

وليس هذا اذا صح بالشيء العجيب فكل رجل منا رجلان ، احدهما يطلب المعرفة ، و ينزع الى استكشاف الحقائق ، و يشغف بتتبع ابناء العباقرة الذين يدرسون الادب او التاريخ او الاجتماع او يستكشفون اسرار الطبيعة و يخضعون قواها لمرام الانسان . فالفهم الذي تسفر عنه المعرفة موقظ شوقه ، والقدرة التي تؤتيها تستحثه ، والراحة التي توفر اسبابها للناس تغريه ، فينطلق اما باحثاً مع الباحثين واما طالباً مع الطلاب الآخذين عنهم المعجبين بهم ، المشوقين الى الفهم او القوة او النعماء .

رجل المعرفة

وثانيهما رجل يطلب المعرفة ايضاً ، ولكنه لا يقنع بها ولا يقف عندها — كأنما هي خاتمة المطاف — بل تراه تستوقفه الزهرة الوادعة في شرم الجدار ، او المتئنة المتنمة عَلَى ذروة كما استوقفت تنيسون او فرحات ، او قد تسترعيه روعة (الفلك المدار) او صورة العامل تحت رفش يؤده ، كما استرعت ابن الشبل البغدادي او ادوين ماركهام ، او قد تأخذه بقايا حضارة عريقة ، او قارورة اغريقية او علبة من الخشب الساذج ، كما اخذت مطران او الاخطل الصغير او معلوف او كيتس او القروي . فلماذا يصنع ؟

كل واحد من هؤلاء الشعراء تخطى حدود المعرفة الحسية او العقلية ، فانتقل بالبصيرة او الخيال او الشوق او الحب ، او بها جميعاً ، الى حالة الخشوع والانبهار ، فهزه السؤال عما فيها ووراءها من المعنى الروحي المنبث في ثنايا الحقيقة البادية ، او سحرته طيوف الجمال او الخير او الحكمة المنطوية في تأمل الزهرة الفواحة ، او الطين الحقير او حيرة جلال المصير الانساني و بطله في دورة الافلاك او الاطلال التي تصارع الزمن — في طريقه الى استكشاف كنه ذاته ، واجتلاء لمحة من وجه الله .

« ان في الانسان من فطرته للثرى شيئاً وشيئاً للثريا »

(فرحات)

ومن هنا كان الرجل الثاني في كلّ هذا ، لا ينفك يبحث عن شاعر او شعر يلبي حاجةً لجوجاً تتوثب في اغوار نفسه ، حتى يجد من يفصح عنها بكلام يثيره الفهم دون ان يطغى عليه التفصيل ، و يجنحه الايقاع ولا تقعده الحقيقة ، فاذا وجده وشداه ، رانت عَلَى النفس نشوة يجد فيها المكدود راحةً ، والحيير طمأنينةً ، والمفكر خشوعاً والمتخاذل عزيمةً عَلَى الإقدام ، واذا الشاعر في قول ابي ماضي :

« باقيةٌ اقواله فكأنها الابدُ »

« الشيخ يلمس في جوانبها صور الهوى والحكمة الولدُ »

وحسبنا من هذا او ذاك ثانية او بعض ثانية ، هي في حياة الروح كعمر الشموس .

الشاعر

وقد يقول قائل ، ان الرجلين لم يجتمعا في بردتي انسان فرد ، عالماً كان او شاعراً ، اما انا فأرى انهما يجتمعان ، وان اختلفت المقادير في البوتقة ، لان الخيال الوثاب ، والتساؤل المحضّ ، والبصيرة النافذة ، والحب الذي يذوب فيه الكيان ، هي هي الخصائص التي تهدي أصحابها الى كشوف المعرفة الاصيلة وروائع الشعر الخالد ، واللحظة التي تستوي فيها للباحث لمحة من حقيقة ، كاللحظة التي ينزاح فيها للشاعر اللثام عن جمال او خير او قوة او حقّ او فهم ، هي لحظة النشوة العليا ، اما نحن الذين نسكن افقاً دون افق هؤلاء ، فحسبنا بعض هذا او ذاك ، اندرك من النشوة في الحالين مقدار ما نستحق .

وقد كان الشعراء الكبار ، في كل عصر من عصور الادب العربي في طليعة اهل الفكر والمعرفة في قومهم ، واذا كانت المعرفة الحديثة ، قد نمت وتشعبت ، وعمقت ، حتى ليعسر عَلَى غير المتخصص ، او حتى عَلَى المتخصص ، ان يملك فرعاً

وحسب من فروعها ، فان الشاعر ، كائناً عصره ما كان ، ليس لزاماً عليه ، ان يستقصي و يفصل و يحلل و يوطئ ويستنتج ، بل هو قادر ، اذا كان شاعراً اصيلاً ، بطبيعته وفطرته ، وربما على غير وعي منه ، ما يستبعد بعصره من قوى تصطرع في نفوس الناس ، وتستأثر بعقولهم ، وان يلمح في الصور المتراكضة المعاني الباقية على الدهر ، واذا هو يغني النفس الانسانية ، حيرتها واطمئنانها ، او يرسم لها روائع الغايات التي تصبو اليها ، وتضحك ، او يدلها على جمال فتنتشي ، او حق فتخشع ، او ذل فتتمرد ، او سخف فتهزأ ، او حرية فتعتزم ان تصونها .

الفطرة

ففطرة الشاعر في هذا المذهب من القول ، هي كالمصفاة الدقيقة ، تتسع لكل ما ينصب فيها ، ولكنها تستقطر من خلالها ، دقائق المعرفة وتجارب الحياة ، وتدعها تتصارع او تأتلف ، ثانيةً او دهراً حتى اذا اتاها الحافز الموحي ، تزاحمت المعاني والصور والانغام من وراء الوعي على طرف اللسان او سن القلم ، فترسل شعراً للشاعر وحده ، ودون غيره من الناس ان يقول : هكذا اردته معنى وشكلاً ، فهذه خمرتي وهذا دني ، فاذا اوقظ فيكم المضمر في ذواتكم او اعرب بلسانكم عن كوامنها ، فهو خمرتكم ودنكم جميعاً ، وحسبي ذلك سعادة في الدنيا وثواباً في الآخرة .

وقد يقول آخر ، ان احد الرجلين في فرحات لم ينل من المعرفة نصيباً يداني نصيب اليازجي والشميل والشدياق وصروف ، من الذين نبتوا من هذا التراب على جانبي (الغدير) وقد يصدق هذا القول اذا ضيقنا الخناق على المعرفة ، ولكن طبيعتها تأبى علينا ان نجور عليها وان نضيق ، حتى لتعجز عن التنفس .

ما اكثر الوان المعرفة التي تتمرد على الوزن والقياس والاحصاء ، ولا تؤخذ الا حدساً ، او بداهةً او ايماناً او تجربة انسانية ، كما اخذها فرحات وغيره من الشعراء ، فقد وهبه ربه فطرةً شاعرةً ، تتشامخ على المعرفة في حدودها الضيقة ، وانعم عليه بنشاط الحياة ، فهو روح الشعر وغذاؤه ، واتاح له ان يغامر وراء البحار كما فعل عوليس ورفاقه في الاساطير ، وضرب بمجذافه — على الاستعارة —

وراء مصابيح النجوم الغريبة ، وتقلب على احوال شتّى من الحياة ، وخالط طبقات مختلفة من الناس ، وقرأ كتاب الطبيعة ويا ما احفله من كتاب ، وعانى المشقة ، وثار على الظلم ، وعاش مع الالم الذي يثقف عود الانسان ، كما تثقف النار القناة ، وحنا على الصغار ، وحنّ الى الوطن ، وعلى ذكر الحبيب ، ولم يكفّ في كل ذلك عن مسألة النفس ، حتى لكأنه اتخذ بين يديه ، من طبيعته الشاعرة ، موشوراً من البلور ، امر فيه من اخلاق الناس وطبائع الحياة واسرار الكون ، شعاعاً بعد شعاع من النور الابيض نخله ، فرأى ما يرى من الوان الطيف وبعض ما لا يرى منها من فوق ومن تحت ، فاذا شعره المستصفى من دواوينه

« مجرّة مجدٍ رصعتها المراقمُ »

فرحات في المتنبي

كلمة الدكتور جميل جبر

حين كانت القومية كفرًا ...

اذا فخرت بعض القرى بما تنتج من معادن وصناعات ففخر كفرشيما انها منجم ادب وادباء ، فكم من عالمٍ انجبته هذه البقعة نخفق عاليًا يبعث في تموجاته قبس الفكر والجمال .

ان لبنان الذي يكرّم اليوم بشخص الشاعر فرحات ، ليس موطنَ سماسرة السياسة ومرتزقة الطائفية وتو يجري الضمائر ، بل هو اللبنان الذي فيه تتنفس الحرية ملء صدرها وتتفاعل الثقافات والحضارات على اختلافها في ارحب الاجواء ، ويشعر الانسان حقا انه يولد ويعيش ويموت انسانا .

فبقدر ما يحس الواحد منا بهذه الرسالة ويجسدها عملاً وتفكيراً يستحق الانتساب الى هذا اللبنان . ولقد كان الياس فرحات رائداً في موكب المستحقين .

يوم انتقل الشاعر من بلاده الى البرازيل بل في طفولة هذا القرن ، هاجر ولم يهجر ، لانه حمل في صميمه روح وطنه وهمّ مواطنيه فاذا الحنين لحمة شعره واذا لبنانه العزيز الحرّ صداه ، فكم من صرخةٍ قوميةٍ ناهشة ارسلها من بعيد لبعيد ، يهيب ببني أمّهِ ان اتحدوا في سبيل استقلالكم وعزتكم ، بل يهيب ببعض المتسيبين المتمرغين عَلَى اعتاب الغريب والمتبجحين اليوم بالوطنية والمجد والكرامة ان اخلعوا عنكم رداء الذل ، فالموتى ليسوا فقط اولئك الراقدين في بطون التراب .

اجل ، نقر فرحات عَلَى وتر القومية الحساس حين كان مثل هذا النقر ضرباً من الكفر ، فجاء عزفه رخيماً شجياً يعكس قلباً يتمزق ونفساً تثور .

ولم يكتف صاحب الرباعيات والفصول بالوتر القومي ، وهو عَلَى سموهِ قلما صحّ مادةً حيةً للشعر ، بل حرّك ايضاً سائر الاوتار التي تأصلت جذورها في اعماق الوجدان البشري من احساس غربة في عالم التراب الى قلق مبهم في الوجود وبعد الوجود ، الى حرقة صدور ولهفة وصال ونشوة انطلاق . لقد وقّع فرحات عَلَى القيثارة الشعرية التي بعثها جبران وصحبه (...) من المهجر فنهج نهجاً اصولياً مضى به من العامي الى الفصيح ، فاذا نتاجه عفويٌّ بسيط يجري مع السليقة لكأنه نفسٌ تتنفس ، وقد تميز بكل ما تميزت به الرومنطيقية من عذوبة معنى وديناميـة تعبير وطبعية شعور ورهافة حسّ ، الاّ ان حظ الابداع عنده شكلاً ومضموناً ، كان احياناً يسيراً .

ولعل ابرز ما في شعر فرحات انه مرآة صافية لذاتية الشاعر المتمردة تكشف عن ابعد اغواره عَلَى غير تعمد ، فاذا كل قصيدةٍ صفحة من سيرته واذا كل بيت زفرة حارة من زفرات نفسه الابية المتمردة .

اقول لنفسي كلما عضها الأسى	فآلمها صبراً ففي الصبر مكسبُ
لئن كان صعباً حملك الهمَّ والاذى	فحملك مَنَّ الناس لا شك أصعبُ
فلولا اباءٌ مازج الطبع لم يكن	لمثلي مجيءٌ في البراري ومذهبُ

اذ نكرم اليوم هذا العصامي الذي فرض عَلَى الايام ذاتــه متحدّياً عراقيــل الزمان وشنشنة الحساد ، وغرور الاغبياء ، لا بد ان نقول كلمةً في الشعر المهجري الذي يتنطح البعض لتحطيمه عَلَى غير هوادة — لا بد ان نقول ان هـذا الشعر كان في الاميركتين نقطة انطلاق النهضة الادبية الحديثــة ، وان من العقوق ان نغمط الآن فضله بعد ان تجاوز الشعر مرحلة الرومنطيقية الناهدة الى الرمزيــة اذ لولا هذه المرحلة التمهيدية لما كان لنــا النتاج الشعري الرفيع الذي عرفنــاه من بعد . (١)

ولئن كان من العقوق غمط فضل المهجريين فمن العقوق ايضاً التوقف عندما وصلوا اليه . فخير خدمة نؤديها للشعر المهجري هي ان نتخطى عطاءهم صعداً ، فالبررة من الابناء هم اولئك الذين يضيفون ولو مدماكاً عَلَى ما انشأه الآباء والجدود .

من هذه الزاوية ، ومنها وحدها ، يجدر بنا ان نقيّم شعر فرحات والمهجريين عموماً لندرك الاثر البعيد الذي كان له ولهم في ما انتهى اليه شعرنا المعاصر وهكذا تبدو لنا الصفحة التي كتبها فرحات في تاريخنا الادبي مشرقــة الخطوط جياشة الحياة . (٢)

---

(١) يفهم من هذا ان الخطيب الكريم من دعاة الرمزية والسريالية واله ... (عميانية) وهذا ما يسميه (الشعر الرفيع !)

(٢) نحن نخالف الدكتور جميل جبر في تقديره هذا ، نخالفه ولا نقبل ابداً ان ينسب هذا الشعر الكسيح الذي يسميه الشعر المعاصر و يزعم انه قمة في الشعر، لا نقبل ان يقال ان هذا الولد المزيل الكسيح ابن للجبار المهجري الذي نشأ كما ينشأ السنديان في لبنان لا كما تنشأ الازاهير في الأَصُص !

فرحات

كلمة الاستاذ جورج الرجي

فرحات والتحرر

وكيف يمكن تحليل ما هو قائم بين فرحات والتحرر قبل تفهم المقومات الايجابية التي جمعت بينهما، فوحدتهما في الطريق المبدع الباقي؟ .. هذا المتحرر شاعر لمجرد كونه متحرراً، وكبير في الشعر ايضاً لمجرد كونه قد مارس تحرره منذ النشأة الاولى، فأعطى وافاض في العطاء بدون ان يحيد طوال الحكاية الخلاقة عن الاسس السليمة التي تركزت عليها شخصيته الشعرية، في مختلف الانواع والابواب التي اليها تطرق ومال .

في هذه البلدة بالذات حيث تنشق فرحات عصر الصبا، واكتحلت عيناه بانغام اللون والصوت، بدأ يطل على الدنى من ارحب الزوايا .

اصداء للادب وللحرية تغلغل في كيانه ماسحة روحه، ثم منطرح اخضر من ارحب الزوايا نفسها، يتلمس فرحات مسقط رأسه، ومرمى فتوته، فيدنى من طبيعة كفرشيما ... كفرشيما التي هي ارجوحة تتمايل في المدى، وتتمايل لعين ابنها فرحات من عينها، صور تسم البحر ... وتضم الصحراء ... الصحراء اليانعة !

واذا ادارت الارجوحة عينها الى خلف تراكمت في العين تلال وصنوبرات ... ومصابيح بيض معلقة، فيحمل فرحات هذه الكنوز في بؤبؤ العين ...

ثم اذا استقرت الارجوحة وانحنت على نفسها في هدوء حنون.. تفجرت من داخلها سخية وهابة، فينطلق فرحات ليوزع شعره ... ويوزع من شعره عواطف الحياة وعبرها، آلامها، وسلاحها ضد الآلام ...

وليست دواوين فرحات الخمسة، وديوانه السادس الآخذ في التكوُّن، الا تجسيدات للمبدأ الشعري — النفسي — الفكري، الذي لازمه منذ البدء . وكان

تحرره الشامل فيها، بياناً عن فلسفة الوجود الشعري، من حيث القدرة على الخروج بطاقته الشعرية من عالم العواطف الداخلية، الى معالجة الحياة الخارجية، بنفس الحركة الثورية التي تكون عليها العواطف في الامكان والاحتمال ... اي ان الغزل الذي بثه فرحات الى من يحب كان غزلاً ربيئاً صافياً.

وكانت الحكم والانتقادات الخلقية والاجتماعية التي تضمنتها مرشدة وموجهة.

وكانت الانتفاضات القومية في شعره، بالتالي، حرباً على كل ظلم وفساد واستعباد، ودعوة الى النهوض والاتساع والقوة ..

لقد عرف الياس فرحات وطنه! وعرف ابعد اقاصي العالم ابتداء من وطنه، فابى الا ان يكون لبنان، في تحقيقه لاماني بنيه، في امتداده العربي الواسع، وفي انتشاره العالمي الاشمل، رمزاً للتحرر الثوري الذي لا يتأخر عن هدم اي شيء في سبيل ثورته، وحسبه بعد كل شيء ان يظل اميناً لثورته واميناً عليها.

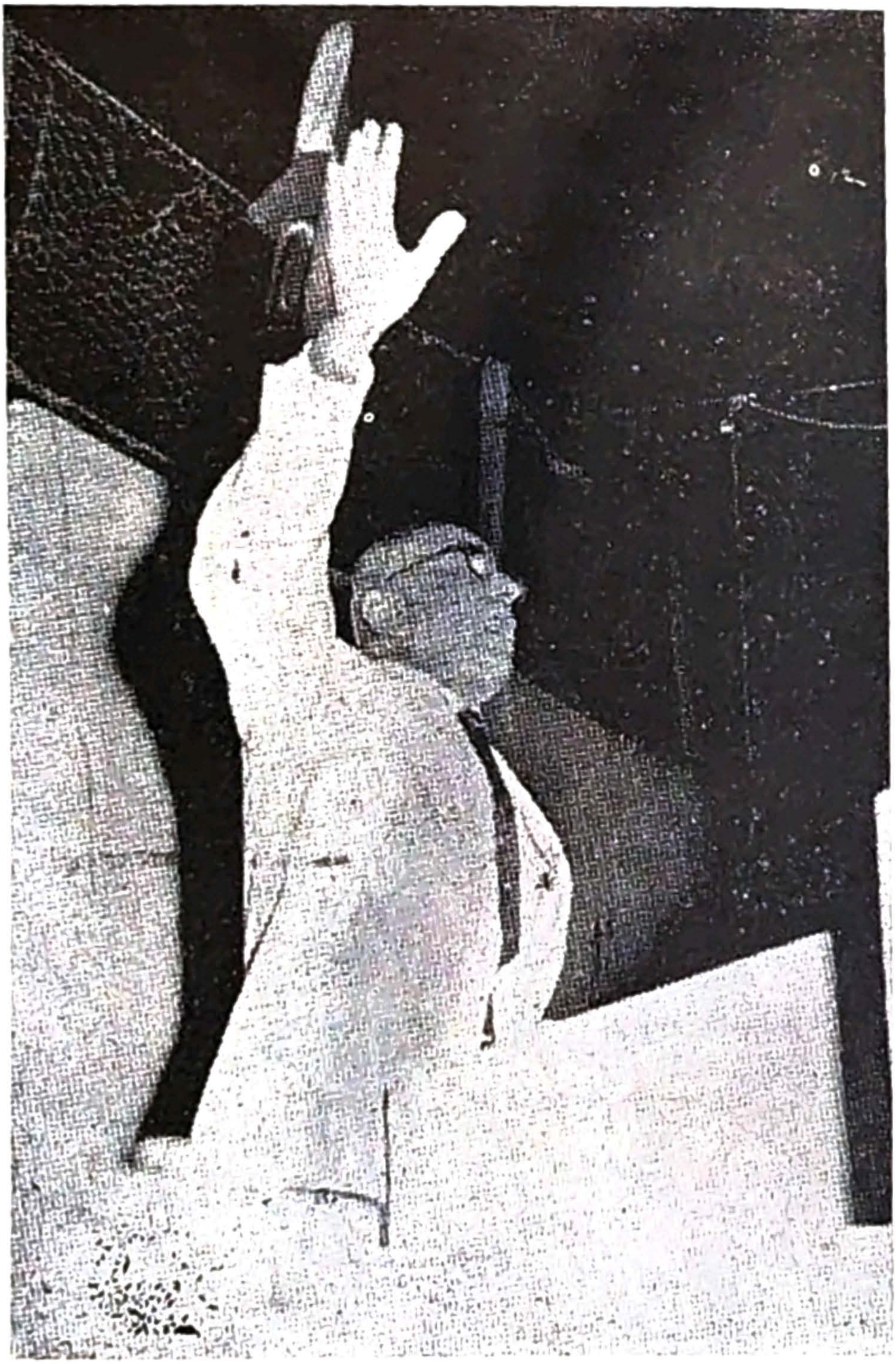
ان قضية الياس فرحات ليست في انه شاعر، ولا في انه من كفرشيما ... لا في هذه ولا في تلك وحدها.

وانما هي في كونه يجسد التحرير، في مرحلة تاريخية بارزة، من تطور الشعر العربي.

مرحلة تحمل من الخلود صفة العظمة ... ومن الاحرار امانيهم العميقة نحو الخلود.

واخيراً قصيدة الناظم وعنوانها (لبنان):

سلبت لي الاقدار بعد حران — وأعاضني مما فقدتُ زماني
هذي ملاعب صبوتي ارتادها — متنصتاً فيها لهمس جناني
في كل منعطفٍ حديث حداثةٍ — متسلسلٌ منه معين معانِ
اشباح ماضيَّ البعيد قريبةٌ — مني تقابلني بكل مكانِ



في حفلة كفرشيما

وتضجّ فيّ الذكريات مزيلةً ... ما كان في الهجران من نسيانِ
لبنان يا نفس الخزام ضحىً ويا ... قبل الندى للنرجس الظمآنِ
عاد ابنك النائي اليك وقلبه ... يروي حديث الشوق بالخفقانِ
عينان تائهتان باحثتان في ... دنياك عن رفقائه الفتيانِ
يمشي ببطيء الخطو وهو محدقٌ ... للناس والاشياء كالحيرانِ
متلفتٌ متسائلٌ عن صحبه ... وبصحبه لعبت يد الحدثانِ
أين الصبايا الحالمات، ولم يكن ... وضح الغرام لهن، بالصبيانِ ؟
أين الذين تركتهم عند النوى ... في السفح بين الكرم والبستانِ
أين الرفاق المشرقات وجوههم ... بسلامة الارواح والابدانِ
ذهبت بهم هذا إلى لا رجعةٍ ... ترجى وذاك لرجعة بهوانِ
عاش المهاجر في المهاجر شاكياً ... بل حاسداً من مات في لبنانِ
باع الشقيُّ شبابه بنقودها ... بيع المغامر حنطةً بزوانِ
لو عاد بالدنيا العريضة بعدما ... فقد الفتوةَ عاد بالحرمانِ
ان الفتوّة في الحياة حديقةٌ ... مخضلةٌ في مهمهٍ حرانِ
ان الشيوخ المبعدين عن الهوى ... والموميات لدى الهوى سيانِ !
ان لم تجد فيك الحسان بقيةً ... من روعةٍ لم يجدك الثقلانِ
فانظر لقدرك عندهن فأنت من ... نظراتهنّ اليك في ميزان
وتلقَّ مبرم حكمهن بحكمةٍ ... وتقبل التنفيذ باطمئنانِ !

* * *

لبنان يا وطن الجمال تحيةً ... تفشى ربوعك في شذا نيسان

يا مهد أحلام الشباب ومصدر ... الحبّ البريء وهيكل الايمانِ
اني اراك فتىً أشدّ فتوةً ... من عهدك الماضي فكيف تراني ؟
سلبتني الايام برد فتوّتي ... وحبتكه ، اني بذاك هاني
والدهر اعطاني السلام فليتني ... استطيع أن اعطيك ما اعطاني !
وطني اريدك مطمئناً آمناً ... متمتعاً بمحبة الاخوانِ
لا جاحداً فضل الاخوة شاحذاً ... للمعتدين صوارم العدوانِ
ما هذه الأصوات اسمعها هنا ... وهناك وهي الوقر في الآذانِ
من كان يحسب ان في لبنان من ... يتقبل الصفعات بالشكرانِ
او ليس خلق المسخ أعظم صفعةٍ ... للحقّ مال لوقعها الهرمانِ
أنعدّ بالازهار ايدينا إلى ... شنآن مدّ يديه بالثعبانِ ؟!
ألقاه في أحضاننا وأمدّهُ ... بالسمّ والنابين والروغانِ
ان الألى قتل اليهود وشرّدوا ... بسلاح فتاكٍ وسمي جبانِ
ان لم يكونوا أهلنا أفما همو ... جيراننا ؟ أنسيء بالجيرانِ ؟!
ان لم نكن عرباً يميل بنا الهوى ... معهم ، ألسنا من بني الانسانِ ؟!
ان لم يكن لبنان في الشام التي ... غدروا بها أيكون في اليابانِ ؟!
فرسان يعرب في السباق أيكتفي ... لبنان في التصفيق للفرسانِ
أفلا نشاركهم بنظم قصيدةٍ ... حملت شعار المجد في العنوانِ ؟
أبيات ملحمة العروبة صورةٌ ... للشعب لا لحماقة التيجانِ
أنتيجة الاشعاع يا وطني عمىً ... يقضي على الاشكال والالوانِ
وعلى العقول فلا تميّز محسناً ... نصر العروبة من مسيء جانِ ؟

ليس السكوت فضيلةً ، أفضيلةٌ والاصّ والمسلوب يصطرعانِ ؟!
من شدَّ ازر اللصّ كان شريكه فأميركا وربيبها صنوانِ
غنّى (ابن غريونِ) ورجع صوته مترنحاً اعزوفة (ترومانِ)
وتراقصا فذكرت عهد طفولتي متفرجا بالدبّ والسعدانِ
رقصا لنكبة يعرب بهما وما حسبا حساب تبدل الازمانِ
لا تخدعنّ الاقوياءَ نفوسهم تذرى الجبال بنفحة البركانِ
والدهر يملأ قدره ويصبها كالساحر المحتال في فنجانِ
يقوى على أقوى السلاح رجاؤنا وإباؤنا يطغى على الطغيانِ
سيكون حظ السالبين حقوقنا منا كحظ الفرس والرومانِ
في القادسية من صوارمنا دمٌ يجري إلى اليرموك أحمر قاني
في الموقفين تمددت راياتنا منصورةً فتقاص الشبانِ

* * *

والانكليز ؟! اعيذ كلّ مسالمٍ من شرّ طائفةٍ من الغيلانِ
زرعوا الشرور فكل شرٍّ نابتٍ يتعهدون اصوله بجنانِ
فاذا نمت أغصانه وتفرعت نسبوا جريمتهم إلى الشيطانِ
شمّوا تراب عُمان فاكتشفوا به سرّ الغنى فتشبثوا بعمانِ
وتذكر اللوردات ان جدودهم بالامس ما كانوا سوى قرصانِ
فرمَوا بيوت الآمنين بنارهم متذرعين بخدمة السلطانِ
هذي طبيعتهم فكيف نلومهم ما للذئاب طبائع الحملانِ

* * *

اما فرنسةَ ، ما ذكرتُ فرنسةً … الآ ذكرت البطش في الميدانِ
لطف النعاج اذا احترزت من الاذى … فاذا غفلت فوثبة الذؤبانِ
في الشام من تقطيعها اثرٌ وفي … افريقيا من غدرها اثرانِ
واليوم تحتضن اليهود نكايةً … ومصيرها معهم إلى النيرانِ
فلقد حفرنا في الجزائر قبرها … مبقين اسرائيل للحيتانِ !

* * *

أرأيتَ يا وطني حماة حقوقنا … ثالوث شرٍ دائم الفورانِ
أرَأيت من حلفاؤنا ? أفما ترى … أنّا بهم في الوحل للاذقانِ ?
غمرت شرورهم القرى والبيد في … دنيا العروبة فهي كالطوفانِ
لم ينجُ قطرٌ من لهيب سياطهم … الآ الذي قد لان للارسانِ
لما استقلت مصرُ صاح كبيرهم : … لن نستقلَّ ونحن في الميدانِ !
أيفيض نيل الآبقين ونحن لم … نصدر اليه الامر بالفيضانِ …
وتكتلوا وتآمروا وتنمروا … وهوَوا كمطرقةٍ على سندانِ
وقموا على ما لم يكن في بالهم … ورأوا قوًى ما كنَّ في الحسبانِ
صرخات يعرب خلفهم وامامهم … ومكان سيل النفط غيم دخان
فارتدَّ اسطول الغزاة وجيشهم … عن بورسعيد مضعضع الاركانِ
عادوا بامجاد الهزيمة خلفهم … (جنبار) نائمةٌ على المرجانِ
والثعلب الجبار عاد ورأسه … والذيل تحت البطن يلتقيانِ
فتظاهرت امُّ الدولار بشجبهم … ما اشبه الكذاب بالعريانِ !

* * *

وطني المفدى طال عهد فراقنا ... ليت اللقاء يطول كالهجرانِ
أنا ما اتيتك واعظاً بل شاعراً ... متغزلاً بجمالك الفتانِ
لكنني وانا الغيور اثارني ... قولٌ يثير كوامن الاشجانِ :
لبنان متهم بصدق ولائه ... متسترٌ باللف والدورانِ
ولنحن نأبى أن نرى لك راشقاً ... الاّ بماء الورد والريحانِ
إنّا نريدك قبةً في هيكلٍ ... متشامخٍ متماسك الاركانِ
حتى يكون لنا ونحن اعزةٌ ... وطنٌ نتيه به على الاوطانِ .

* * *

في الثاني من شهر آب دعا الاستاذ البرت ريحاني والسيدة الفاضلة المهذبة قرينته إلى حفلة عشاء وسمر في منزلهما (بالفريكة) المشرف على الوادي الرائع ، (وادي الفريكة) المشهور ، احتفالاً بالشعراء المهجريين الثلاثة ، الذين كانوا يومئذٍ في لبنان ، وهم نعمه الحاج من الولايات المتحدة الاميركية ، ورشيد سليم الخوري ، والياس فرحات من البرازيل . فاجتمع ليلتئذٍ كثير من الاسر اللبنانية ، ومن الادباء والشعراء ، إلا ان القروي لم يحضر لسبب صحي ، ولقد جرى الاحتفال ليلًا في الهواء الطلق ، وتكلم فيه كثيرٌ من الادباء ، بينهم العلامة الشيخ عبد الله العلايلي والاستاذ وديع ديب وألقى الشاعر نعمه الحاج شيئاً من شعره وفعلت أنا فعله ، ولقد كانت السهرة في منتهى الانس واللطف ولم ينصرف الناس إلى بيوتهم إلا بعد منتصف الليل .

ويوم الثلثاء الواقع في الخامس والعشرين من شهر آب دعا الشاعر الصحافي الاستاذ جورج الرجي صاحب جريـدة (الراصد) جمهوراً كبيراً من أهل الوجاهة والادب، الصحافيين والسياسيين، إلى حفلة استقبال وتعارف على شرف (الشاعر المهجري..) تقام في مكاتب الراصد، فلبى دعوته جمهور غفير. اذكر منهم الاستاذ واصف البارودي، والاستاذ يوسف غصوب، ومدير الشرطة المقدم عزيز الأحدب. ولقد كانت حفلة بسيطة انيسة تناولنا فيهـا مختلف الاحاديث عن الشعر والادب والسياسة.

قضينا الصيف متنقلين في لبنان بين بيروت وضهور الشوير وكفرشيما، وقد اغتنم ابن أخي الدكتور اميل فرحات فرصة وجودي في لبنـان، وكان يريد السفر من البرازيل إلى نيويورك، فمر هو وزوجته، على لبنان حيث تعرف فيه على الاهل والانسباء، وزرنا واياهما مغارة جعيتا التي أفرغت فيها الطبيعة كل فنها فجاءت آية الآيات ومعجزة المعجزات، وزرنا جبيل والارز وبشري، ووقفنا عند وادي قاديشا تعقد الدهشة ألسنتنا. ورحنا نطوف بالسيارة من مكان جميل إلى مكان أجمل. وقد خرجنا في صباح أحد الايام من ضهور الشوير إلى (المروج) فالى (المتين) فالى (بزبدين) (فقرنايل) (ففالوغا) (فحمانا) (فصوفر) (فبحمدون) (فعاليه) (فبيروت) (فبيت مري) (فبرمانا) (فضهور الشوير)... سياحة لم تستغرق سوى ساعات رأينا فيها من جمال الطبيعة ما يملأ جعبة الشاعر مدى العمر.

وخرجنا في أحد الايام إلى دمشق فزرنا شوارعها وازقتها وبعض الاماكن الاثرية فيها كالمسجد الاموي وبتنا ليلتئذٍ في المدينة وعند عصر اليوم الثاني ذهبنا بالسيارة كذلك إلى بعلبك، وكانت ادارة مهرجانات بعلبك قد تفضلت عليّ بخمسة جوازات لحضور المهرجان الاخير وهو الخاص بالفلكلور اللبناني. وقد بتنا في فندق المدينة ونهضنا صباحاً لنرى القلعة العجيبة المدهشة التي تجمع بين الضخامة والدقة جمعاً يحير الالباب ويسكر الارواح ا.

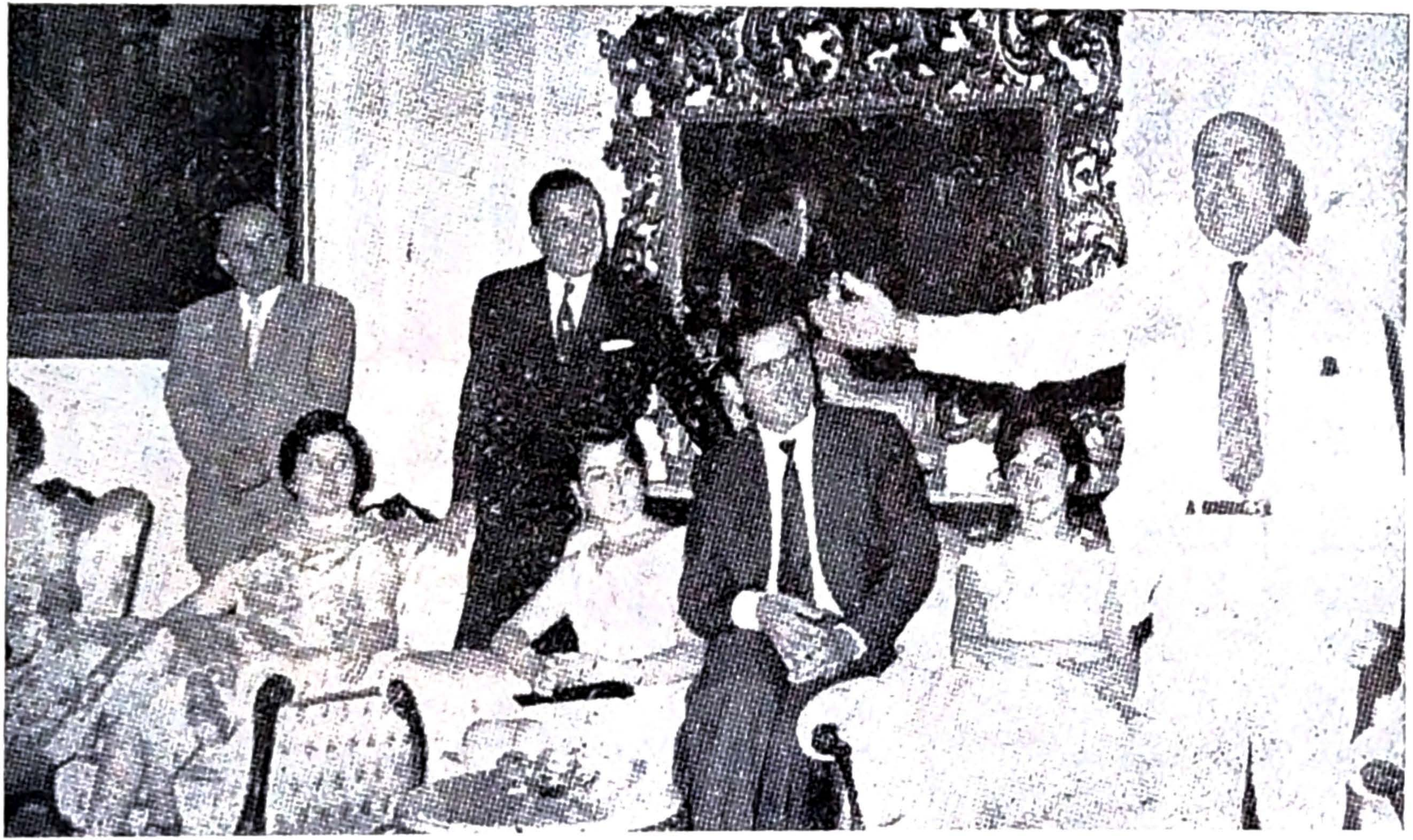
لم تطل اقامة ابن الاخ وزوجته في لبنان سوى اسبوعين، ودعانا في آخرهما وطارا إلى الولايات المتحدة.

في إحدى امسيات هذا الصيف ذهبنا بدعوة الصديق الدكتور حسين سري الدين واسرته الكريمة إلى زحله حيث تناولنا طعام العشاء في أحد مطاعم وادي العرايش الساحر، وازعجني ان القوم قد (فرنجوا) هذا الوادي الذي كنت أعرفه في فجر شبابي وكنت اقفز فوق مائه الصاخب، من صخر إلى صخر، قلت (فرنجوه) وانا اعني ما اقول فالماء اليوم في الوادي يسيل في قساطل مستورة لا يراه الرائي إلا في نوافير المطاعم...

وفي امسية اخرى ذهبنا بدعوة صهر الدكتور حسين السيد عادل مكارم وقرينته السيدة سعاد إلى نبع الصفا فتمشينا هناك. وسرني ان نبع الصفا لا يزال يتمتع بشكله الطبيعي الذي عرفته قديماً. وفي اواسط الليل ودعنا تلك الجنة الضائعة في جوار (عين زحلتا..) عائدين إلى

قرن الايل (قرنايل !) حيث نزلنا ضيوفاً على الدكتور حسين ، ومن قرنايل ذهبنا إلى راس المتن فزرنا السيد عادل مكارم وعقيلته في منزلهما .

وكنت في أول هذا الصيف قد تعرفت إلى سمو الامير عبد الله الجابر الصباح فزرته في قصره في (ضهور العباديه) وذهب هو إلى كفرشيما وحضر المهرجان وسمع قصيدتي ، والظاهر انها أعجبته لانه طلب مني أن انشدها في قصره أمام جمهور كبير من الزوار والمدعوين ففعلت ، وقد أهدى إليّ سموُّه قاموس (لسان العرب) المشهور مطبوعًا طبعةً جديدة ومجلدًا تجليدًا فاخرًا ، وقد طبع عليه بالذهب اسم الامير واسمي ، وهذا القاموس يتألف من خمسة عشر مجلدًا ضخماً ، وهو من امهات الكتب العربية . فرأيت حراماً أن احمله إلى البرازيل ، وأنا شيخ و (ما بقي من العمر أقل بكثير مما مضى !) في البلدة التي اسكنها ليس من يهتم بالقواميس وفي بيتي أنا العربي الوحيد ... وعليه فقد رأيت أن اهدي هذا القاموس الفخم الثمين إلى نادي الادب والرياضة بكفرشيما ، وهو النادي الذي دعا إلى تكريمي بتلك الحفلة الرائعة ، وهكذا يظل القاموس في لبنان ، وفي بلدتي ، وبدلاً من أن انتفع به أنا سنين قليلة ... ثم اتركه تحت رحمة من لا يعرف ما هو ولماذا هو كبير هكذا ... وعندما صح عزمي هذا كتبت إلى سموّ الامير رسالةً اطلعه على رأيي واظهر له وجهة نظري وارجو أن يقرني عليها ، فما عتم ان جاء جواب الامير محققاً لرغبتي . ولما ذهبت اتوديع



في قصر الامير عبد الله الجابر الصباح

الامير قبيل سفري إلى القاهرة فالى البرازيل تفضل بان أهدى إلي ساعة يد ذهبية فاخرة (ذكرى صداقة ووفاء) .

زارني في بيروت بعض الادباء وبعض السياسيين ، وحجة الذين لم يزوروني اني لا أستقر في مكان فانا أبدًا في سفر أو على سفر…

من الذين زاروني رئيس المجلس النيابي الاستاذ عادل عسيران والاستاذ زهير عسيران ، والاستاذ علي بزي . ولقد رددت الزيارة للاستاذ عادل في منزله بضهور الشوير إذ زرته غير مرة ، وزرته مرةً في المجلس النيابي في بيروت ومرةً في صيدا معزيًا عن والدته ، ورددت زيارة الاستاذ علي بزي بعد ان صار وزيرًا للانباء ، وكنت ازور الاستاذ زهيرًا في مكتب جريدة (الهدف) .

وزارني الزعيم الاستاذ كمال جنبلاط فرددتُ له الزيارة في قصر المختارة ، مارًا بدير القمر وبيت الدين ذهابًا وبجزين وصيدا ايابًا ، وقد قضينا معظم يومنا ذاك في ضيافة الزعيم ، وكان ان تطوع الصديق الكريم السيد فؤاد الهبر فاخذنا بسيارته وبقي معنا يومًا كاملًا . ورددت زيارة الاستاذ عارف النكدي في منزله في عبيه والاستاذ الشيخ أحمد عارف الزين بصيدا .

وكنت عقب وصولي إلى لبنان زرت فخامة رئيس الجمهورية اللواء فؤاد شهاب . ثم زرت فخامة الرئيس الاسبق الشيخ بشاره الخوري ، وبروق لي أن اروي نكتة للشيخ بشاره ارتجلها ونحن معه في الحديث ، وهي انه كان عنده أحد الزوار وقد فهمت من حديث هذا الزائر ان

له أخا اسمه سليم، وكنت أعلم ان للشيخ أخا اسمه سليم ويلقبونه (بالسلطان) وأنا كان لي أخ اسمه سليم، فقال الشيخ بشاره فورًا: صحيح! ولكن ليس في اخوانكم سلاطين... فضحكنا وكان هو أقوانا ضحكةً.

وزرت رئيس الوزراء الاستاذ رشيد كرامي في مكتبه.

في السابع من ايلول اشتركت في حفلة استقلال البرازيل في السفارة البرازيلية في بيروت، وقد لقيت هناك الصديق الاستاذ موسى كريم، وفي اليوم التالي دعاني موسى وزوجتي إلى الغداء معه فلبينا الدعوة شاكرين، ولما افترقنا افترقنا مودعين، إذ سافر الصديق موسى إلى البرازيل وسافرت أنا وزوجتي إلى دمشق، فيبرود فالسويداء.

قبل أن التقي الاستاذ موسى في بيروت كنت قد لقيته في أواخر تموز في يبرود وذلك اني كنت قد تلقيت برقية من دمشق، تقول:

يسرني أن اعلمكم ان اللجنة العامة لمؤتمر المغتربين رحبت باقتراح سفارة الجمهورية العربية المتحدة في الريو دي جانيرو لانضمامكم إلى وفد جمهورية البرازيل إلى مؤتمر المغتربين العرب الذي سيبدأ في الثاني من شهر آب القادم، نامل حضوركم إلى دمشق، مع وافر التحيات

رياض المالكي.

كان في تلك الايام الاستاذ رياض المالكي وزيرًا للثقافة والارشاد القومي، فما ان تسلمت برقيته حتى تركت زوجتي عند أهلي في ضهور

الشوير ، وسافرت إلى دمشق ، فعرفت ساعة وصولي اليها ان الصديق موسى كريم في يبرود. فاتصلت به فوراً بالهاتف ، فما كان منه إلاّ ان إرسل أخاه الاستاذ عفيف إلى دمشق بسيارة حملتنا معاً إلى يبرود.

نزلت في يبرود ضيفاً على الاستاذ عفيف كريم ، ولقد فرحت بلقاء موسى الذي كنت تركته في البرازيل فاذا بي القاه في سوريا.

بعد ان ارتحنا قليلاً في المنزل قدم الينا وفد من وجهاء يبرود مؤلف من أعضاء (مستشفى يبرود) الذي بني بهمة وتضحية الصديق موسى ، في أجمل مكان قرب البلدة. وبعد السلام توجهنا جميعاً إلى المستشفى ، ويقضي الانصاف أن اقول ان مستشفى يبرود سيبقى شاهداً على اريحية ونخوة أبناء يبرود في البرازيل ، وفي مقدمتهم الاستاذ



في يبرود

موسى كريم الذي سعى وبذل وانفق من قلبه وجيبه ليشيد لأبناء منطقة القلمون مستشفىً وخماً هو الوحيد في كل المنطقة.

بت في يبرود ليلةً واحدة عدتُ بعدها إلى دمشق للاشتراك في الاحتفالات التي اقيمت فيها للمغتربين. وكنت قد وعدتُ الاستاذ عفيف كريم والسيدة الراقية (ام رياض) عقيلته، بالعودة إلى زيارتهما مع زوجتي، وقد وفيت بما وعدتُ، إذ ما كدت اصل إلى دمشق في التاسع من ايلول ومعي جوليا حتى اتصلت بعفيف بالهاتف قائلاً له اني وزوجتي على استعداد لزيارته، فجاء الاستاذ عفيف فوراً إلى دمشق وعاد بنا إلى يبرود، حيث نعمنا بضيافة هذا البيت الكريم مدّة اسبوع كامل، لقينا فيه من لطف صاحبي البيت واطفالهما الاذكياء (الحلوين) كلّ رعاية وانس.



في يبرود

أقام لنا ادباء بيروت حفلة شاي أنيقة في حديقة الفندق الكبير ، حضرها جمهورٌ من كرام البلدة ، من الجنسين ، وقد تكلم في تلك الحفلة صديقنا الدكتور أنيس دهبر ، وصديقنا الآخر الاستاذ عبد السلام حيدر ، وغيرهما من الادباء الذين اشتركوا في الحفلة .

واخيراً ودعنا صاحبي البيت الكريم (الذي لا يتفق كرمه مع التصغير اللاحق بالاسم « كُرَيم ») وأولادهما وعدنا إلى دمشق لنسوح في محافظة السويداء .

جبل حوران ، جبل الدروز ، جبل العرب ... أسماء ثلاثة لمحافظة السويداء الحالية ، الاول هو الاسم الطبيعي الذي كنا نعرفه في حداثتنا ، والثاني هو الاسم الذي أطلقته عليه فرنسا لتصبغه بصبغة الطائفية ... والثالث هو الاسم الذي أطلقه سكان الجبل انفسهم - نكايةً بفرنسا وتدليلاً على عروبتهم - أما محافظة السويداء ، فهو الاسم الرسمي الذي أطلقته حكومة الجمهورية السورية على الجبل قبل الوحدة ولا تزال بعد الوحدة كما كان قبلها !

منذ الثورة السورية الكبرى ، التي شبَّ لهيبها سنة ١٩٢٥ بقيادة زعيم الجبل الاكبر سلطان الاطرش والتي امتدت إلى سائر انحاء سوريا ، والتي كبدت الحكومة الافرنسية الوفاً من الارواح وملايين من الفرنكات ، منذ هذه الثورة وانا احنّ إلى زيارة اسود بني معروف في عرينهم ، فلما لبيت دعوة الجمهورية العربية المتحدة ، كانت زيارة هؤلاء الاسود في منطقتهم في رأس لائحة الزيارات التي أرغب في القيام بها ، ولكنَّ ظروفاً لا يدَ لي فيها ، جعلتني ازور أولا محافظة

اللاذقية، ثم جعلتني اقضي قسماً كبيراً من الصيف جائلاً في لبنان، ثم عدت في اوائل ايلول إلى دمشق وأنا مصمم على زيارة السويداء وحلب وتدمر، وكنت قد اتفقت مع الاخ الكريم الاستاذ نجيب حرب على السفر إلى السويداء معاً.

في الساعة السادسة من مساء السبت الواقع في السادس والعشرين من ايلول امتطينا سيارةً حملتنا إلى عاصمة الجبل الابي. وكنا الاستاذ نجيب حرب وزوجته والرفيق الرسمي الاستاذ عبد الله عبود وزوجتي وأنا.

تركنا دمشق متجهين جنوباً. فاخترقنا (حارة الميدان) واجترنا (القدم) مارين ببنايات حديثة ضخمة، ترتفع من احداها ثلاث مداخن عالية، فقال لي الرفاق: هذا معمل الزجاج المشهور، ثم وصلنا إلى (الكسوة) وهي قرية في الطريق الممتد بين دمشق وحوران، وراحت السيارة تنهب هذا الطريق المزفت المستقيم الذي لا يكاد ينحرف شيئاً لا إلى اليمين ولا إلى اليسار. وأخذت الشمس، ونحن في تلك السهول التي لا يدرك الطرف لها آخراً، تلملم ما كان باقياً من أشعتها الصفراء فوق الارض. مررنا بقرية اسمها (الغباغب) وبأخرى اسمها (الصنمين) وبعد ان سرنا أكثر من ساعة وصلنا إلى بلدة (الشيخ مسكين) في حوران، من هذه البلدة عطفنا إلى اليسار تاركين الطريق الذي كنا فيه والذاهب إلى حوران فالاردن إلى يميننا، وأطبق الظلام فلم نكن نرى من الطريق وجانبيه الا ما يسمح به مصباحا السيارة.

المسافة بين دمشق والسويداء مائة وثلاثون كيلو متراً قطعتها السيارة بساعتين .

قبل وصولنا الى السويداء قال لي الرفيق الاستاذ نجيب حرب : نحن في أرض المزرعة ، يا فرحات ! ولو اني سمعت هذا الاسم وأنا في غير هذا المكان لما كان له أي معنى عندي ، ففي بيروت مزرعة وفي دمشق مزرعة ، وفي كل مكان مزارع .. ولكن نحن في جبل العرب ، وعلى مقربة من السويداء . فقول النجيب الاديب « نحن في أرض المزرعة يا فرحات ! » له عندي معنى خاص ، له طعم لذيذ ونكهة طيبة ... فمعنى المزرعة هنا غيره في غير مكان ! انه هنا يعني المعركة الهائلة التي انقض فيها أبطال الجبل في سنة ١٩٢٥ على جيش الجنرال ميشو (الافرنسي) انقضوا عليه بغتة وبالسلاح الابيض ، اطبقوا عليه من كل جانب ، وراحوا يعملون فيه سيوفهم العربية ، ببطولة منقطعة النظير ، فاوقعوا فيه الرعب ، وجرعوا أفراده الموت ، ولم ينجُ من الجيش كله سوى قائده الجنرال ميشو الذي نجا باعجوبة هي اعجوبة الهرب ... وما ان وصل الى دمشق ، ينفض عن منكبيه غبار الموت ، حتى دعته حكومة باريس وحاكمته هناك ، ملقية عليه تبعة افناء الجيش الذي كان يقوده الى السويداء ليخضع به (العصاة ...) زاعمة انه لم يحسن تقدير ما ينتظره ، ولعمري ، انها كانت له ظالمة ، ففي ذلك الوقت لم يكن في استطاعة ميشو ولا في استطاعة ألف ميشو الثبات في وجه أبطال الدروز ، إذ كانوا لا يزالون في أول الثورة ، وكانوا يتربصون

بالافرنسيين وقلوبهم ملأى بالحقد عليهم ، ولقد ظلت فرنسا سنتين بعد معركة المزرعة تقذف بالجيوش الى الجبل و تقذف الجبل ، قراه ومدنه ، بأحدث معدات القتال دون أن تنال من أهل الجبل منالا ، الآ بعد ان فني منهم الوف الشبان ، وبعد ان قطعت انكلترا ، من جهة الاردن ، طريق الماء الذي كان المجاهدون يردونه ، ومع هذا فان بقية المقاتلين الذين كانوا مع قائدهم سلطان ، لم تستسلم ، وفضلت اللجوء الى الصحراء وقضاء سنوات فيها ، تحتمل الحر والبرد والفقر والجوع على الاستسلام ، ولم يعد سلطان وبقية رجاله المغاوير الى سوريا الا بعد ان حصلت هذه على استقلالها النوعي ، فأعادتهم اليها معززين مكرمين !

كل هذا مرّ في ذاكرتي مرور البرق الخاطف عندما قال النجيب :
« نحن في أرض المزرعة ، يا فرحات ! » .

قبل أن نجتاز أرض المزرعة استوقفتنا سيارات كانت واقفةً على جانبي الطريق ، وحولها فريق كبير من الشبان الذين أخذوا يلوحون لنا بايديهم ، فترجلنـــا لنسلم على اساتذة وادباء السويــداء الذين جاؤوا لملاقاتنا في الطريق ، قبل وصولنا الى المدينة ، فكانت هــذه اولى المفاجآت التي توالت علينا فيما بعد .

ترجلنا فوجدنا نحواً من خمسين شاباً في انتظارنا ، لاقونا مرحبين ، ثم واكبت سياراتهم سيارتنا الى قلب السويداء ، وهناك ، عند مدخل الفندق الكبير لقينا عشرات من الشبان الذين لم يتمكنوا من ملاقاتنا خارج المدينة بسبب عدم وجود سيارات كافية لنقلهم ، وما ان دخلنا

الفندق حتى غصت قاعته بالمرحبين المسلمين العاتبين على نجيب لانه لم يعلمهم بمجيئنا إلى زيارتهم إلا عند آخر ساعة، بحيث تعذر عليهم وجود سيارات كافية، وفي زعمهم انهم لو علموا بقدومنـا في وقت مسبق لزحفت السويداء كلهـا لملاقاتنا في المزرعـة.. فظننت انهم، وهم يعاتبون نجيباً يبالغون في ما يقولون. ولكني تأكدت بعدئـذ، في اليومين التاليين، وبعد ان زرنا صلخد وغيرها من مدن المحافظة، انهم كانوا صادقين، بل انهم كانوا مقتصدين في ما قالوه. وسيرى القارئ الكريم كيف استقبلتنا صلخد، وكيف استقبلتنا بصرى وكيف كان استقبالنا في شهبا، وهي المدن الثلاث التي زرناها رسمياً، اقول رسمياً لاننا زرنا قنوات زيارة خاطفة لم يكد يشعر بوجودنا أحد فيها، وبصرى، ولم تكن من محافظة درعا (حوران) الا انا زرناها لقربها، ولعمري لا أرى فرقاً بين بلد وبلد ولا بين محافظة ومحافظة فالبلاد كلها عربية مطبوعة بطابع واحد...

وهكذا كان وصولنا إلى السويداء، سويداء قلب عرين الاسود من جبل العرب الاشم!

كان وصولنا إلى السويداء بعد الثامنة ليلًا، وكان في مقدمـة زوارنا المرحبين صديقنا العقيد عبد المجيد تجار، وكنت قد عرفته في دمشق ثاني يوم وصولي، فعرفت فيه منذ الاجتماع الاول، الرجل الاديب الشاعر، والاداري النزيه الحازم، إذ كان يومئذ محافظاً لمنطقة دمشق، ومنذ اللحظة الاولى أصبحنا صديقين يعرف كل منا قدر صاحبه، فلما

زرت السويداء، كان هو قد نُقل محافظاً اليهـا، وصل فسلم ورحب وابى إلاّ أن نكون ضيوفه في قصر المحافظة، ولقـد كنت اود البقاء في الفندق فأبى أشد الاباء ودعا فورًا أحد الجنود وامره بنقل امتعتنا الى الغرفتين الممدتين في القصر لنا، واحدة لي ولزوجتي والاخرى للرفيق الدائم الاستاذ عبد الله عبود، ولقد أخبرني بعد ان استقر بنا المقام في قصر المحافظة، ان هذا القصر بني مسكناً للحاكم، وللمستشار الافرنسي، وان الغرفة التي خصني وزوجتي بها هي الغرفة التي كانت مخصصة لهذا (السيد...) فكنت أسمعه يتكلم وافكر في التقادير واقول متعجباً: الله الله يا دنيا! فرحات في غرفة المستشار الافرنسي...

نزلنا، اذن، في قصر المحافظة الذي بناه لنا صاحبنا الافرنسي، ونزل أخونا ورفيقنا نجيب حرب وعقيلته في منزل أخيه السيد نعمان حرب، واسرة حرب أصلها من (غريفه) لبنان إلاّ انها انتقلت إلى جبل حوران يوم كان نجيب طفلاً رضيعاً.

نمنا في القصر، وصباح اليوم التالي عدنا إلى الفندق المستقبل فيه الزوار. واظن ان عددهم كان عدد سكان السويداء الذكور طبعاً! وكان في مقدمة هؤلاء سماحة الشيخ أحمد جربوع أحد شيخي عقل الدروز في الجبل.

من الناس من تألفهم وتأنس بهم منذ اللحظة الاولى، ومن هؤلاء الناس سماحة الشيخ أحمد جربوع الذي كنت وانا أتحدث اليه أرى بسمة الرضى تمتد من ثغره إلى عينيه، وتنتشر على وجهه فتغمره بنور من

ٱلوداعة قلما ترى مثله في وجوه ٱلرجال، رجال ٱلدين على ٱلاخص! وقد دعانا هذا ٱلشيخ الجليل الجيل إلى زيارته في منزله فوعدناه ووفينا حيث لقينا كل لطف وايناس وحفاوة.

ذهبنا عند الساعة الخامسة مساء إلى زيارة (قنوات) وهي قرية قريبة من السويداء. والطريق اليها ليس كله مزفتاً.

وماذا في قنوات ؟! فيها بقايا هياكل رومانية أو نبطية، واعمدة منصبة هنا وهناك تتحدى الازمنة، وفيها بيوت حقيرة مبنية بحجارة فخمة! أو انك ترى فيها بعض البيوت الصغيرة « مرصعة » بحجارة هياكل وقصور ومسارح رومانية أو غسانية أو نبطية!. وهناك الازقة الضيقة الملتوية مبلطة بحجارة كبيرة على طريقة الطرق الرومانية وهي لا تزال كما تركها الذين بلطوها منذ آلاف السنين. زرنا منزل شيخ العقل، في قنوات، وهو لا يختلف عن غيره من منازل البلدة، فأكرمنا سماحته بما قدم لنا من قهوة وفاكهة.

حبذا لو اهتمت الحكومة بتطوير القرى ذات الآثار التاريخية تطويراً يجمل بين حاضرها وماضيها شيئاً من التناسب، بل حبذا لو اهتم أهل هذه القرى بتطوير انفسهم عن العلم والاختلاط بالناس، ولطفوا شيئاً من حدة التقاليد التي لا تصلح لهذا العصر حتى لا يظهروا بمظهر المتخلفين حديثاً ليس عن الافرنج ولكن عن أهل البلاد السورية العربية.

في المساء أقامت لنا مدينة السويداء امسية شعرية لطيفة للغاية ، برعاية المحافظ الشاعر صديقي العقيد عبد المجيد تجار ، تكلم فيها فريق من الادباء نثرًا ونظماً ، ومن هؤلاء الادباء الشاعر الشيخ حسين ابو فخر ، إذ ألقى قصيدةً طيبة ألبسني فيها حللًا من الثناء منسوجة على منوال فضله ولطفه. وانشد الشاعر سلامه عبيد شعرًا رقيقاً مؤثرًا في وصف ما لقيه الشعب السوري ، وخاصة في الجبل الاشم من فظاعة الافرنسيين في أواخر أيامهم ، وعنوان قصيدة هذا الشاعر (من دمانا أيها السفاح !) ثم أنشد العقيد المحافظ بعضاً من شعرهِ ، وانشدت أنا كثيرًا من الشعر القومي ، شعر الثورة الذي ألهب حماسة الجمهور فراح يصفق ويطلب المزيد ، ولم اكن بخيلًا ...



في السويداء

في صباح اليوم التالي، الاثنين ٢٨ ايلول، اعدّ لنا الاستاذ سلامه عُبيد أديب السويداء وشاعرها، برنامجاً قوامه زيارة قائد الثورة الكبرى العام سلطان الاطرش، في منزله، في (القُريّة)، ثم زيارة صلخد وتناول طعام الغداء فيها، ثم زيارة بصرى الشام في محافظة درعا (حوران) وهي تقع على الحدود الجنوبية، (حدود الاردن) وفي بصرى المدرّج الروماني المشهور الذي تكتنفه القلعة العربية الايوبية، بابراجها الاحد عشر.

غادرنا السويداء حوالى الساعة العاشرة ووجهتنا (القُرَيّة) مقر الاطرش الكبير الذي طالما تغنينا ببطولته في أيام الثورة الكبرى، والذي كانت زيارتنا له من أكبر امانينا، مررنا بقرية (ارساس) وبلغنا (القُريّة) في الساعة الحادية عشرة وكنا نركب أربعاً أو خمساً من السيارات، وما ان وصلنا امام منزل القائد العام حتى رأيناه بارزًا الينا من باب المنزل الرئيسي، هاشاً باشاً مرحباً. فخففت إلى لقائه وانا اكاد اطير من الفرح بهذا اللقاء، فصافحته بكلتا يديّ، وقابلني هو بمزيد من الترحاب، ثم دخلنا القاعة وانا إلى جانبه، فأخذت أتأمل في وجهه شاكرًا للقدر هذه المنة، فلقد كنت اظنه أكثر شيخوخةً مما رأيته، انه – والحمد لله – لا يزال قوياً، ممتلئاً نشاطاً.

وبينا نحن نتحدث متذكرين وقائع الثورة الكبرى، أتت القهوة العربية المرة، ذات الرائحة العطرية المسكرة، فاخذت الفنجان بيدي وادرت في الحاضرين نظرًا تائهاً، باحثاً بينهم عن صديق قديم، غائب



مع الاسد عند باب العرين !

في الارجنتين ، غياباً أبدياً ... ولحظ القائد شيئاً في عيني يجول وكأنه دمعٌ فسأل ملهوفاً : (ما بك ؟ وعمن تبحث ؟!) فقلت اني أبحث عن صديق لي كان كلما بعث الي برسالة يختمها بقوله (انشاء الله نشرب القهوة معاً في مضافة سلطان باشا) ، اني أبحث عن (الجندي المتطوع) سلمان نجم البكفاني ! فغض الباشا نظره وقال : (رحمه الله ما كان أشدَّ وفاءه وأوفر اخلاصه ، لقد مات شرَّ ميتة) !

بعد القهوة جاءت أطباق الفاكهة ملأى بالعنب اللذيذ الفاخر النوع وبالتفاح الجميل المنظر الطيب الرائحة ، وكلاهما من بستان الباشا البطل .

لم نطل المقام بعد القهوة والفاكهة ، لان صلخد كانت على موعد معنا ، فهي تنتظرنا للغداء . فاستأذنا وقمنا ، والقائد العام يلح علينا بالبقاء ونحن نعتذر بوعدنا لصلخد ، ثم خرجنا مشيعين بالاكرام وخرج الاطرش الكبير معنا يشيعنا إلى السيارات ، ولم يرجع إلا بعد ان سارت بنا في طريق صلخد .

الطرق في حوران والجبل جميلة حديثة مستقيمة قلما تلتوي ، إذ ان طبيعة الارض تساعد المهندسين على التخطيط ، والطريق بين القريّة وصلخد يمتد مستقيماً إلى مسافة عشرة كيلومترات تقريباً . ثم يلتقي طريقاً آخر ، مستقيماً مثله منحدراً من صلخد إلى بصرى ، في حوران ، فيؤلف الطريقان صليباً عندما بلغناه أخذنا الطريق المعترض وسرنا إلى اليسار صعداً ، وكانت قلعة صلخد تطل علينا من بعيد ، فتلوح لنا وكأنها ماردٌ يمتطي صهوة الجبل المقبلين عليه ! ثم بضعة كيلومترات اخرى ،

وإذ بنا نشرف على مدخل المدينة. وهنا كانت لنا مفاجأة لم تخطر لنا في بال قط، أعلام الجمهورية العربيـة المتحدة منتشرة على طول الشارع فوق الدور والدكاكين، وصفوف من الطلاب والكشافة، وجمهور كبير يقف في الساحة يحمل اللافتات، وهتاف يدوّي عالياً، لم افهمه أول الامر، وظننت ان المدينة في عيد، وخامرني شيء من الشك في أمر الهتاف المتصاعد من مئات الافواه، وإذ بي أتبينه وافهمه دهشاً انه كان (اهلًا وسهلًا بفرحات!) أهلًا بشاعر العروبة ورسولهـا في المهجر... فلم أتمالك من البكاء. ولكن البكاء في مثل هذا الاستقبال البطولي عيب، فرحت أتظاهر بالبطولة! ومشيت إلى جانب مدير



صلخـد



صلخد

البلدة الاستاذ عبد الرحمن حمور، واساتذة المدارس والادباء والموظفين، بين صفين من الكشافة، بعد ان صافحت المقابلين الرسميين واحداً واحداً.

مشينا والهتاف يتعالى و (أهلاً وسهلاً بفرحات) تطن في اذني، مشينا إلى دكةٍ منصوبة في الظل على جانب الساحة فجلستُ وزوجتي إلى جانبي، وكانت هي الاخرى تبكي مما تشاهد، وجاس معنا الاخ الكريم نجيب حرب وزوجته، وفريق من الوجوه، وفي الساحة المكشوفة، تحت الشمس المحرقة، أقاموا منبراً وراحوا يلقون منه خطب الترحيب فلما جاء دوري رجوت منهم أن يسمحوا لي بإلقاء كلمتي

من المكان الذي أنا فيه، لان (قرعتي) لا تحتمل هذه الشمس التي ترسل شواظها دون رحمة ولا شفقة فما كان منهم إلا انهم حملوا المنبر (الطاولة) وجاؤوا به إليّ، فوقفت وشكرت وانشدت شعرًا كانوا يقاطعوني انشاده بالهتاف المدوّي (أهلاً وسهلاً بفرحات!).

ولقد رجوت من المدير أن يختصر الاحتفال شفقةً بهؤلاء الصغار الواقفين في الصف تحت تلك الشمس التي لا تحس بما يحسّون به وهجها!



في صلخد، بين الاستاذ نجيب حرب وقرينته

ولقد كان أجمل وأعجب ما في هذا الاستقبال، تلك المناديل البيضاء التي كانت تملأ السطوح والشرفات، محيطة بالوجوه الجميلة

السمراء، كأنها هي هالات تحيط بأقمار، وهي لعمري هالات المرفوفيات تحيط بوجوههن فتزيد المشهد روعةً.

مشينا من الساحة إلى دار الحكومة، ومشت المدينة وراءنا براياتها ولافتاتها وهتافاتها! فدخل معنا من الناس إلى القصر ما ملأه، وقد انفرط عقد الطلاب والكشافة، فذهبوا بنا إلى مكتب المدير، وهناك جلسنا ننتظر الطعام الذي لم يحضر إلا عند الساعة الثالثة عصراً فقمنا اليه وهناك رأينا لأول مرة (المنسف)، وهو طبق من المعدن رحب كبير مستدير تملأه قبةٌ شامخةٌ من البرغل المطبوخ، ينام فوقها مطمئناً حمل، هو الآخر، محشوٌ بالبرغل، والفراخ، فراخ الدجاج تحيط به من كل جانب، والسمن يترقرق فوق الجميع...

فأكل الناس وأكلنا معهم، وقمنا نودع القوم إلى بصرى التي كانت تنتظرنا، وقد أبى المدير النشيط الضابط عبد الرحمن حيمور، إلا مرافقتنا مع زوجه إلى بصرى.

في بصرى لم يكن الاحتفال الفخم مفاجأةً لنا. اننا بعد ان رأينا ما رأينا في صلخد صرنا نتوقع أن نرى نسخةً عنه في كل بلدةٍ نزورها. إلا ان الاحتفال في بصرى كان أضخم فقد اجتمع فيه من الخلق أكثر مما اجتمع في صلخد، واظن ان بصرى أكبر من صلخد وأكثر سكاناً، وأرحب ساحةً.

قوبلنا هنا بالهتاف، هتاف الطلاب والطالبات والكشافة والمرشدات والاساتذة من الجنسين، وكانت الاعلام واللافتات تملأ

الساحة، وصف الكشافة الطويل يحيط بها من جميع جهاتها ، وكانوا قد نصبوا منبراً امامه (مكبر الصوت) وراح الخطباء يتناوبون ، وهم يحفظون الكثير من شعري، ولا سيما شعري القديم، (شعر الثورة) فكانوا يستشهدون به في خطبهم ، ولما جاء دوري للكلام ضجّ المكان بالهتاف والتصفيق لشاعر العروبة وخادمها الامين في المهجر السحيق!



كيف استقبلتنا بصرى

أما المفاجأة فقد كانت في بروز فتاتين صغيرتين من الصف، تحمل احداهما عقداً من الازاهير الندية وضعته في عنق زوجتي فتدلى إلى تحت ركبتيها ثم ألقت كلمة ترحيب مختصرة طيبة ، وتحمل الاخرى باقة من الازاهير نفسها ، قدمتها لي وألقت كلمتها ، وعاد كلٌّ منهما بقبلة ذكر مني ومن زوجتي.



بصرى الشام

تقع ساحة بصرى عند مدخل المدرج الهائل الحجم فلما انتهى الترحيب والشكر، تقدم إليّ من الجمهور ضابط شاب ودعاني باسم محافظ درعا إلى زيارتها، فشكرت له وللمحافظ الدعوة واعتذرت بضيق الوقت، إذ علي أن اعود، بعد انتهاء زيارة الجبل إلى دمشق ثم ازور حلب وتدمر وحمص وحماه.

واخيرًا دخلنا إلى المدرج ورحنا نصعد درجاته طورًا ونهبطها تارةً، والمصور يتتبع خطواتنا فلا يفوته من مواقفنا موقف. ثم، وبعد جهد كبير، دخلنا بهوًا فيه قاعة للراحة. والبهو والقاعة من البناء العربي الايوبي، وهناك شربنا القهوة المرّة واكلنا الفاكهة الحلوة.. وكانت

ساعة الرحيل قد ازفت، فقمنا مودعين، وقد شيعنا القوم بالاكرام الذي قابلونا به، وأبى كبراؤهم إلا مرافقتنا إلى المصلب الذي ذكرناه آنفاً. وهناك رجع أهل بصرى إلى بصرى وصعد أهل صلخد إلى صلخد، وسرنا نحن في طريقنا إلى السويداء حيث كان الوجيه جاد الله عز الدين قد أعدّ لنا عشاء وسهرة فاخرين!

لقد كان شهود السهرة في منزل السيد جاد الله عز الدين يزيدون عن المائة وكان بينهم صديقي المحافظ العقيد تجار، والسيد توفيق الاطرش، الذي تلطف وزارنا في الفندق مرتين دون أن يلقانا فيه، ومدير المباحث وهو شاب مهذب وضابط في الجيش تعرفنا اليه بواسطة صديقنا المحافظ فأحببناه كثيراً.

يقتضي الصدق أن اقول ان جوّ هذه السهرة كان ثقيلاً، إذ كنت أنا مرهقاً لفرط ما انشدتُ من الشعر بصوت عالٍ جدًّا رغبةً مني في ايصاله إلى البعيدين في طرف الساحة، وكان الساهرون في منزل الوجيه عز الدين يريدون أن يسمعوا شعرًا متواصلًا لا هوادة فيه ولا هدنة.. فاسمعتهم منه ما تيسر لي ثم أضربت عن الكلام، فأضربوا هم كذلك حتى انقضت ساعة كاملة ونحن سكوتٌ (والهوى لا يتكلم...) وكان المحافظ جالساً إلى جانبي فأشرت عليه بالذهاب إلى النوم، وكان هو قد شعر بما يجول في خاطري ورأى علائم الارهاق على وجهي وفي صوتي، فاستأذن صاحب الدار بالانصراف، ونهض فنهض كل من في القاعة.

هكذا انقضت سهرتنا تلك، تفرقنا وانا اظن ان القوم غير راضين عني كل الرضى، مع اني لم اقصر في ارضائهم، ولكن لم يكن في امكاني متابعة الانشاد دون انقطاع من أول السهرة إلى آخرها، ولقد قلت ساعتئذٍ للصديق نجيب حرب: ان صوتي يخرج من حلق مركب من لحم ودم، لا من (راديو)!

يوم الثلاثاء كان برنامجنا يقضي في الذهاب إلى (شهبا) وقد شاء المحافظ الصديق أن يرافقنا اليها، فخرجنا في أربع سيارات، سيارة المحافظ في المقدمة، فلما بلغنا قرية (سُلَيم) وهي موطن الضابط العربي المشهور، امين أبي عساف، رأينا صفاً طويلاً من الكشافة والتلامذة الصغار واقفاً على جانب الطريق، ورأينا راية الجمهورية تخفق عالية أمامنا، فوقفنا وترجلنا ونحن نسمع الهتاف «أهلاً وسهلاً بفرحات» وبعد ان سلمنا على الاستاذين الواقفين مع الصف وشكرنا لهما هذه الحفاوة وشكرنا للصغار هتافهم وتصفيقهم، تابعنا سيرنا إلى شهبا فوصلناها بعد مسير كيلومترات قليلة.

دخلنا المدينة من بوابة أثرية كبيرة، وسرنا في شارع عريض مستقيم مبلط بحجارة كبيرة على الطريقة الرومانية وما زلنا سائرين حتى وصلنا إلى مصلب يقع في قلب المدينة، فعطفنا إلى اليسار في شارع آخر يشبه الشارع الاول شبهاً تاماً، فنظرت إلى نجيب مستفهماً فقال: «شهبا مدينة قديمة عريقة في القدم، ولقد كانت في العهد الروماني مدينةً عظيمة، وهي كما ترى، يقطعها من الشرق إلى الغرب شارع طويل عريض

مستقيم، ومن الشمال إلى الجنوب شارع طويل عريض مستقيم كالاول فيلتقي الشارعان في قلب المدينة تماماً، وللمدينة أربع بوابات، عند رأس كل شارع بوابة كالبوابة التي دخلنا منها.

كان استقبالنا في شهبا رائعاً كما كان في صلخد وبصرى، فكانت الاعلام العربية تخفق في كل مكان. وما ان دنونا من المدرج الروماني حتى رأينا جماهير المستقبلين وصفوف الطلاب والكشافة يحملون اللافتات الكبيرة مكتوباً عليها عبارات وجمل حماسية تأييداً لسياسة الجمهورية العربية المتحدة وتمجيداً لرئيسها العظيم جمال عبد الناصر، وقد قرأتُ على احداها ترحيباً « بشاعر العروبة فرحات »



العمائم البيضاء تملأ مدرج الشهبا وبنات المدرسة يرقصن في الساحة





مشهدان في شهبا — جبل العرب



شهبا — جبل العرب

ترجلنا من سياراتنا وسلمنا على المدير واعوانه وعلى وجوه البلدة الذين خفّوا لاستقبالنا ، ثم مررنا بين صفّين من الكشافة وسرنا إلى داخل المدرّج ، وهو المكان الذي اعدوه للاحتفال بنا ، وما ان دخلنا حتى رأيناه مزدحماً بالناس ، حتى ظننتُ ان كل أهل شهبا قد اجتمعوا فيه وشغلوا مقاعده ، وكان المنظر رائعاً حقاً ، المدرج مثل أخيه مدرج بصرى ، إلا انه أصغر منه كثيراً ، ولكن هذا كان أجمل من ذلك ، لانه كان مشغولاً بذوي العمائم البيضاء من شيوخ بني معروف ، واحتلت فرقة الكشافة المقعد الامامي ، فكنت اصعّد الطرف منها إلى ما فوق فأرى ما يملأ العين جمالاً والقلب بهجةً ، وكان جمهور من

السيدات والاوانس واقفاً في الجهة اليسرى، تحيط المناديل البيضاء بوجوههن السمراء فيزدن المنظر روعةً.

جلستُ في صدر المكان تجاه المدرج، وجلس العقيد المحافظ والمدير ورجال التعليم وبعض الوجوه في صفٍ واحد يقابل صفوف الرجال المتراصة على درجات المدرّج.

وافتتح أحد الادباء الاحتفال داعياً المدير إلى القاء كلمة المدينة، ثم تعاقب الخطباء، وكان فيهم أديبٌ يعرف كثيراً من شعري فراح يورد منه شواهد كنت لها ناسياً، وخطبت السيدة وداد عزام باسم المرأة العربية في شهبا مرحبةً بي وبزوجتي، واخيراً جاء دوري فألقيتُ كثيراً من الشعر الوطني، فكان الهتاف يتعالى عند كل بيت ومع الهتاف التصفيق، ولما انتهينا من القاء الخطب والقصائد طلبت من صديقي المحافظ اخذ صورة لنا واقفين امام المدرج بحيث نظهر وكل من عليه من ذوي العمائم فكان لي ما اردتُ.

ثم سرنا إلى دار الحكومة حيث كانت المناسف العربية قد أُعدّت، وكنا جمهوراً كبيراً وكان الطعام كثيراً، وهو مؤلف كالعادة المتبعة: حُملان محشوة برغلاً، وعليها حب الصنوبر والسمن الكثير، فأكلنا ما شئنا، أو ما استطعنا... ونهضنا إلى مائدة ثانية عليها اكداس من الفاكهة الشهية ولا سيا العنب. وهذا الصنف، في محافظة السويداء، فاخرٌ ولذيذٌ حقاً، ومع العنب التفاح الجميل المنظر اللذيذ الطعم، وانا

يكون نصيبي من الفاكهـة أوفر من المآكل المطبوخـة ، ولا سيما الدسمة منها .

بقيت لي كلمة اتردد في قولها ، ولكني أراها ضرورية لاني أرى فيها خدمةً لأبناء امتي . قال لي أحد الشيوخ ، ونحن على الطعام ، لقد أعددنا لك سماطاً عربياً ارضاء لنزعتك العربية ! فشكرتُ له تلطفه ، اما كلمتي فهي : على رأسي الكرم العربي ، وعلى عيني الضيافة العربية ، ولكن أليس في الامكان تهذيب عاداتنا في الكرم والضيافة ؟ أوَ ليس الافضل لنا ولضيوفنا أن نأتي باللحم إلى المائدة مقطعاً بادوات تقطيع اللحم التي نستعملها في بيوتنا ويستعملها المتحضرون من الناس الشرقيين والغربيين ، بدلاً من أن نأتي بالحمل تاماً كاملاً ، ونأخذ في تقطيعه على الخوان ، امام الضيوف بايدينا ؟! . ان هذا التطور ضروريٌ شديد الضرورة لنا ، أولاً لانه يدل على تهذيب عاداتنا ، فلا نبقى حيث كنا منذ ألفي سنة عندما نحر امرئ القيس ناقته للعذارى وانشد مفتخراً :

وراح العذارى يرتمين بلحمهـا وشحمٍ كهدّاب الدمقس المفتّل !

وثانياً لانه أنظف ، ولان فيه كياسة لا اثر لها في عادات تقطيع اللحم بالايدي ، لا شك عندي في نظافة ايدي الذين تولوا تقطيع اللحم وتوزيعه على الآكلين ، ولكن رؤية الايدي السمراء الغارقة بالدهن والسمن ليست مما يهيج القابلية للطعام !...

انتهينا من أكل الفاكهة وأخذنا في توديع هؤلاء الناس الكرام الذين لم يألوا جهداً في اظهار عواطف المودة والتكريم ، ولقـد كان

توديعهم كما كان استقبالهم بشاشةً ودعاء، وقد شيعونا إلى ظاهر المدينة التي قيل لنا انها مسقط رأس الامبراطور الروماني (فيليب العربي) .

كان ادباء السويداء، وفي مقدمتهم الشاعر سلامه عبيد، يريدون أن يقيموا لنا مساء، في الساحة العامة، مهرجاناً شعبياً ضخماً، بحجة ان الحفلة الاولى التي أقاموها لنا مساء الاحد، كانت مقتصرة على الخاصة، وان للعامة حقاً في سماع قصائدي، فاعتذرتُ عن قبول هذا المهرجان خوفاً على حلقي الذي أجهدته المهرجانات السابقة، وذلك ان الخطابة أو الانشاد في الساحات العامة يستدعي رفع الصوت كثيراً حتى يصل إلى كل طرف من أطراف الساحة وإلاّ فقد المهرجان التأثير المقصود منه، وهو ايصال ما يقال إلى كل مسمع، وكان عذري الآخر اني على موعد سابق في دمشق وعليَّ أن لا أتأخر في العودة اليها . وهكذا ودعت الادباء شاكرًا لهم حفاوتهم، وودعت صديقي المحافظ شاكرًا وللسيدة (أمّ فاروق) قرينته حسن ضيافتها وقفلت راجعاً إلى دمشق ومعي الرفاق الذين رافقوني في هذه الرحلة الموفقة فوصلناها في أول الليل ا.

وفي صباح اليوم التالي أبرقت إلى صديقي سيادة محافظ السويداء العقيد عبد المجيد تجار، مكررًا الشكر له ولأهل السويداء وصلخد وشهبا، بل لاهل الجبل كافةً، وأبرقت إلى مدير مدينة بصرى اشكر له وللاهلين الاستقبال الفخم والاحتفال الرائع .

لفتت نظري في طبيعة أرض الجبل المحيطة بالطريق الذي سلكناه كثرة الحجارة التي تغطي الارض من كل جانب حتى لتخالها مرصوفة فوق الارض رصفاً ؛ حجارة مستديرة كأنها جماجم ضخمة تمتد إلى مسافات، قلت لمرافقيّ : لعلها جماجم العمالقة الذين تعاقبوا على هذا الصعيد من قديم الزمان... حجارة بيضاء مستديرة، رؤوس عمالقة جُرّدت من لحومها ! لم أرَ في حياتي كلها أرضاً تملأها الحجارة كهذه الارض التي تكتنف الطريق العام في جبل حوران، هذا وأنا أعلم ان في هذا الجبل أرضاً في غاية الخصب، وانها وافرة الغلال، ولكنها ليست قريبة من الطريق، لانها لا تظهر للمسافرين فيه.

بعد اسبوع من عودتي من محافظة السويداء أطلعت الصديق الكريم الدكتور يوسف شقرا الامين العام لوزارة الثقافة والارشاد القومي، على رغبتي في زيارة حلب، فتناول جهاز الهاتف من امامه فورًا وخاطب مدير المركز الثقافي فيها، الاستاذ عبد الستار العزوني، طالباً منه أن يؤمن لنا ثلاثة أماكن في فندق بارون، أكبر فنادق الشهباء وافخمها، لي ولزوجتي ولعبد الله عبود، وفي صباح الثالث من شهر تشرين الاول ركبنا سيارةً حملتنا إلى حمص، وفي حمص، تطوع الاستاذ نظير زيتون لمرافقتنا، هو وشقيقته جوزيفين إلى حماه.

استقبلنا في حماه محافظها الشاعر ياسين فرجاني ورئيس مجلس بلديتها الاستاذ حمدي قطرنجي، ومدير مركزها الثقافي الاستاذ سامي السراج، وفي حماه تعرفنا إلى الطبيب الانساني الشاعر وجيه البارودي والدكتور

اللطيف الانيق أديب نصور ، وشاعر العاصي بدر الدين الحامد ، والاديب الحمصي قاسم الشاغوري ، والعقيد اسماعيل نابلسي قائد الشرطة ، ورئيس المباحث المقدم ممدوح الجابي ، وغيرهم ! ونزلنا في فندق أبي الفداء ، ضيوفاً على الحكومة المحلية أو على البلدية ، وفندق أبي الفداء أجمل فنادق حماه وأفخمها ، وتقاطر الوجوه والاعيان للسلام علينا ، وكان في مقدمة الزوار المسلمين مفتي المدينة سماحة الشيخ الجليل سعيد العريان ، والصديق الكبير سيادة مطران حماه اغناطيوس حريكه ، والشاعر غالب البرازي ، ووضع رئيس البلدية سيارته في خدمتنا ، فرحنا نطوف في أجمل الاماكن الحموية ، يرافقنا كبير موظفي البلدية الاستاذ احسان العظم ، وهو أديب ناضج تسمعه يتكلم في التاريخ فتحسبه يقرأ في كتاب .



في حماه مع سماحة المفتي وسيادة المحافظ

زرنا جنائن حماه، وما أكثرها! وزرنا بساتينها وما أوسعها، وزرنا مصافي المياه فيها، وطريقة تصفيتها وهي أحدث الطرق.

في اليوم التالي أقام لنا المركز الثقافي العربي أمسية شعرية في داره التي غصت بعشاق الشعر والادب، فخطب فريق من الادباء والقيت أنا كثيراً من الشعر، وكنا قد تناولنا طعام الغداء على مائدة سخية دعانا اليها الدكتور أديب نصور وكنا كذلك رددنا الزيارة لسماحــة المفتي وسيادة المطران وغيرهما. وكنا زرنا قصر العظم ومكان القلعة القديمة، وكنت، ونحن نجيء ونمضي في الشوارع والازقة اعجب لعدم وقوع نظري على امرأة سافرة ... وقد أبديت ملاحظتي هذه للرفيق عبد الله عبود فقال انّ أهالي حماه محافظون، ولكن، وفي آخر ساعــة، أبى الحظ العاثر الآ أن يريني امرأةً سافرة، وكانت (لسوء حظها..) من أقبح النساء وجهاً، فقلت لعبــد الله: على مسلمي حماه أن يجــبروا المسيحيات على التحجب...

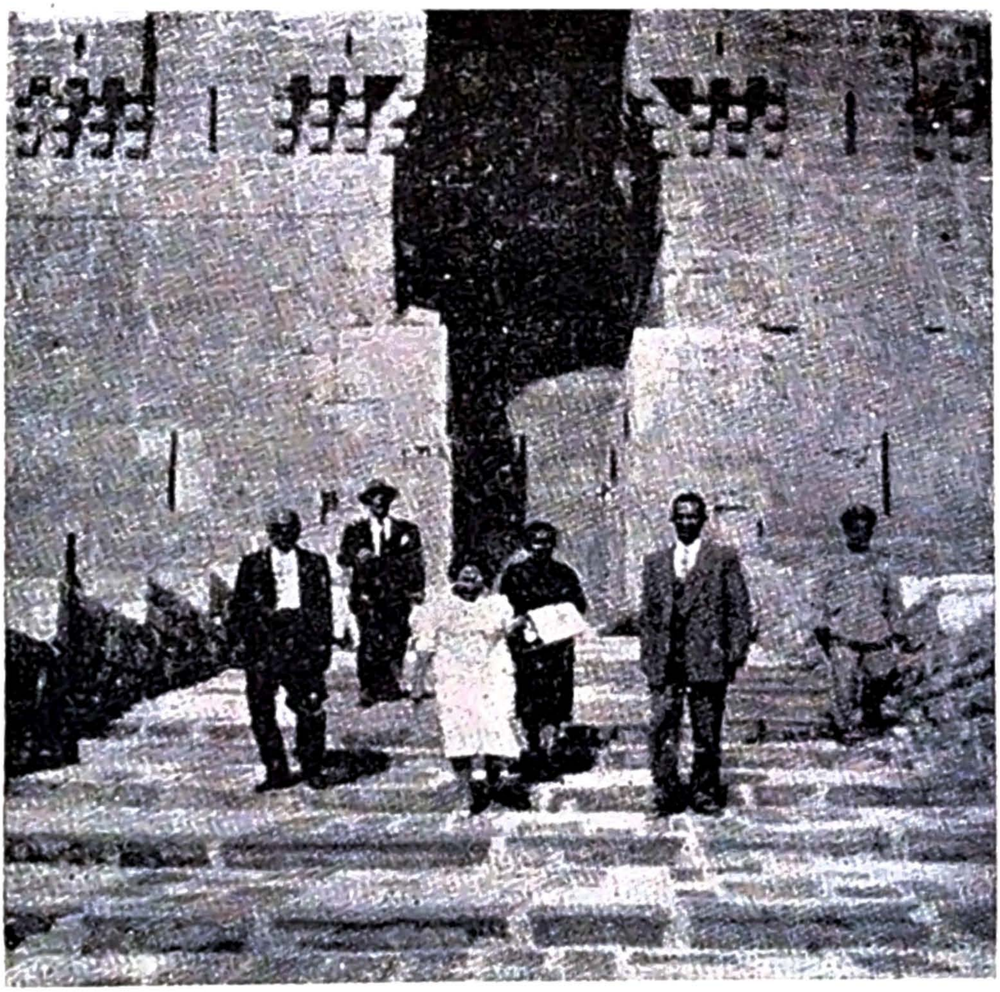
بتنا في حماه ليلتين، ووعدنا الوجيه عبد الكريم الرستم بتناول الغداء على مائدته في عودتنا من حلب، وشاء رئيس المجلس البلدي أن يبالغ في اكرامنا فأرسلنا إلى الشهباء بسيارته، وشاء النظير (الذي لا نظير له..) أن يرافقنا وشقيقته إلى آخر الشوط.. فركبنا السيارة ورحنــا (ننحر) حلب. فلما بلغنا (المعرّة) معرة النعمان، بل الأصح والأحق معرة أبي العلاء.. طلبت من السائق أن يذهب بنا إلى قبر هذا الاعمى الذي بــذّ المبصرين! والذي يدعى بحق فيلسوف الشعراء وشــاعر

الفلاسفة، وكان الوقت عصراً، فدخلنا شارع البلدة ووقفنا فيه عند بناء حديث. هو بناء قبر أبي العلاء المعري، الذي بنته له الحكومة السورية بمناسبة مرور الف سنة على ميلاده. دخلنا من بوابة عالية كبيرة ألى فسحة في داخلها غرفتان أو ثلاث غرف، وفي طرفها الداخلي قبر قديم صغير بسيط هو مرقد الشاعر الفيلسوف. فوقفنا عنده خاشعين نحواً من ثلث ساعة، ثم عدنا إلى سيارتنا مستأنفين السير إلى حلب، فوصلناها في أول الليل، وكنا في طريقنا اليها نرى قرىً غريبة الشكل، غريبة البناء، لا نعرف لها مثيلاً في ما نعرف من قرى، قباب من طين اسطوانية مدببة الاعلى ليس لها سوى منفذ واحد، هو الباب، ولا ادري كيف هي من الداخل لاننا لم نقف لنرى ما فيها.

دخلنا الشهباء في أول الليل وذهبنا تواً إلى الفندق، فندق بارون، وحاول نظير أن ينزل واخته في فندق آخر، فأبيت عليهما مفارقتنا قائلاً ان الحكومة التي تضيف ثلاثة تضيف خمسة، ولكني كنت مخطئاً في تقديري إذ ان مدير المركز الثقافي لم يشأ إلاّ أن يتقيد بالامر الذي تسلمه من دمشق، فدفعتُ أنا الفرق الذي لم يكن قليلاً!

في اليوم التالي تعرفنا إلى محافظ المدينة الاستاذ رفعة زريق، وإلى رئيس البلدية السيد محمد يحيي الكيالي، وإلى مدير الشرطة العقيد مصطفى النابلسي، وإلى المحامي الاديب عبد الباسط المنلا المدير الفني لدار الكتب، وهو شاب وديع لطيف قدم لنا سيارته ورافقنا مدة اقامتنا في حلب، وكذلك تعرفنا إلى مدير دار الكتب الاستاذ

جلال الملاح، ولقينا في الشهباء اصدقاءنا القدمـاء (نسبياً !) الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة (الحديث) والاستاذ عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة (الضاد) والاستاذ خليل الهنداوي الذي كان قد استقبلني يوم وصولي إلى دمشق بمقال نفيس نشره في جريدة (الايام) الدمشقية. والتقينا فيها الدكتور الطبيب الاديب عبد السلام عجيلي الذي كنـا لقيناه سابقاً في دمشق.



قلعة حلب

وفي الشهباء تعرفنا إلى الوطني الحر المجاهد الدكتور عبد الرحمن الكيالي ، وقد تفضل فأهدى إليّ كتبه (المراحل) في جزئين ، (وشريعة حمورابي) . وهي كتب ثمينة جمعت الوطنية والادب والتاريخ ، ولقد كان من المفروض أن نتعرف أولاً إلى مدير المركز الثقافي العربي الاستاذ عبد الستار العزوني ، بل كان من المفروض أن يتلقانا هو ساعة وصولنا إلى المدينة ، لان وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق اليه وجهت توصيتها بنا ، ولكنه جاء متأخراً معتذراً فقبلنا عذره شاكرين على كل حال .

أقام لنا الصحافي الشاعر عبد الله يوركي حلاق حفلةً حافلةً في منزله العامر ، حفلة عشاء تلتها حفلة سمر حضرها جمهور كبيرٌ من الادباء فضلاً عن الرجال الرسميين ، المذكورين آنفاً ، وفي النهار زرنا قلعة حلب التاريخية المشهورة ، ووقفنا في القاعة التي كان يجلس فيها سيف الدولة ابن حمدان ، وينشد فيها المتنبئ (جالساً) قصائده الرائعة ، وكان خيال المتنبئ يرافقني في حلب كيفما أدرت وجهي ، وكان صوته يقرع سمعي حيثما وقفت ، فلما دعا المركز الثقافي إلى الامسية الشعرية التي أقامها لي ، وقد تكلم فيها شعراً الصديق عبد الله يوركي حلاق والشاعرة عزيزة هارون ، ونثراً الصديق الاستاذ خليل الهنداوي ، وكان قد افتتحها مدير المركز الثقافي الاستاذ العزوني بخطاب نفيس ، وقفتُ وألقيت قصيدتي التالية (حلب) :

كعبة الشعر لقد جئتُ حواليك اطوفُ
ولجنّ الشعر في سمعي ضجيجٌ وعزيفُ
طالما في الليل، من جوك، زارتني طيوفُ
بينها الطيف الذي يعلو عليها وينوفُ
طيف من في شعره المسحور للجنّ كهوفُ
طيف من كانت له الاقلام تبريها السيوفُ
طيف من يجلس فوق العرش والناس وقوفُ
طيف من يرهبه الدهر وتخشاه الحتوفُ
ألفُ عامٍ قد مضت والالف تتلوها الوفُ
وهو حيٌّ لقوا فيه طبولٌ ودفوفُ!

* * *

يا ابا الطيب يا أشعر من تحت السماء
يا امير الامس واليوم وفخر الشعراء
ضيفك اليوم فتىً من بلدٍ في الغرب ناءِ
جاء تحدوه إلى دنياك دنيا من رجاء
شاكياً ما حل بالشعر بفضل الادعياءْ
الألى قد صيروا الشعر هراءً في هراء
فهو غربيٌّ بثوبٍ كرنفاليٍّ مراء
سيّئ اللهجة والتعبير مذموم الاداء
فارغ كالطبل أو كالبوق أو كالزمزماء...
يا ابا الطيب نجِّ الخلقَ من هذا الوباء!

يا ابا الطيب وانظر ما دهانا من خطوبِ
في شمال الشام تركٌ ويهودٌ في الجنوبِ
وكلا الذئبين مربوطٌ بذؤبان الغروبِ
غير أنا قد تمرسنا بانواع الحروب
لن ترى الذؤبان منا غير تحطيم النيوبِ
وحديدٍ يقذف الموت ونارٍ في شبوبِ
وفتى الشهباء في الهيجاء كالليث الغضوب
سوف يُلقي الترك خاف الدرب بل خلف الدروبِ
ملقياً درساً على المزري بآمال الشعوبِ
وعلى الحاسب أهل الشام أهلاً للركوبِ !

* * *

يا ابا الطيب طب نفساً ولا تقلق علينا
بعد ان كنا ضللنا النهج عدنا فاهتدينا
ان مفتاح رتاج المجد أمسى في يدينا
نحن مع مصر المفداة على الحب التقينا
وعلى الدرب الذي خططه المجد مشينا
قل لأهلٍ فارقونا ستعودون إلينا
وحّدت غايتنا الاقدار شئنا ام أبينا
نحن أغصان إلى دوحة عدنان انتمينا
ومن العين التي فجرها الحبُّ ارتوينا
فاذا لم تَجُد الاثمار كان الحل شينا !

يا ابا الطيب في الشهباء من روحك نارُ
لم يزل منها على أرواحنا يهوي شرارُ
لكأني سامعٌ منها ولليل اعتكارُ
نبرةً يسمعها الليل فيعروه انهيارُ
أكؤس الشهباء ما زالت على الناس تدارُ
وهي من شعرك فيها لا من الكرم العقارُ
يا بني الشهباء يا من بابي الشعر استناروا
داركم في دورة التاريخ للامجاد دارُ
اي عصرٍ ما لها فيه نموٌ وازدهارُ
ايّ حربٍ ما لكم فيها بلاءٌ وانتصارُ ؟!

* * *



قسم من شهود حفلة الشهباء (حلب)

لقد كان عدد الحضور في هذه الحفلة كبيراً جداً، وقد تميزت بكثرة من شهدها من السيدات والاوانس، وبالطبع، كان فيها فريق كبيرٌ من شعراء الشباب أصحاب (بدعة الشعر الحرّ!) فلم يرضهم تعريضي بهم وبشعرهم، فطلبوا اقامة ندوة ثانية، في الليلة المقبلة، للمناقشة، فكان لهم ما أرادوا.

آخر سهرة سهرناها في حلب كانت في منزل الصديق الاستاذ خليل الهنداوي، والسيدة الراقية مريم، عقيلته، وكان الهنداوي قد دعا إلى سهرته هذه جمهوراً كبيراً من الادباء والسياسيين، واذكر الآن ان كان بينهم الاديب اللطيف الخفيف الروح مدير الشرطة العقيد مصطفى نابلسي، فلما علم اني مسافر صباح اليوم التالي، قال لا، لن تسافر غداً، فقلت بل اسافر غداً. فنظر إلى جارٍ له باسماً وقال: لن ندعه يسافر، سنلقي عليه القبض بحجة انه شيوعي ونبقيه عندنا الايام التي نريدها... فضحكنا جميعاً للنكتة، ومع هذا سافرنا صباح اليوم التالي! بعد ان اعلمنا بالهاتف السيد عبد الكريم الرستم، في حماه، بأنا ضيوفه على الغداء!

سافرنا إلى حماه بسيارة رئيس بلدية حلب، وقد وصلنا إلى بلدة النواعير قُبيل الظهر، فوجدنا ان الوجيه الرستم قد اعد لنا غداءً فاخراً، لا اظن ان نظيراً سينساه بسهولة... ثم سافرنا بعد الغداء بسيارة السيد عبد الكريم إلى حمص.

كان برنامجنا أن نبيت في حمص ليلة واحدة نسافر بعدها إلى تدمر، فنبيت في هذه ليلة اخرى ثم نعود إلى حمص التي كانت تستعد لأن تقيم لنا امسية شعرية تبذ كل ما اقيم لنا قبلها من امسيات، ثم نسافر بعدها إلى دمشق.

لم اضع الوقت، فما ان وصلت إلى حمص حتى ذهبت توًا إلى صديقي المحافظ العقيد مصطفى رام حمداني، وما ان اطلعته على رغبتي في زيارة تدمر، حتى امن لنا بالهاتف سيارة جيب، من سيارات الجيش مع سائقها الجندي ليأخذنا إلى تدمر ثم قال لي: الافضل أن تتناولوا قهوة الصباح في (المحطة الرابعة) ثم تتابعوا سيركم إلى تدمر فترون آثارها وتتفقدون فيها ثم تعودون إلى (المحطة الرابعة) للعشاء والنوم. ان النوم في المحطة أفضل لكم منه في تدمر، وفي الصباح تعودون الينا الى حمص! قال هذا واخذ الهاتف فخاطب مدير (المحطة الرابعة) فأعلمه أنا غداً مارون هناك فنتناول القهوة الصباحية ثم نتابع طريقنا إلى تدمر وفي المساء نعود إلى المحطة فنتعشى وننام، كل هذا جرى وانا ساكت أسمع الاوامر تصدر واعلم انها أوامر عسكرية لا بد من تنفيذها بالدقة...

وفي صباح اليوم التالي، الثلثاء الواقع في عشرين تشرين الاول، قمنا من حمص ووجهتنا البادية إلى (المحطة الرابعة)، وللقارئ أن يسأل: وما هي هذه (المحطة الرابعة)؟ له أن يسأل ولنا أن نجيب! انها محطة انكليزية لضخ البترول الذي يسيل من العراق إلى طرابلس، وانها تقع في البادية على بعد مائة كيلو متر من حمص وستين من تدمر، وانها

قائمة في واحة صغيرة، وان فيها ابنية حديثة للمدير والموظفين والعمال، وان فيها مدرسة لصغارهم، وشرطة لكبارهم... وفيها منازل قديمة مفرقة هنا وهناك وهنالك، وان منها يُدفع النفط الخام الذي يجيء بالانابيب، مارًا قبل وصوله اليها بثلاث محطات مثلها، ولهذا فهي (المحطة الرابعة) وهي آخر محطة إذ منها تدفعه الآلات الضخمة القوية إلى طرابلس.

وصلنا إلى (المحطة الرابعة) عند العاشرة صباحًا، فوجدنا المدير الاستاذ نقولا الحلو (من مشتى بيت الحلو) ومعاونيه في انتظارنا، فقابلونا بالترحيب والتكريم، وتناولنا القهوة معهم ثم استأنفنا المسير إلى تدمر بعد ان وعدناهم بالرجوع اليهم مساء للعشاء والمبيت!

السفر في الصحراء منعش لذيذ، والصحراء كلها طريق للسيارات، اي ان السيارات فيها لا تتقيد بطريق خاص، ولكنها تسير حسب مشيئة السائق الذي ينتقي لها الخط المناسب بشرط أن يتقيد بالوجهة المقصودة حتى لا يضل.

ولقد قيل لنا ان هناك عملًا قائمًا بنشاط لتمهيد طريق رسمي مزفت تسير فيه السيارات وغير السيارات صيفًا شتاء دون خوف من اي حادث مفاجئ. وقد لحظت ان هذه التي نسميها صحراء ليست صحراء إلا بالاسم، فهي على الغالب أرض صالحة للزراعة ولا يعوزها إلاَّ الماء لتتحول كلها إلى بساتين، فهي ليست صحراء رملية كما يستفاد من اسمها.

حوالى الظهر كنا في تدمر، فتذكرنا في الاستقبال الحكومي الشعبي الذي أعد لنا فيها، استقبالات صلخد وبصرى وشهبا في الجنوب، اعلام ولافتات وكشافة وطلاب، وهتافات وخطب، وأشعار وأزاهير وخلق كثير ا...



تدمر، مع تلميذات مدرسة (زينوبيا)

كان أول المستقبلين الرائد وجيه جبر مدير منطقة تدمر، والقاضي أحمد القدسي، والطبيب العسكري الدكتور هشام عبد الرزاق، ومدير مدرسة تدمر الاستاذ عبد الحسيب القيّم، ومديرة المدرسة الاستاذة فطمة الوفائي، والمعلم محمود الفرجاني، والاستاذ نصر الدين فارس، والوجهاء عبد الله الاسعد، عبد القادر الصالح، عبد الله المأذون،

محمود أسعد جاويش ، حسين الشليل ، ثم جمهور غفير يعد بالمئات ،
وكان الاستقبال الرسمي في قاعة الفندق ، وهو فندق سياحي كبير ،
اسمه على ما اظن (فندق زينوبيا) .

بعد الخطب والقصائد جاء دور الطعام ، فأكلنا وارتحنا قليلاً ثم قمنا نتجول بالسيارات في تدمر اليوم ! وهي طبعاً تختلف كثيراً عن تدمر الامس ! تدمر اليوم كناية عن شارع واحد ، طويل عريض مستقيم ، غير مزفت مررنا فيه بسياراتنا فاثرنا فضول الجالسين إلى أراكيلهم في المقاهي ، ثم زرنا الثكنة العسكرية والمدرسة ، وكنا قد زرنا قبلاً تدمر الامس ، تدمر زينوبيا ذات الشوارع العجيبة والاعمدة الرهيبة التي لا يزال قسماً كبيراً منها واقفاً يتحدى العصور ، ويهزأ بالازمنة ، وزرنا الهيكل الفخم ، وبعضه لا يزال قائماً ، ومعظمه زال زوال كل شيء ، ورأينا في بقايا الزائل وفي الباقي منه إلى اليوم من الفخامة والضخامة ما يذهل ، ويحير ، وزرنا المدافن التي اكتشفت حديثاً ، وهي مدافن قائمة تحت الارض نزلنا اليها بسلالم حجرية فوصلنا إلى غرفات جدرانها (جوارير) الواحد منها فوق الآخر ، وكل (جارور) مدفن لميت ، وعلى اغطية معظم الجوارير صور النائمين داخلها ، منقوشة نافرة في الصخر ، سألنا مرافقنا لِمَا ليس على بعض الاغطية صور كما على غيرها ، فأجاب ان الصور على ما يظهر هي للحكام وللاغنياء وليست للفقراء من عامة الشعب ...

وطريقة الجوارير هذه هي أحدث طريقة في عصرنا الحاضر ! كذلك هي أقدم طريقة كما ظهر من هذا الاكتشاف الجديد.

ان تدمر كانت في اوج مجدها ومنعتها في القرن الثالث للمسيح، والذي يقابل بين ماضيها وحاضرها يظن انها بعد تلك الحضارة الباذخة راحت تتدهور، وقد مضى عليها سبعة عشر قرناً وهي ما زالت تتدهور!

ودعنا الكرام الذين استقبلونا في تدمر عند العصر وعدنا نقصد (المحطة الرابعة) فوصلنا اليها عند الساعة السادسة والنصف مساء، وكان مدير المحطة ومعاونوه في انتظارنا، فأنزلونا، أنا وزوجتي في غرفة خاصة، وانزلوا رفيقنا الدائم الاستاذ عبد الله عبود في غرفة ثانية، أما الغرفة التي احتللناها أنا وزوجتي فقد كانت أجمل وأفخم غرفة عرفناها في رحلتنا الطويلة، غرفة لم ننم في مثلها في أفخم فنادق الشرق والغرب التي عرفناها.

تعشينا وسهرنا في منزل الدكتور عبده مسوح (حمصي)، وكان قد دعا إلى السهرة كل موظفي المحطة العرب، اقول العرب لاني لحظت وانا أشرب قهوة الصباح وجوهاً باهتة هي ولا شك، وجوه انكليزية... هذا مع العلم ان الغرفة الفخمة التي احتلها الليلة هي للمدير الانكليزي الغائب!، وهكذا كانت سهرتنا لطيفة للغاية، أنشدنا فيها كثيراً من الشعر وسجلناه في الآلة الخاصة بتسجيل الصوت، والدكتور، صاحب المنزل شاعر، أسمعنا كثيراً من شعره الحسن.

قنا في الصباح الباكر نتفقد (المحطة الرابعة ..) وللمحطة هـذه حديث طريف لذيذ شائق ، وهو في الوقت نفسه رهيب ! تسمعه بريطانيا وفرنسا (واميركا) أيضاً فتسري قشعريرة الخوف والغضب في جلود البريطانيين والافرنسيين والاميركان ... وسائر الغربيين الذين يعيشون على نهب الشرق ، وحديث المحطة الرابعة بقدر مـا يخيف الغربيين ويغضبهم يسر العرب ويرضيهم !

في المحطة الرابعة تقرر مصير معركة بورسعيد سنة ١٩٥٦ ... لقد قام الهرم العربي في هذه المعركة على ثلاث زوايا : شجاعـة المصريين وثباتهم ، وانذار الروس للدول المعتدية ، ونسف مضخات البترول في (المحطة الرابعة) ومن يتأمل في هذه الزوايا الثلاث التي قام عليها هرم النصر العربي ، يتأكد بانّ المفعول الاقوى كان في نسف الزاوية الثالثة ان نسف مضخـات البترول في المحطة الرابعـة هو الذي أكد النصر العربي ، وعجّله ، انه قطع عن المعتدين مادة العدوان الاولى ، انه قطع الدم الذي كان يجري في عروق آلاتهم ، انه قطع عنهم البترول ...

قطعة من الارض تبلغ نصف الكيلومتر طولاً ومثله عرضاً ، قطعة من الارض سوداء محروقة ، لا ترى فيها إلاّ قطعاً من الحديد الملوّى المحطم المحروق ، اعمدة وجسور من الحديد الاسود المكسّر المفتت الممزق المحروق ، منتشرة هنا وهناك ، اشلاء جبار الصحراء مبعثرة على وجه الصحراء ، وكلها مشوهة لا تصلح لان يُصنع منها مسمار ؟.. ، لا تصلح لشيء أبداً ولا أمل لهـا في الرجوع إلى الحركة ، إلى الحياة !.

أنابيب ومواسير ودواليب واسطوانات وقضبان، كلها ممزق كلهـا محطم كلها ميت لا يصلح لشيء!

ان منظر (المحطة الرابعة) المنسوفة المدمرة المحروقة لأروع منظر تراه العين، قلت للشبان العرب المحيطين بي: ان هذه الآثار أهم من آثار تدمر وأعظم وأنفع لاجيالنـا الصاعدة، فاياكم والتفريط بهـا، حافظوا عليها وصونوها وصوروها ووزعوا صورهـا على أهل الشرق والغرب ليتعظوا!!

ودعنا الاخوان مدير وموظفي المحطة الرابعـة (الجديدة...) وودعنا الطبيب الشاعر والاساتذة، عائدين إلى حمص في الطريق الذي سلكناه في ذهابنا إلى تدمر.



حمص، ويظهر الاستاذ نظير زيتون اول الصف الى اليسار

كانت زيارتنا هذه لحمص هي الزيارة الرسمية لهذه المدينة، وان لم تكن هي الاولى، وصلناها بُعَيد الظهيرة، فزرنا الاستاذ نظير الذي لم يشأ أن يرافقنا إلى تدمر، إذ ليس في تدمر ما يرضي رغائبه... وعند الساعة السادسة مساء غصّ المركز الثقافي العربي بادباء (عروس الوعر) واديباتها ووجوه المدينـة واعيانها، وفي مقدمتهم الصديق العقيـد المحافظ مصطفى رام حمداني، والضابط الحازم قائد الشرطة سعيد الحاج، وقائد الموقع العقيد وهيب الرفاعي، ومدير التربية والتعليم الاستاذ صلاح الخربطلي.

وقف أولاً صاحب الدعوة مدير المركز الثقافي الاستاذ مختـار ابو العطاء فألقى خطاباً طيباً رحّب فيه بي وبالمدعوين ثم دعاني إلى المنبر فأنشدتُ والقيتُ كثيراً من الشعر الوطني والغزلي، وكنت كلما حاولت السكوت يصفقون ويهتفون بعد، بعد.. حتى مضت ساعة وبعض الساعة، ولما كان لكل شيء نهاية نزلت عن المنبر وهم غير مكتفين بما سمعوا. وعندما جاء دور التهنئة كان معظم اعجابهم منصرفاً إلى قوة ذاكرتي، كيف يمكن أن تحتفظ بهذا المقدار الكبير من الشعر.

من المركز الثقافي سرنا في السيارات قاصدين مطعم الميماس للعشاء بدعوةٍ من الاستاذ مختار أبي العطاء ولقد كان عدد المدعوين كبيراً وكلهم من رجال الدولتين، دولة الادب ودولة السياسة.

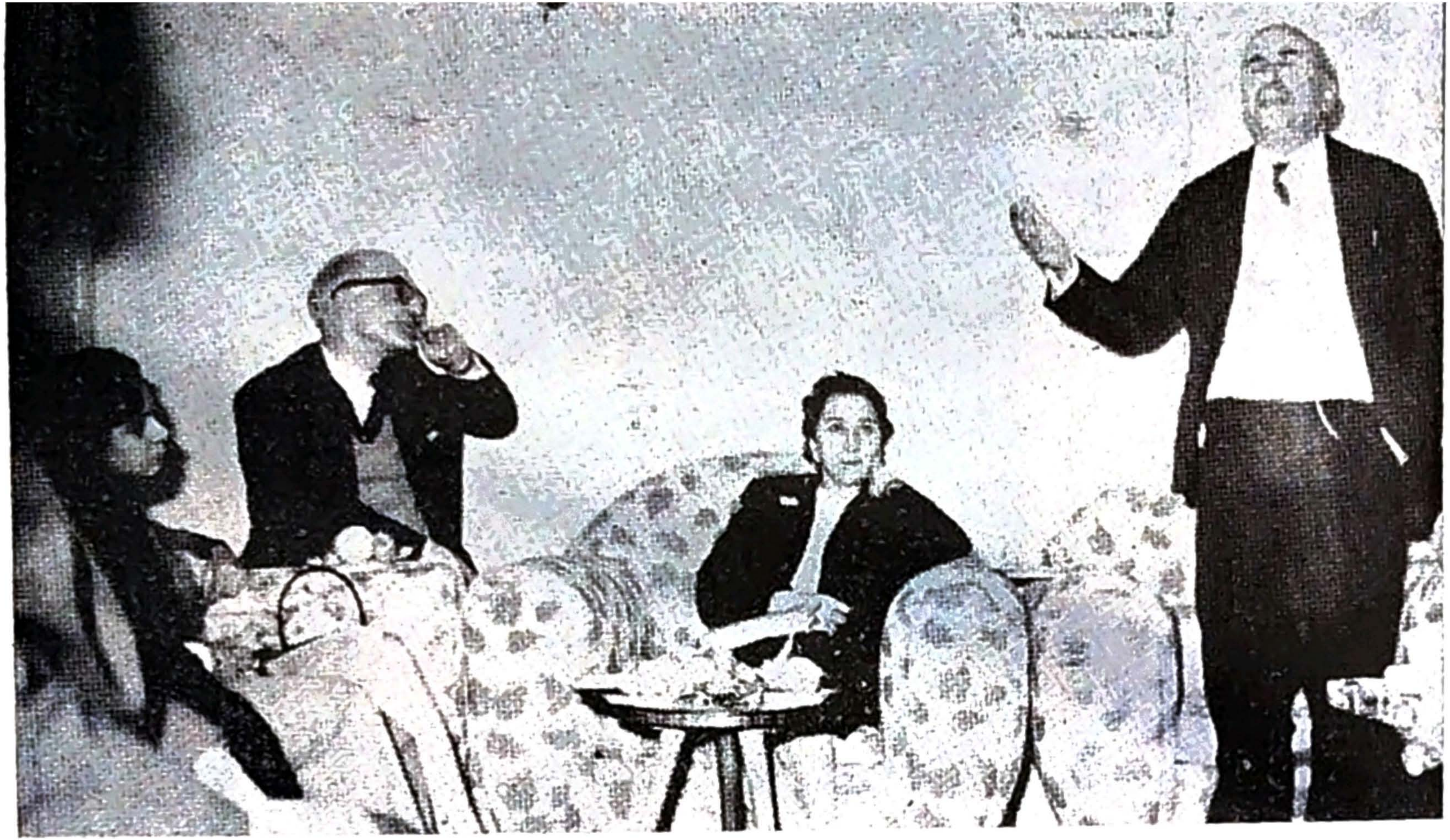
بعد العشاء أخذني المحافظ الصديق وزوجتي إلى الفندق بسيارته الخاصة، وكان قد ألحّ عليّ بالنزول عليه ضيفين، فاعتذرتُ وشكرته

ووعدته باننا سنكون ضيفيه عندما نرجع إلى حمص في زيارة الوداع، دون أن ندري ان زيارتنا تلك كانت زيارة الوداع!

في اليوم التالي كنا في دمشق، وبعد أيام في بيروت، حيث بقينا فيها وفي الجبل اللبناني إلى شهر كانون الثاني سنة ١٩٦٠ أذ عدنا إلى دمشق لتوديعها التوديع الاخير!

تعرفنا في بيروت على فئة كبيرة من الادباء، منهم العربي المؤمن المجاهد الاستاذ علي ناصر الدين، والاستاذ عجاج نويهض، وهذا كنت لقيته المرة الاولى في دمشق؛ والاستاذ بولس سلامه، الذي زرته في داره، وكان مريضاً، وهناك لقيت الشاعر سعيد عقل، كما زرت الشاعر شبلي الملاط، وكنت بصحبة شاعر كفرشيما الاستاذ وديع سليمان، والشاعر شبلي كان رازحاً تحت ثقل مرض الشيخوخة، وقد أقام لي الاستاذ السيد حسن الامين حفلةً في منزله، جمع فيها حولي عشرات الادباء، بينهم الاستاذ جورج جرداق، والشاعرة العراقية نازك الملائكة، وكنت قد تعرفت عليها في بيروت، في الفندق المائلي الذي تنزل فيه.

وفي بيروت تعرفت إلى الدكتور كلوفيس مقصود، وصحبته مرةً إلى العبادية لنسلم على الديبلوماسي الاستاذ حليم أبي عز الدين. وفي بيروت اجتمعت مرات عديدة بالشاعر (الفحل بدوي الجبل!) وبالصحافي القديم المجاهد الاستاذ محمد علي الطاهر، وبالشاعرين سليم حمدان



ببيروت ، في منزل الاستاذ حسن الامين ، وتظهر في الوسط الشاعرة نازك الملائكة ثم الشاعر جورج صيدح فالسيدة فيولا جرداق

ومحمد يوسف مقلد، وبالاديب الكبير اكرم زعيتر، وكنت اجتمع كل اسبوع بالاستاذ محمد جميل بيهم.

وتعرفت في بيروت إلى الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين السابق، وإلى رفيقه الاستاذ اميل الغوري، وإلى الاستاذ أحمد اللوساني، واجتمعت مرات كثيرة بالصديق الشاعر جورج صيدح، وما انسَ لا انسَ الاخ الودود جودة شبوع، فقد كان لي نعم الرفيق ونعم الاخ.



الجامعة الاميركية

وقد أقام لي طلاب الهندسة في الجامعة الاميركية امسية شعرية، القيت فيها كثيراً من الشعر، وبهذه المناسبة ذكرت إحدى مجلات بيروت انها سألت بعض الشعراء الشبان من الذين شهدوا الامسية الشعرية عن رأيهم في شعري فاجمعوا على انه طلي سهل بسيط ولكن

لا جديد فيه، واني محمود لاني لم أنس اللغة العربيـة في هذه الهجرة الطويلة!... فخاطبت أحد محرري المجلة بالهاتف قائلاً له: اكتب من فضلك ردّي على هؤلاء الشبان، اني أعترف بانهم أوفر ذكاء منـا نحن الشيوخ! لانهم يفهمون ما نقول من شعر قديم وينقدونه، اما نحن فلا نفهم ما يقولون من شعر حديث ولهذا يتعذر علينا نقده...

زارني في كفرشيما الاستاذ مارون عبود، ولكنه لسوء حظي، لم يجدني فيها وبما انه لم يترك لي عنوانـه رحتُ اسأل عن مقره وافتش حتى اهتديت اليه بواسطة الصديق النائب الاستاذ بشير الاعور، فهو الذي اكتشفه وهو الذي حملني اليه بسيارته، ولم يكن بعيداً عنا، انه كان في بيت أحد بنيه في جونيه، فرددنا له الزيارة الكريمة وشكرناها له شكراً جزيلاً، والاستاذ مارون قد أقعدته السنون!

في كانون الثاني من هـذه السنة ١٩٦٠ زرتُ وزوجتي دمشق لنودع المدينة الحبيبة ومن لنا فيها من احباء، إذ ان موعد رجوعنا إلى البرازيل قد أصبح وشيكاً. فزرت بصحبة الرفيق الدائم الاستاذ عبد الله عبود، امين عام وزارة الداخلية الصديق الكريم العميد محمد الجراح، في مكتبـه في الوزارة وفي عرض الحديث ذكرت له بيتين من شعري القديم، هما:

أرى موطناً كالنسر يبدو خيالهُ   على الارض ثبتاً وهو في الغيب طائرُ
جناحاه مصرٌ والعراق وصدرهُ   الشآم ومجموع الجزيرة سائرُ

فكتبهما امامه وسألني عن تاريخ نظمهما، فقلت اني لا أعرف التاريخ بالضبط، وانما هما من قصيدة طويلة عنوانها (اذا صفعت كفي جبيني) والقصيدة منشورة في ديواني الكبير الذي طبع في سان باولو سنة ١٩٣٢ فلما زرته زيارة الوداع بعد اسبوع أو عشرة أيام وجدت البيتين مكتوبين بخط فارسي في غاية الاتقان ضمن إطار جميل يبلغ طوله مترًا ونصف متر، معلقاً في صدر المكتب وتحت البيتين اسمي والتاريخ ١٩٣٠ فكان لعمل الصديق الجراح أجمل الاثر في نفسي، وقد أخبرني انه عمل من البيتين نسختين، واحدة لمكتبه والاخرى لمكتب الوزير.

جاءني وانا في دمشق، صباح يوم، الاستاذ محمد ابو درّة، يدعوني باسم وزير التربية والتعليم المركزي السيد كمال الدين حسين، لزيارة الاقليم المصري رسمياً، ويطلب مني تحديد موعد السفر ليقدم لي جوازي سفر جوًا أو بحرًا، فقبلت الدعوة شاكرًا، ولما كنت افضل السفر البحري على الجوّي عملت حساب قيام الباخرة الايطالية (اوزونيا) من بيروت، وحساب المدة التي سأبقاها في مصر. ثم حساب الباخرة التي تقوم من الاسكندرية إلى جنوه، فحساب الباخرة الاخرى التي تقوم من اوروبا إلى البرازيل، وبعد هذه الحسابات كلها قلت للاستاذ ابي درّة: اني اسافر من بيروت بحرًا في الخامس والعشرين من شهر شباط المقبل، في الباخرة (اوزونيا). بعد أيام جاءني الاستاد ابو درّة،

يحمل لي ولزوجتي تذكرتي سفر إلى الاسكندرية، فاعطانيهما وودع وانصرف.

ورحنا نودع دمشق، دمشق التي أحببناها واحببنا أهلها كثيراً ونشرت لي جرائدها قصيدة الوداع هذه:

أتبسط راحةً وتمدّ باعا ... كأنك تستطيع لها وداعا
وقلبك خالط النفحات فيها ... فلو شاء الفراق لما استطاعا
ربوع الشام يالك من ربوعٍ ... تباهي قمةً وتعز قاعا
رضعتُ هواكِ اندب حظ طفلٍ ... شتيٍّ لم يشاطرني الرضاعا
فشب - ولم يذق يتماً - يتيماً ... اذا شبعت اباة الضيم جاعا
واهل الشام كالنار امتدادًا ... إلى العلياء والسيل اندفاعا
كرامٌ ينتمون إلى كرامٍ ... اذا ذُكروا حسبتَ المسك ضاعا
غدًا يطوي جناحي البعد عنهم ... وتنشر نفخة البين الشراعا
ويفصلني عن الفيحاء بحر ... كبحر الشوق عمقاً واتساعا !
وبعد غدٍ سألقى الولدَ حولي ... ويلقى الولدُ بي رزقاً مشاعا
وولد الولد احملهم ثلاثاً ... على زندي واحضنهم رباعا
لهم حقٌ وللفيحاء حقٌ ... ولستُ بقابلٍ حقاً مضاعا
فاسأل في اضطراب الفكر نفسي ... اذا أم ذاك اولى أن يراعى ؟!
فيالهفي عليها كيف صارت ... نضارة عيشها الزاهي صراعا
وكيف تحرك الاقدار قسرًا ... امانيها انخفاضاً وارتفاعا
اذا بقيت هنا ذابت حنيناً ... وان قضت النوى طارت شعاعا

أما كيف كان وداع دمشق لنا فاليكم ما نشرتـه إحدى صحف المدينة :

« اقام الدكتور احمد الطرابلسي وزير التربيـة والتعليم مأدبـة وداع للشاعر الياس فرحات وقرينته، في نادي الشرق الفخم، دعا اليها ادباء المدينة وسياسييها » .

« واقام العميد محمد الجراح الامين العام المساعد لوزارة الداخلية وشؤون الشرطة والامن العام حفلة عشاء تكريماً للشاعر الياس فرحات وقرينته ، حضرها العقيد احمد بيلوني مدير الامن العام وكبار ضباط الشرطة والأمن وعدد من الشعراء والادباء واصدقاء الشاعر ، لمناسبة عودته الى لبنان وسفره الى القاهرة » .

« واقام الدكتور سامي الدهان عضو المجمع العلمي العربي حفلة غداء للشاعر وقرينته حضرها اصدقاء الشاعر » .

« واقامت حفلة عشاء تكريماً للشاعر وقرينته، الاديبة كوليت خوري مؤلفة كتاب (ايام معه) ، في مطعم مطار دمشق حضرها بعض الشعراء » .

« واقام المربي الاستاذ سليم البازجي مدير المدرسة الثانوية الاهلية حفلةً في منزله ضمت عدداً من الادباء والشعراء والمعجبين بالشاعر فرحات » .

« واقام الاستاذ نجيب حرب صاحب جريدة الجبل مأدبة غداء فخمـة ، في داره ، حضرها عدد من رجال الفكر والادب في جبل الدروز » .

« واقام الاستاذ قاسم مردم مأدبة عشاء فخمة ايضاً حضرها اصدقاء الشاعر » .

« واقامت السيدة ساره مشاقه حفلةً في دارها حضرها نخبة من سيدات دمشق » .

« واقام النادي العربي حفلة شاي حضرها خمسمائة مدعو تكريماً للشاعر الذي ألقى بعض القصائد الوطنية فقوبلت بالتصفيق الحاد » .

« وألقى الشاعر فرحات مساء الثلثاء في مدرج جامعة دمشق لمناسبة عيد الوحدة، في حفلة اقامتها الجمعية العربية ، قصيدةً عامرة قوبلت بالهتاف والتصفيق » .

في الرابع من شهر شباط ركبتُ وزوجتي سيارةً أخذتنا إلى بيروت، وقد اجتازت بنا (ضهر البيدر) تحت عاصفة ثلجية.

وصلنا إلى بيروت واخذنا نودع الاهل والاصدقاء، وبينا أنا افكر في زيارة القاهرة وفي مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر، الذي اعد مقابلته فرصةً ثمينة يجب الاّ تفوتني، وبينا أنا افكر في ما يجب أن اقول له عن المهجر وعن المهاجرين العرب، وبينا أنا ابني على اجتماعي به علاليَ وقصورًا، إذ بي أسمع المذياع يزعق معلناً وصول الرئيس جمال إلى اللاذقية... ثم تتالت أخبار جولته في القامشلي وحلب وحماه وحمص، ثم وصوله إلى دمشق، ونشرت الصحف أخبار المهرجانات الاستقبالية التي يقوم بها الشعب السوري نحو الرئيس الزعيم، وراحت هذه الصحف تنشر أخبار الوفود اللبنانية التي تؤم دمشق للسلام عليه، فوقفتُ حائرًا افكر في ما يجب أن افعل. أأذهب إلى دمشق مع الذاهبين واقابله مع من يقابله من الالوف، فلا هو يستطيع أن يسمع لي إذا قلتُ شيئاً ولا أنا اقدر أن اقول ما يجول في خاطري وضجيج القوم في دمشق يكاد يبلغ مسامع أهل بيروت!... فكرت في الموضوع كثيرًا، واخيرًا رأيت من الاوفق أن اذهب إلى القاهرة وانتظره فيها، إذ لا يلبث أن يعود اليها، وأنا باقٍ فيها إلى ١٩ آذار الذي هو موعد سفري إلى جنوه فالى البرازيل.

وهكذا فعلتُ، صرفت النظر عن العودة إلى دمشق، ووطنت النفس على مقابلة الرئيس في القاهرة.

في ٱلاسبوع الاخير الذي قضيته في بيروت زرت ٱلسفارة العربية مودعاً السفير اللواء عبد الحميد غالب ، وزرت ٱلسفارة البرازيلية مودعاً السفير الدكتور بوليڤار فريتاس ، وزرت بكركي صحبة ٱلصديق الاستاذ جورج الرجي مودعاً غبطة البطريرك المعوشي.

وقبل ٱلسفر بيوم واحد زرت كفرشيما فودعت ٱلاهل والانسباء والاصحاب ، وقد شئت أن الطف من حرقة ٱلفراق ، فزعمت لشقيقتي بأني مسافر إلى القاهرة واني سأعود منها إلى لبنان قبل سفري النهائي إلى ٱلبرازيل. وكنت اظن انها صدقتني ، ولكنها في ٱلليلة نفسها ذهبت إلى بيروت باكيةً مولولةً لائمةً لاني اخدعها ، بل لاني اكذب عليها !

بعد ظهر الخميس الواقع في ٱلخامس والعشرين من شهر شباط ودعت نسيباتي اللواتي بقينَ في ٱلبيت ، وهبطنا السلم بقصد الذهاب إلى المرفأ . فلقيت على ٱلباب الصديق الوفي الاستاذ محمد جميل بيهم يهمّ بالصعود إلى ٱلدار ليودعني ، ويعتذر عن عدم مقدرته على ٱلذهاب إلى ٱلمرفأ.

كان عدد ٱلمودعين على ٱلرصيف وعلى ظهر ٱلباخرة كبيراً ، اذكر منهم وفد كفرشيما المؤلف من أكثر الشخصيات بروزاً ، عدا الانسباء ، بينهم المربي القدير الاستاذ بديع هاشم ، والاستاذ سليم نهرا والاستاذ حنا المرّ والاستاذ طانيوس الخوري وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم وكان في طليعة المودعين الصديق النيور الدكتور حسين سريّ الدين ، والاستاذ الياس الحويك باسم غبطة البطريرك المعوشي ، والصديق

الصحافي الشاعر جورج الرجي صاحب جريدة (الراصد) واني لاعتذر للاخوان الباقين الذين تلطفوا بالذهاب إلى المرفأ لوداعي أو الذين صعدوا إلى الباخرة للسبب نفسه، اعتذر لعدم ذكر أسمائهم لاني لم اسجلها ساعتئذٍ ولانّ الذاكرة الآن تخونني، وارجو أن يكون عذري عندهم مقبولاً .

وبمناسبة سفرنا نشرت جريدة الراصد ما يأتي :

« غصت امسية الخميس بدموع الوداع ، وقد عبقت بها اجواء البحر الذي حمل الياس فرحات ابن كفرشيما ، مرّةً ثانيةً باعداً به عن الاهل والوطن الى المهجر البعيد ... وامس الخميس كان عَلَى فرحات ان يرفع المنديل من جديد و يمد اليد والعينين من الباخرة (اوزونيا) مودعاً اهله واحبابه الواقفين عَلَى رصيف المرفأ، يتطلعون الى المسافر الكبير غير مصدقين .

لقد غادر فرحات بيروت متوجهاً الى القاهرة لاكمال الزيارة التي بدأها في نيسان الماضي ، ومن ثم يتوجه الى البراز يل ، الى ابنائه وحفدته هناك .

وكان فرحات قد صرف الاشهر العشرة التي مضاها بين لبنان والاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة، فزار المناطق والمدن واجتمع الى الاهل والاصدقاء ورفاق الصبا .

وكان فرحات كلما سئل عن انطباعاته بعد غياب نصف قرن كان يقول :

« لا انطباعات عندي ، فانا لم اشعر في حياتي انني غبت عن هذا الوطن حق اری شيئاً جديداً فيه الآن ! » .

غير ان الوطن الذي اطلع فرحات وراح فرحات ينشر مجده الادبي والقومي في العالم، يحسّ وهو يودع شاعره، انه اليوم في حاجة اليه اكثر منه في اي وقت مضى .

والمتوقع ان يمضي فرحات في الاقليم المصري زهاء ثلاثة اسابيع ، ثم يبحر متوجهاً الى المهجر .

وكانت الحكومة اللبنانية قد منحته في الاسبوع الفائت وسام الارز الوطني من رتبة فارس، تقديراً لشعره ودوره القومي، ولهذه المناسبة اقامت وزارة الانباء والارشاد حفلةً خاصة مساء الاربعاء في فندق (بلازا) دعت اليها لفيفاً من اهل الادب والوطنية والصحافة والسياسة، فقلده الوزير علي بزي الوسام، وألقى على الاثر كلمةً طيبة قال فيها ان المسؤولين مهما سما قدرهم ، لا يمكنهم الفخر بكونهم يكرمون اديباً... فالدولة — كما قال الوزير — تكرم نفسها عندما تكرم الاديب.. ولو ان سيف الدولة أعطى المتنبي كل ما على الارض من ملك لما وفاه بعض ما اعطاه اياه المتنبي من شعر خالد !.

وقد رد فرحات على كلمة الوزير بكلمة موثرة ثم ألقى للمناسبة قصيدته القافية عن لبنان .

كما ان شركة التليفزيون قدمت فرحات في الساعة التاسعة من ليل الاربعاء في برنامج شيق من اعداد الاستاذ عادل الاسعد .

وكان الشاعر فرحات قبل سفره قد زار مودعاً غبطة البطريرك الماروني مار بولس بطرس المعوشي ، وزار سفيري العربية المتحدة والبرازيل ، كما ان وفوداً غفيرة من الاهل والاصدقاء والمعجبين وقادري ادب فرحات ورسالته قد امّوا منزله في المزرعة لتوديعه وتهنئته بالوسام . » (انتهى كلام « الراصد ») .

أبحرت (اوزونيا) الخميس مساءً وكانت ابصارنا وقد غشيها الدمع ، تودع جبال لبنان الساحرة من البحر في الساعة التي كانت فيها هذه الجبال تودع اشعة الشمس ، شمس الخامس والعشرين من شهر شباط .

كان البحر رهواً ، والسفر هنيئاً فوصلنا إلى الاسكندرية عصر اليوم التالي .

وجدنا في الاسكندرية موفد وزارة التربية والتعليم المركزية ، الاستاذ جميل أحمد زكريا ، في انتظارنا ، فسلم علينا ورحب بنا باسم

سيادة الوزير كمال الدين حسين ، وسهل لنا المعاملات المطلوبة ، ولما كانت حقائبنا كثيرة ، ولم نكن في حاجة اليها كلها ، اودعنا مخازن المكس قسماً كبيراً منها ، إذ لم نأخذ معنا إلى القاهرة إلا ما نحتاج اليه ، ثم سافرنا في قطار المساء إلى عاصمة دنيا العرب فوصلناها ليلاً ونزلنا ضيوفاً على الحكومة ، في فندق (كونتيننتال) وهو فندق فخم تنزل الحكومة فيه ضيوفها ويقصده السياح الاجانب فيكون مطبخه افرنجياً .. وقد كتبت في مذكراتي ، بعد ان تناولت فيه أول وقعة ، والمذكرات الآن أمامي انقل عنها ما يأتي : « قد كنت اظن ، قبل أن أعرف طعام الكونتيننتال في القاهرة ان طعام (سميراميس) في دمشق أسوأ طعام في الدنيا ... »

أدخلنا الاستاذ جميل أحمد زكريا إلى الفندق ، وودعنا على أن يعود الينا صباحاً ، لانه الرفيق الرسمي لنا مدة اقامتنا في القاهرة ، وفعلاً كان عندنا حوالى الساعة العاشرة من اليوم التالي ، واضعاً نفسه وسيارة الحكومة تحت مطلق تصرفنا ، فشكرنا له وللحكومة هذه العناية ، ثم لم نضع الوقت ، فقد باشرنا منذ اليوم الاول زيارة الاماكن الاثرية ، زرنا متحف القاهرة - وهو من أغنى متاحف الدنيا - وزرنا القلعة ، والمساجد القديمة ، والاهرام ، وقصور الملوك والامراء التي أصبحت ، بفضل الثورة ، متاحف ، يؤمها الشعب متفرجاً معتبراً .

من هذه القصور زرنا قصر الامير محمد علي (البرنس) فكان في نظرنا أجمل وافخم ما رأينا من قصور ، هذا وهو قصر حديث نسبياً ،

لان صاحبه، أو الذي كان صاحبه، معاصر لنا، لم يمت إلا من سنوات قليلة.

بعد وصولنا إلى القاهرة بيومين تلقيت من الشاعر الاستاذ محمد عبد الغني حسن، برقية شعرية هذا نصها:

يا طلعةً كالسنا من طلعة البدرِ
أهلًا بمن زارنا في الصوم لا الفطرِ
كأنه موعدٌ في ليلة القدرِ

ولم نكن تعارفنا بعد، وكنا في رمضان، فذهب اليه الجواب بالهاتف:

أهلًا بمن أقبلت في الصوم كالفطرِ
تحمل في شعرها دنيا من العطرِ
الخمر في عينها والشهد في الثغرِ
ما ضرَّ من صاغها لو زارنا (بدري!)

فما كان منه إلا أن تلطف بزيارتنا في اليوم التالي (بدري...) حاملًا معه باقةً نديةً عطرة من الورد، فدل بها على ذوق لطيف سليم وخلق رفيع كريم.

يوم الاثنين ٢٩ شباط، بعد ان زرنا قصر عابدين والمتحف العربي، حضرنا المهرجان الافريقي الاسيوي الثاني للسينما، في سينما (ريفولي)، بدعوة من وزير الثقافة والارشاد القومي الاستاذ ثروة عكاشة،

وهناك قدمني الرفيق الرسمي الاستاذ جميل أحمد زكريا إلى سيادة الوزير صاحب الدعوة فرحب بي كثيراً. والوزير عكاشة أديب كبير، يهتم بادب جبران خليل جبران ويترجم بعضه إلى العربية.

في أول آذار زرنا الاديب الاستاذ سعيد العريان، في قاعة (الاتحاد القومي)، وكنت قد لقيت الاستاذ العريان، من اشهر خلت، في دمشق، فبينا نحن في حديث طويل (معقد شائك) وصل الوزير كمال الدين حسين إلى مكتبه الكائن في البناية نفسها، فذهبنا نسلم عليه ونشكر له دعوته الكريمة، فرحب بي كما يرحب الصديق بالصديق، إذ كنا تعارفنا سابقاً بدمشق، فاخبره العريان عن حديثنا (المعقد الشائك ...) ورحت أنا أشرح له وجهة نظري، وقد سرني ان الوزير اقرني عليها لانه وجد الحقّ في جانبي.

في هذه الليلة تناولنا طعام العشاء على مائدة الصديق الاستاذ ممتاز الخطيب والسيدة الصديقة عائدة قرينته، وكانت شقيقتها الآنسة مي سري الدين في زيارتها، وهما اي الشقيقتان عائدة ومي شقيقتا صديقتي الوفية الغالية سلمى سري الدين عبد الله، جارتي في البرازيل، والاخوات الثلاث كريمات الدكتور حسين سري الدين، في بيروت فرحنا نتحدث عن القاهرة ولبنان والبرازيل ونعطر الجوّ بذكر الصديقة العزيزة سلمى!.

ولبيت في القاهرة الصديق القديم والاخ الكريم الاستاذ عبد المجيد طرابلسي قنصلنا السابق في سان باولو، وكان قد نقل من

وظيفته في البرازيل إلى مفتش في وزارة الخارجية في القاهرة، فسررنا كثيراً بهذا اللقاء وزرناه في منزله ونعمنا بلطف وكرم قرينته المهذبة السيدة سعاد الخفار، وهي من مفاخر السيدات العربيات، كذلك زرنا الاخ الغيور الدكتور سامي الدروبي والسيدة الراقية الوافرة الذكاء والجمال والتهذيب احسان (ام مصباح) قرينته. والدكتور سامي موظف في إحدى الوزارات، وعضو في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب، وكان قد كتب إليَّ وانا في بيروت يطلب مني نسختين من كل ديوان من دواويني لينظر المجلس الاعلى فيها وفي اعادة طبعها، والاخ الدكتور سامي صديق وفيٌّ كريم، حرّ التفكير، عالي الثقافة، عرفناه أول ما عرفناه، يوم كنا (مقطوعين) في القاهرة، اي يوم وصولنا من البرازيل فآنسنا بلطفه وغيرته كل ما كنا قد لقينا من مشقة وعناء، وسهل لنا السفر إلى دمشق.

كذلك زرنا في القاهرة الصديق الكبير الاستاذ صلاح الدين البيطار، الذي كان وزيراً فاستقال دون أن يفقد شيئاً من مركزه السامي في قلوب عارفيه، ان الرجل الرجل لا يكبر بالوظيفة ولكن الوظيفة تكبر به. وهي لا تقوده وانما هو الذي يقودها حتى إذا شمست تخلى عنها غير آسف عليها.

لقد اجتمعت بهذا الاخ الكريم عدة مرات، في بيته وفي الفندق وفي المقهى الذي كنا نزوره معاً، وكنا نتحدث عن السياسة العربية، وكنت احاول استدراجه إلى ذكر الاسباب الحقيقية التي جعلته وزملاءه

يستقبلون متضامنين، فلم أسمع منه كلمة عتب على أحد ولا لفظة لوم لاحد، ولقد قال لي بعد أن رأى الحاحي، وهو يعلم اخلاصي للوحدة العربية وللعروبة، ويدرك تشبثي بهما: « قد اختلفت نظرياتنا، فاستقلنا، ونحن ندعو لزملائنا الباقين في مراكزهم بالنجاح، فاذا نجحوا كان هذا الذي نتمناه للوحدة وللجمهورية وللعروبة، وإذا اخفقوا ورأوا أن يستفيدوا من خبرتنا واخلاصنا فنحن هنا...

يوم الثلثاء الواقع في الثامن من آذار لبيت دعوة الاستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي لحضور حفلة تقيمها على شرفي رابطة الادب الحديث التي هو رئيسها، فكانت هذه أول حفلة تقام لي في القاهرة، ولقد حضرتها وحدي دون زوجتي، لان هذه كانت من يومين تحت تأثير حمى شديدة اصيبت بها فجأةً وظلت تعاني منها حتى يوم تركنا القطر المصري إلى البرازيل.

ذهبت إلى هذه الحفلة حزيناً فاستقبلني الاخوان المجتمعون هناك بالتصفيق وكان عدد الحضور كبيراً وأنا لا أعرف منهم أحداً، تكلم فريق من الادباء والشعراء، ومن هؤلاء الشاعر حسن كامل الصيرفي الذي كنت اعرفه باسمه، منذ ان قرظ (ديوان فرحات) المطبوع في سان باولو سنة ١٩٣٢. ثم تكلم فتىً فزعم اني لم اكن في صغري ذكياً، أو ان ذكائي لم يظهر إلا بعد ان أصبحتُ رجلًا في الثلاثين من عمري! فلما جاء دوري وقفت وشكرتُ ثم قلتُ موجهاً كلامي إلى الفتى: لو قلتَ في كفرشيما ما قلته هنا لردَّ عليك أهلها رجالاً ونساءً، ولردّت

أرضها وسماؤها، منكرين عاتبين، وربما غاضبين! انهم هناك، أي في كفرشيما لا يزالون يرددون أزجالي اللبنانية ويعجبون كيف يمكن لطفل في مثل سني أن يأتي بهذه المعاني... قلت هذا الكلام ضاحكاً ولكني قلته جادًّا صادقاً!، فلم يحر هو جواباً. ثم أنشدت شيئاً من شعري وعندما انتهت الحفلة جلستُ إلى جانب هذا الفتى الاسمر الذي زعم ما زعم، ورحت أتجاذب واياه أطراف الحديث، فاعجبني تفكيره واطلاعه الواسع (إلا على زجل طفولتي..) فقلت له من أنت وما اسمك؟ فأجاب بوداعة ولطف (اسمي وديع فلسطين) فبهتُّ لهذا الاسم الذي اعرفه جيدًا واعجب بصاحبه دون أن أرى له وجهاً، فقلت يا سبحان الله! اني منذ وصلتُ إلى القاهرة اسأل عنك واعجب لاختفائك، وانت اليوم تخطب في حفلتي دون أن أنتبه لاسمك، فعفواً ومعذرةً. وقمنا مجددًا نتصافح ونتعانق كأننا اخوان التقينا بعد فراقٍ طويل.

قبل ظهر هذا اليوم الواقع في الثامن من آذار رنَّ جرس الهاتف فقمت إلى الجهاز فسمعتُ صوتاً انثوياً ناعماً يسأل: «الاستاذ الياس فرحات؟» قلتُ نعم أنا هو، فقالت المتكلمة: «أنا نجاة شاهين - من جريدة (وطني) ارجو منك يا استاذ ضرب موعدٍ تعطيني فيه حديثاً يهم قراء الجريدة، فقلت ان موعد الغداء قريب، تفضلي تغدي معنا وخذي ما تشائين، قالت أما الغداء فلا، أنا يا استاذ صائمة! فقلت متعجباً: صائمة؟! قالت نعم صائمة. قلت هل تسمحين لي بسؤال صغير؟ قالت تفضل سل ما تشاء، قلت أآنسة أنت أم سيدة؟ فقالت لا والله آنسة يا استاذ!



القاهرة ، في منزل الشاعر عادل الغضبان ، ويظهر في الرسم الشاعر عزيز اباظه وكريمته والصحفية الصديقة نجاة شاهين وانا

قلت هل تسمحين لي بسؤال آخر؟ قالت تفضل! فقلت ضاحكاً: أنا أعلم ان الرجال يصومون هنا طمعاً في أربعين هناك.. فلم تصمن انتنّ؟! فاجابت فورًا: أنا اصوم هنا طمعاً بالحصول على واحد هنـا... وأرى ان واحدًا هنا أفضل من أربعين ومن أربعمائة هناك!... وانتهي الحديث بضحكة عالية من الجانبين!

زارتني الآنسة نجاة شاهين واخذت ما أرادت من حديث، وقد لقيتها بعدئذٍ عدة مرات وتوطدت بيننا عرى الصداقة المقرونة بالاحترام.

زرت يوم الخميس، العاشر من آذار سيادة الوزير كمال رفعت في مكتبهِ، وكنت قد علمت انـه يهتم بشؤون المغتربين العرب ورعاية مصالحهم، فتحدثت اليه بحرية وأطلعته على رغبة العرب في المهجر وعلى بعض حاجاتهم، واذكر اني قلت له ان الذين يدسون على الوحـدة، ولا سيما عليكم، أنتم المصريين كثيرون، وانهم لا ينامون، فالامل أن تسدّوا في وجوههم أبواب الدسّ بان تجعلوا المهاجرين العرب (السوريين) يشعرون انهم شركاء في هـذه الجمهورية الفتيـة لا مجرد رعايا فقط! وابديت لسيادته بعض ملاحظات تقبلها راضياً، ولم يكن معنا ونحن نتحدث إلا رفيقي الرسمي الاستاذ جميل أحمد زكريا، فلما ودعنا وخرجنا إلى الشارع أثنى هذا الرفيق على صراحتي قائلًا بمثل هذه الصراحة وهذا الاخلاص لا يبقى للدساسين رزق!.

وكنت قد علمت ان عملاق الادب الاستاذ عباس محمود العقاد يعقد في كل يوم جمعة ندوة في داره للادباء والشبان. فيتحدث اليهم

ويجيب على اسئلتهم، وكان يوم الجمعة (١١ آذار)، وكان الصديق الاستاذ نظير زيتون، قد قدم من سوريا ومعه شقيقته الآنسة جوزيفين، فقلت له يا نظير: ما قولك لو تركنا جوزيفين عند جوليا، وذهبنا معاً لزيارة العقاد؟ فقبل نظير الاقتراح، وقام الاستاذ جميل أحمد زكريا إلى الهاتف يستأذن لنا من الاستاذ العقاد بزيارتـه، فكان جواب العقاد ترحيباً، فركبنا السيارة وذهبنا قاصدين ندوة العقاد في مصر الجديدة، وصلنا ودخلنا فقابلنا زعيم الادب العربي المعاصر بمزيـد من البشاشة والترحيب، فعرفته أنا بنفسي وقدمت اليـه نظيراً، وكانت الندوة معقودةً في غرفةٍ متوسطة الاتساع، وكانت هذه الغرفة ملأى بالشبان فاشتركوا مع الاستاذ بالترحيب بنا، فاجلسني العقاد إلى جانبه وجلس نظير إلى جانبي، فقال لي العقاد: انّ هؤلاء الشبان يرغبون في سماع شيء من شعرك، ويسرّني أن اعلمك انهم وان كانوا شباناً، لا ينظمون الشعر الحرّ ولا يحبونه! فهلّا ارضيتَ رغبتهم؟

فشجعني وصفه لهم على القاء القصيدة التي القيتها بحلب، إذ ان فيها تعريضاً صريحاً بالشعر الحرّ وباصحـاب الشعر الحرّ وبالشعر الرمزي وباصحاب الشعر الرمزي... وعليه فهي ترضي أصحاب الشعر الرصين! فألقيتها على مسامعهم فصفقوا لها كثيراً واكتسبت كلمة ثناء بسببهـا من الاستاذ الكبير. ثم راح الشبان ينشدون أشعارهم، وكان بعض هذه الاشعار من النوع الجيد.

وكان رفيقي الاستاذ جميل أحمد زكريا قد استأذن ليذهب إلى صلاة الجمعة في مسجد قريب، على أن يعود دون ابطاء، وكان الظهر، فقام الشبان وودعوا فبقيت ونظيراً نتحدث إلى العقاد بما حضرنا من موضوعات أدبية، وكنت لحظت ان غياب جميل قد طال، وفكرت في ان العقاد باقٍ في مكانه بسببنا وقد يكون هو الآخر راغباً في الصلاة فقلت لنظير: قم ننتظر جميلاً في الخارج قرب السيارة فانه لا بدّ آتٍ قريباً فقد طال مكوثنا في حضرة الاستاذ، وهكذا استأذنا وودعنا وما ان بلغنا الشارع حتى كان جميل قد عاد فركبنا السيارة وقفلنا راجعين مغتبطين بان تعرفنا إلى عملاق الادب!.

في اليوم التالي (السبت ١٢ آذار) أقام لي الشاعر السوري المتمصر، الحلبي، عادل الغضبان والسيدة الفاضلة قرينته، حفلة في منزلهما حضرها أكثر من سبعين مدعواً بين ناظم وناثر ووزير ورئيس جامعة وسفير واحد هو سفير المكسيك! فازدحم المنزل بالمدعوين، واذكر ان كان بينهم الشاعر عزيز اباظه وكريمته ونظير زيتون والصحفية الصديقة (الصائغة!) الآنسة نجاة شاهين، وعندما اكتمل عدد المدعوين نهض صاحب الدعوة فألقى قصيدة طيبة كان قد أعدها لهذه الليلة الانيسة، واني إذ اثبتها هنا في كتابي هذا لا اقصد إلا تكريم هذا الشاعر الذي كرمني، قال:

اخو البلابل!

الى الشاعر العربي الكبير الاستاذ الياس فرحات

بلابل النيل من أفياء قحطانِ ... حيّ اخاك بسجعٍ منك فتانِ

وسكّني ثائر الاشواق من مهجٍ ... حرّى تململ من وجدٍ وتحنانِ

وشنفي السمع واروي عن جهاد فتىً ... بالعرب مفتخرٍ للعرب غضبانِ

لو رقعة الشهب كانت ارض غربتهِ ... لشاد للضاد صرحا فوق كيوانِ

حبّ العروبة يجري في جوانحهِ ... كما جرى الدم في عرقٍ وشريانِ

يقول للسائليه عن عقيدته ... بعزة العرب، بعد الله، ايماني

وافى يداوي بسحر الشام مهجتهُ ... وملأ العين من فردوس لبنانِ

وحلّ بالنيل ظمآنا الكوثرهِ ... فعبّ منه واروى غلّ ظمآنِ

شفى الحشاشة من سقم النوى ومضى ... يفري البحار إلى اهلٍ وولدانِ

رماهم البينُ في ارجاء مغتربٍ ... فاوثقته بهم امراس كتّانِ

يا ابن الديار اذا عفتَ الديار فكن ... نعم الرسول إلى صحبٍ واخدانِ

ان يسألوك عن الوادي وعن بردى ... فقل هما لسواد العين جفنانِ

ضمتهما الوحدة الكبرى على محنةٍ ... من بعد وحدة آمالٍ وأشجانِ

وقل رأيتُ الفتى المريَّ صانهما ... من ناب غولٍ ومن اظفار ذؤبانِ

حتى غدا الروض في اكناف حارسهِ ... حرّ الجداول، حرّ الزهر والبانِ

يصغي إلى الطير تشدو في منابرهِ ... الايك ايكيَ والغدران غدراني

* * *

بلابلَ الروض زار الروض مستلماً ... فتىً يجاريك ِ ألحاناً بألحان ِ
يستلهم الشعر من افق الجمال ومن ... روح النضال، كلا الوحيين روحاني
شعرٌ هو النور طيباً والصباح سنىً ... لكنه في العوادي وقد نيران ِ
يصلي بـه كل غدار ويرسله ... دون الحمى حمماً في وجه قرصان ِ

* * *

يا شاعر العرب تسبينا بدائعه ... كأنها قطع من روض رضوان ِ
تطوف بالحسن من وادٍ إلى جبلٍ ... وتقبس السحر من احداق غزلان ِ
رقىً تؤلفها شعراً وتبعثه ... سحر النهى في افانين ٍ وألوان ِ
معصورة فيه راح الخلد تسكبها ... روحاً بأقداح ألفاظٍ واوزان ِ
روائع عربيات النجار بها ... مياسم العز من اعراق قحطان ِ
جديدة في معانيها لحالية ... من الربى جددتها كف نيسان ِ
بمثل شعرك تزهو كل قافية ... ترجو الخلود لاجيال ٍ وازمان ِ





في منزل الشاعر عادل الغضبان و يظهر في الرسم هو والسيدة عقيلته ، وفي اول الصف من اليمين الاستاذ سامي الشوا

فصفق الحضور له كثيراً، ثم ألقى الاستاذ بولس غانم قصيدةً عنترية بصوته العنتري، فأجاد إجادةً تشكر وتكلم غير هذين الشاعرين نثراً، ثم جاء دوري فشكرتُ وانشدتُ كثيراً من الشعر الوطني والوجداني، ثم رغب إليّ صاحب الدار أن القي القصيدة التي القيتها في كفرشيما ففعلت ولحظت ان رضى الحضور كان تاماً، وكان ختام هذه الحفلة الادبية الرائعة عزفاً على (الكمان) قام به امام العازفين الشيخ الفتى الاستاذ سامي الشوّا.

كانت حفلة الاستاذ الشاعر عادل الغضبان غذاءً للارواح والاجسام إذ أكل الناس فيها وشربوا وسمعوا...

وكنت قبل ذهابي إلى منزل (الغضبان - الراضي) قد سجلتُ حديثاً لمحطة الاذاعة، وما ان وصلت إلى البرازيل حتى لقيني أحد الاخوان قائلاً: سمعنا امس حديثك من اذاعة القاهرة، فقلت له انك أوفر حظاً مني لاني لم أسمع شيئاً... ولا اذكر شيئاً من حديثي هذا!

الاحد، الثالث عشر من شهر آذار كان موعد الحفلة الرسمية التي دعا اليها سيادة الوزير كمال الدين حسين باسم المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب.

اقيمت هذه الحفلة الفخمة في (هلتن النيل) وقد ذكرت جرائد القاهرة ان عدد الحضور كان أربعمائة استاذ منتخبين من أربعة ملايين هم سكان القاهرة! كانت حفلة افطار لاننا كنا في رمضان، وكانت مع هذا حفلة رائعة بمن شهدوها وبما قيل فيها. افتتحها الوزير كمال الدين

حسين بكلمة طيبة ، ثم تكلم بعده عميد كلية الآداب الاستاذ محمد مهدي علام ، فحلل شعري ببلاغة وفصاحة نادرتين ، وقد سرني انه جاء على ذكر قصيدتي (عروبتنا) فاورد بعضاً من أبياتها . قلت انه سرّني لان نشر هذه القصيدة في المواقف الرسمية ، ولا سيما بين المسلمين ، يهمني ذلك لانها برنامج تفكيري الوطني السياسي العملي ! ...



الوزير كمال الدين حسين

ثم جاء دور الشاعر الصديق صالح جودة فألقى قصيدةً من عيون الشعر، لا أستحي أن أقول انها أعجبتني كثيراً، مع انها مديح لي... وقد أعجبت الحضور كلهم – وها انذا اعاملها هنا كما عاملت قصيدة الشاعر (الغضبان) والسبب عينه، قال صالح جودة :

لا تلوموه ان تجاوز حدّه ... وجنى الروض وردةً اثر ورده
لم يدع لي معنى اردّ عليه ... يوم تكريمه بساط المودّه
لا تلوموه انه صاحب الروض ... ونحن الفراش نقطف بعده
فاذا صغتُ فيه معنىً انيقاً ... فهو منه هديةٌ مستردّه
واذا كان في نشيدي قصورٌ ... فاعذروني فانني لستُ ندّه
شاعرٌ فيه حكمة (المتنبي) ... وانطلاق (الرومي) جرساً وجدّه
واباء (الشريف) اذ يتحدى ... كلَّ مستكبرٍ يصعّر خدّه
وعناد (العقاد) حين يرى الرأ ... يَ ويأبى أن يسكت القول عنده
وله تارةً جنوح (المعري) ... لظنون تؤلب القوم ضده
وله في الجهاد من (شاعر النيل) ... لهيبٌ لا يطفئ السيل وقده
وله السحر في جزالة (شوقي) ... والبحور السرية الممتده
وبه في غرامه مثل ما بي ... انّ ليلاه ليس تحفظ عهده
خذلت قلبه فعاش سنيناً ... في اسارٍ من قصة مستبده
قيدته (بخصلة الشعر) طفلا ... فارحموه اذا تعشق قيده

اخرجته من جنة الشرق حوّاء   كما أخرجت من الخلد جَدّه ا
فمضى يركب المحيط ويسعى   وهو يرجو السلوّ في كلّ بلده

* * *

لهف نفسي عليه في الشوق والغر   بة يبتاع شدّتين بشدّه
حاملاً كشةً ينوء بهـا الظهر   وشمس الجنوب تحرق جلده
وقتاد السبيل يحرق نعليـه   وحمل الهموم يثقل زنده
راح قومٌ من قبله واطمأنوا   لحياة طرية العيش رغده
غير ان الفتى بضاعتـه الشعر   وبين الرغيف والشعر عقده
اي بيتٍ في الحب ادنى اليـه   من قصورٍ عتيـقة القلب صلده
عاش ما عاش والقناعة تطويه   حزاماً ان عضه الجوع شدّه ا
أو تعرى يقول لا يتعرى   من عليه من الكرامـة برده
هكذا عاش فيلسوفاً أبياً   يتساوى الهناء والبؤس عنده
ان بني الناس مجدهم من ثراء   فهو يبني من العروبـة مجده
يا أخانا وقـد بلغت حمانا   ركعةً عنـد أرضه ثم سجده
ركعة عند قصةٍ توقظ الشرق   وتوحي له وترفع بنـده
سجدة عنـد ثورةٍ تدعم الحقّ   وتبني له وتنصر جنـده
وسلاماً على فتىً عربيٍ   عاهد الله ثم أنجز عهده
وعلى راحتيه قـد ولد الخير   فلم تستطع قوى الشر وأده
نصرته عناية الله في الجلّى   على سابقيه عدًّا وعدّه
زأرةٌ منه في العرين أطاحت   بالافاعي وجمعت فيـه أسده

جمعتهم على بساطٍ من الحقّ … شعاراته سلام وحيده
ودعتهم إلى جهاد الاعادي … الجلاء يمضي إلى غير عوده
ونحتهم إلى بناء من القوّة … لبناته ائتلافٌ ووحده
انظر الشعب من رحى بورسعيد … كيف يبني على الجماجم سدّه
انظر الشعب في الخليج كدفق … السيل لا تملك العواصف صده
انظر الشعب في المحيط محيطاً … بفرنسا المنحلة المنهدّه
انظر الشعب في العراق جميعاً … كلما زاد خطبه ازداد حدّه
حكمته عصابةٌ في (تموز) … خالها الناس أهل غوثٍ ونجده
واذا مآتمٌ وفتاها … آثمٌ … والذي خلفه أهل ردّه
عصفوا بالملوك ثم أقاموا … للمماليك دولة مستبده
سحلوا الابرياء في كل دربٍ … واحالوا القضاء دوّار عمده
في غدٍ يحمل الفرات اليهم … غضبة الشعب حين يحطم قيده
وغدًا يحمل الفرات الينا … آية الله حين ينصر عبده
قد صحا الوعيُ وانتهى عهد من كا … ن بحق الشعوب يلعب نرده
أيها الشاعر الذي عاش يدعو … العرب للمجد قد بلغنا اشُدّه
وصدقنا في الثورة الوعد لله … فحقاً ان يصدق الله وعده

* * *

ولما جاء دوري وقفت متأثرًا أولاً لغياب الرئيس جمال عبد الناصر الذي كنت اود أن يسمع ما اقوله فيه، وثانياً لغياب زوجتي المريضة

في ٱلفندق، وكنت اود لو انها كانت إلى جانبي لتسمعني في هذا ٱلموقف الذي تحدق إليَّ فيه، ثمانمائة عين لاربعمائة استاذ أدب وشعر ا...

شكرتُ أولاً للسيد الوزير وللمجلس الاعلى هذا ٱلتكريم، ثم رحت أتكلم نثرًا، ذكرتُ كيف سمعتُ بالمذياع خطاب الرئيس جمال يوم أمم شركة قناة السويس، وسمعت هتاف ٱلالوف من اخواننا المصريين الذين كانت علاقتنا بهم في تلك ٱلايام علاقة عروبية عاطفية فحسب، لان الجمهورية العربية المتحدة التي تجمعنا تحت جناحيها اليوم لم تكن وُلدت بعد، وكنت أسمع تهديد فرنسا وانكليترا وتوعدهما باستعمال القوة، وكيف اني لم اصدق ان الحماقة تدفع بهما إلى ٱلهجوم على ٱلقناة لاسترجاعها واغتصابها من أصحابها الشرعيين، وكيف اني عندما تركت ٱلمذياع كنتُ قد نظمتُ قصيدة بعثت بها في اليوم التالي إلى اذاعة القاهرة، وكانت القصيدة ما يأتي:

أفتى العروبة يا جمال — على القلوب هواكَ فرضُ
لك في الدنى رفعٌ — وللمتحاملين عليك خفضُ
شتان بينكما فهم — زبد الحياة وانت محضُ
وكأنما أنت السماء — وهم على الغبراء أرضُ
وكأن ذكرك في رحا — ب الكون نافجةٌ تُنفضُ
أمجاد مصرَ أتتك يز — حم بعضهنَّ اليك بعضُ

فاسهر لهن فما لمقلة حارس الاوطان غمض
وصن الكنانة للعرو بة انها شرف وعرض

* * *

اخواننا ، للقوم شقشقة وعربدة وركض
لا يأبهوا لضجيجهم ما كل نباح يعض

فتعالى الهتاف وطال وسمعت قائلا يقول : « ولكنهم عضوا ! »
فقلت اجل عضوا وحطموا أنيابهم !

هرّت كلاب الغرب تشكو الويل مما انتابها
عضت حذاءك يا جما ل فحطمت أنيابها
أبت الكنانة أن يدو س الغادرون ترابها
فغدت جحيماً عندما اجتازوا اليها بابها
ومشت اسود النيل للهيجاء تحمي غابها
ودوي زأرتها يشق عن السماء حجابها
وكأنما خمر المنية أسكرت شرّابها
فتدافعوا يتناولو ن بلذة أكوابها
الله أكبر ! العروبة جردت قرضابها
وستسمع الدنيا على غدر اللئام جوابها !

فعادوا إلى التصفيق والهتاف وعدت إلى القول : واخيراً، عندما عادوا مدحورين مذمومين، رأيت أن آخذ الاسد البريطاني من اذنه واهمس له فيها :

بريطانيا ! أسمعت وعظ الدهر أم لم تسمعي؟
وقع الذي ما كان عند ك قطُّ بالمتوقعِ
من رحتِ تجتهدين في تفزيـه لم يفزعِ
كَبُرَ الصبيُّ فصار يضحك من حديث البعبعِ ..

* * *

جئناك بالحق الصريح فجئتنا بالمدفعِ
قلنا القناة لاهلها لا للغريب المدّعي
ما للابالس في ثرى الفردوس مغرز إصبعِ
فركبتِ رأسك لا تعين وكان حقك أن تعي !
ومضيتِ يدفعك الغرور بوجهه المتدفعِ
سكرى بقرصنة الأُلى نهبوا الانام لتشبعي
وبنوا لك المجد المطلّ على الجهات الاربعِ
مجد اللصوص المو لين على قبور الجوّعِ ...

* * *

بريطانيا ! حيِّ جمالاً - من بعيدٍ - واخشعي
ما شقّ دملَ كبريا ئك غير هذا المبضعِ !

فظلوا يهتفون ويصفقون حتى قلت :

هذا ما كان بالامس ، أيها الاخوان ، أما قصيدتي التي نظمتها لهذا اليوم ، فهي ما ستسمعون ، وهي ما كنتُ اودّ أن يسمعها معكم الرئيس الغائب الحاضر ا وهي :

يا مصرُ كنتُ أراكِ في أحلامي ... فأرى الشباب وقد كهلتُ أمامي
يا طلعة الامل الضحوك تحيةً ... فيها حرارة صبوتي وهيامي
يا موئل الاحرار ممن حققت ... لهم السيوف امانيَ الاقلامِ
لي في هواكِ مذ احتلمتُ رسالةٌ ... ما زلتُ انشرها على الاقوامِ
ضجَّت بها دنيا العروبة والتقت ... اصداؤها في الشاسع المترامي
وتراحمت سود السحائب حولها ... تسقي رمال البيد وهي ظوامي
فتلفت النيل العظيم مباركاً ... صباً له يزري على اللوامِ
متحمساً يسع العروبة قلبه ... وكلامه ضربٌ من الالهامِ
يدعو الشباب إلى العناد لأنه ... ما عابهم شيءٌ كالاستسلامِ
والى اقتناص النسر وهو محلقٌ ... والى اقتحام الاسد في الآجامِ
ان الشباب حماسةٌ وشجاعةٌ ... ومروءةٌ وترفعٌ وتسامِ
تمتاز قيمته ويعرف قدره ... بالحزم لا بإناقة الهندامِ
أوَ ما ترون جمالاً الماضي على ... وحي الشباب كشفرة الصمصامِ
مدَّ اليدين الى أشاوس يعربٍ ... بوثيقة المستقبل البسّامِ
فيدٌ على الارز النضير تهزهُ ... بلباقةٍ ويدٌ على الاهرامِ

جمع الكنانةَ والشآم بعزمهِ ورمى عدوَّهما كأبرع رامِ
فتمازج القطران بحرًا طامياً متوثباً ابدًا ببحرٍ طامِ
ومضى الدخيل يعدّ باقيَ عمره بعد السنين السود بالايامِ
ذهبَ الزئير وراءه وأمامه بغروره فصحا من الاوهامِ
ودرى الحقيقة حين ابصر نفسهُ كالشلو بين مخالب الضرغامِ

* * *

مرحى فتى الوادي املأتَ نفوسنا أملًا بهدم الغاصب الهدامِ
ووقفتنا بعد انخفاض جباهنا وظهورنا للناس كالاقزامِ
عصفت بنا قبل انتفاضتك التي جلَت الظلام عواصف الظلّامِ
فأصابنا والحادثات تلفنا بضبابها سكرٌ بغير مدامِ
كنا حيارى لا الطريق امامنا بادٍ ولا هادٍ من الحكامِ
ترمي بأعيننا البلاد فلا نرى إلاّ بصيص أشعةٍ في الشامِ
حركات شبانٍ يدلّ حدوثها ان الحياةَ تدبُّ في الاجسامِ
شيءٌ من الآمال يبرق خاطفاً فتليه أشياءٌ من الآلامِ
حتى طلعتَ فأشرقت آفاقنا وازال نور الحق كلَّ ظلامِ
سرت النضارة في هشيم رجائنا وكما الربيع فدافدًا وموامي
وكأنما انقطعت حبال مذلةٍ ربطت رؤوس العرب بالاقدامِ
فتطاولت قاماتهم وتصاعدت نظراتهم كبَرًا الى الاجرامِ
ومشى شباب النيل تحت نخيله فتمسحت سعفاته بالهامِ
سحرٌ شملتَ به الجميع كأنه يسري الى الانفاس في الانسامِ

تثب العجوز، اذا دعوت، صبيّةً والشيخ ينهض طافرًا كغلامِ
ويثير ذكرك في الجبال حماسةً تجري الى الشطآن بحر ضرامِ
حُمِّلتَ اثقال العروبة كلها فردًا وقمتَ بهنَّ خير قيامِ
ومشيت والدرب الطويل أسنّةٌ ويخاله المخدوع ريش نعامِ
أنى لمثلك ان ينام وعلمه أنّ العدى حوليه غير نيامِ
ويرى فلسطين التي من جرحها في كلّ قلبٍ كلّ جرحٍ دامِ
أبناؤها - وهي الغنية - أصبحوا يتحملون مذلّة الايتامِ
وهناك في أقصى الشمال سبيّةٌ أخرى عنت قسرًا لغير كرامِ
(إسكندرون) ولا إخالك ناسيًا ذهبت هدية مومسٍ لحرامي!
والله، والقمرين، والشرف الذي جعل العروبة في أعزّ مقامِ
ان لم نُعِد حقيها ونصنها كانت مفاخرنا ركام كلامِ
دعوى البطولة لا تصحُّ لساكتٍ عن حقهِ متغافلٍ متعامِ
فأعد كرامتنا بمنطق مؤمنٍ متشبثٍ بالحق أو بحسامِ
فلأنت يا سند العروبة قائدٌ بطلٌ وقاضٍ عادلٌ ومحامِ
ولنحن في الجلى اسنتك التي لو شئت لارتفعت على الاعلامِ
فارمِ العدوّ بنا ونم مستبشرًا بالنصر، إنّ النصرَ في الإقدامِ!

* * *

لقد قوطعت أبيات هذه القصيدة بالتصفيق مرارًا، ولما انتهيت من القائها انتهت الحفلة، فصافحني الوزير مهنئًا، وقدّم لي رجلًا كان جالساً إلى يساري، وليس بيني وبينه إلا الآنسة جوزيفين زيتون التي

احتلت (موقتاً) كرسيّ زوجتي المريضة ، قال الوزير كمال الدين حسين ، اعرّفك إلى عميد الادب العربي الدكتور طه حسين ا فطنّ هذا الاسم الضخم في اذني طنين جرس العيد.. فصافحت الدكتور طه بكلتا يديّ قائلاً : انها من أسعد الفرص يا دكتور ، فرد على تحيتي بمثلها ، واقبل عليّ الناس مصافحين مهنئين ، ولقد ذكرت إحدى صحف القاهرة ان الوزير كمال الدين حسين ، قال للشاعرين صالح جودة واحمد رامي ان الجمهورية تنتظر منهما أن يواصلا العمل الذي باشره فرحات من خمسين سنة ا وهكذا انصرف الناس وهم يتحدثون عن هذه الحفلة العظيمة ، ولقد نسيت أن اذكر انهم تلقوا من عملاق الادب عباس محمود العقاد ، من أسوان ، برقية يقول فيها :

(أتم الله فرحات العرب بفرحات الادب ا)

في اليوم التالي ، اي في اليوم الرابع عشر من آذار زارني في الفندق قائد موقعة القدس الكولونيل عبد الله التل ، وقدم لي كتابه النفيس (كارثة فلسطين) وقد ملأه بالوثائق المصورة (كليشهات) وكلها تثبت خيانة عبد الله بن الحسين الهاشمي للقضية الفلسطينية ، وعبد الله هذا هو الذي اقطعه الانكليز ، في اعقاب الحرب الكونية الاولى قطعة غالية من سوريا ، سموها (شرقي الاردن) ونصبوه اميراً عليها ، ثم ما لبثوا ان جعلوه ملكاً ، على ان خيانته لفلسطين وللقضية العربية دفع ثمنها غالياً ، إذ قتله أحد أبطال العروبة فاراح الامة منه.

دعاني الكولونيل عبد الله التل إلى حفلة يقيمها لي فشكرت وقبلت الكتاب دون الحفلة معتذراً بمرض زوجتي وبتمبي من الحفلات...

زارني كذلك الاستاذ حبيب الزحلاوي وقدم إليّ – مشكوراً – كتابه (شيوخ الادب الحديث).

وفي الخامس عشر من هذا الشهر، (آذار) تغديت ونظيرتي على مائدة الدكتور محمد مندور والشاعرة ملك عبد العزيز، زوجته. وكنت قد تعرفت اليهما في دمشق، والدكتور مندور وقرينته من اعلام الادب العربي.

الامير عبد الكريم الخطابي

الامير عبد الكريم الخطابي، (بطل الريف) كما كانوا يسمونه، أو بطل المغرب، أو بطل العرب كما هو حقيقةً. ان لي مع هذا الامير البطل قصةً طريفةً لا يجوز أن أغفل عن ذكرها في هذا الكتاب، وهذه القصة كان قد عرف هو بعضها، بعد ان عاد من منفاه في جزيرة (ريونيون) واحتمى في أرض الكنانة وها انذا اسردها كلها ليعرف بعضها الآخر:

في سنة ١٩٢٤ ثار الريف المغربي على اسبانيا المحتلة، وراحت الصحف العالمية والشركات البرقية تنشر على العالم أخبار وقائع هذه الثورة التي كان رأسها وقائدها الامير عبد الكريم الخطابي، فكانت تروي عن بطولته وبطولة رجاله حكايات تشبه الاساطير، وكنتُ أنا

يومئذٍ مقيماً في مدينة كوريتيبا حاضرة ولاية بَرَنا البرازيلية، فاجتمعت وفريقاً من ألاخوان أصحاب النخوة العربيــة، بينهم الاستاذ توفيق قربان، والاستاذ البرازيلي العربي باولو تقلا، والمرحوم خليل كرم، وألفنا لجنةً دعوناها (لجنة تحرير العرب..) وطفقنا ننشر في الصحف المحلية ما يؤيد ألامير عبد الكريم الخطابي في ثورته، ونعقد ألاجتماعات الوطنية، ندعو اليها المواطنين العرب وابناء البرازيل من ألاصحاب، فكان توفيق قربان يخطب بالعربية والبورتوغالية، وباولو تقلا يخطب بالبورتوغالية، وكنت ألقي أنا الشعر الملتهب حماسةً، فكان سامعونا يتحمسون معنا ولنا وينشر الادباء منهم مقالات في الصحف المحليــة تنويراً للقراء الذين كانوا يجهلون كل شيء عن الريف المغربي (المراكشي) وسكانه. ثم قامت لجنتنا برحلتين إلى المدينتين الجارتين (بونطا غروسا) و (باراناغوا) فانشأنا في كلٍّ منهما فرعا للجنة الرئيسيـة. وظل اسم ألامير عبد الكريم يشغل صحف العالم أكثر من سنتين، واخبار بطولته تسير سير الشمس في كل مكان من غرب الدنيا وشرقهــا، واخيراً انتصر عرب الريف المغاربة، وهم لا يكادون يبلغون المليون، انتصروا على الجيش الاسباني انتصاراً ساحقاً، إذ وقع الجيش كله، وقائده الجنرال (نافارو) واركان حربه في قبضة هــذا ألامير العربي البطل، وكان عدد الاسرى عشرين ألفاً، ولم يبقَ يومئذٍ في يد ألاسبان إلا مدينة (مَليلا) البحرية، فاهتزت الدنيا لهذا ألانتصار العجيب، وهرعت فرنسا، والخوف يأكل فابها، إلى اسبانيا تعرض عليها محالفة عسكرية،

فوجدت اسبانيا المهزومة ان لا نجاة لها من عار الهزيمة النهائية إلا بقبول المحالفة، وهكذا اتحد الجيشان، الافرنسي والاسباني، الذي كانت مدريد قد جددته ا.

على اثر وصول أخبار الانتصار المغربي العظيم إلى البرازيل نظمت قصيدة أوحتها بطولة هؤلاء العرب « الريفيين » وبطولة قائدهم الامير عبد الكريم، وجعلت عنوانها (إلى الامير عبد الكريم الخطابي، بطل المغرب) وبعثتُ بها في البريد المستعجل المضمون، إلى طنجه، ظناً مني ان لا بد أن يكون للامير في طنجه من يوصلها إلى صاحبها، وكان مطلع هذه القصيدة :

لك الصارم القاضي على كل صارمِ
لذبح العدى يرجى وكبح المظالمِ
وحولك آســادٌ غضابٌ تبدّلت
من اللبدات الغبر بيض العمائمِ

ومنها

وطاردتهم حتى الخضمّ فما دروا
أيعنون للامواج ام للصوارمِ ؟!
ولو طرحت اشلاؤهم فيه أصبحت
مغنًى لمهزومٍ ومغزىً لهازمِ
ولكن رأيت العدل يقضي محتماً
بابقائها تحت انتداب القشاعمِ

رفاقك في الجلّى وصحبك في الوغى
لها وحدها حقٌّ بهذي الولائم
جدودك في الماضي اغاثوا جدودها
زماناً وغذّوها بنفس المطاعم
فكم طار منها فوق ابطال طارقٍ
غمائم تجري في متون الغمائمِ
وكم شهدت من بأسهم في حروبهم
مشاهد لم تترك مراماً لرائمِ
وكاد لطول الحوم فوق ديارهم
يؤثر في الحمراء ظلُّ القوادمِ

* * *

لقد علمت مدريد انك غولها
وان بلاد الريف غيل الضراغمِ
وما علمت عفواً ولكن تعلمت
بمدرسةٍ استاذها غير نائمِ
رأت فرقاً منها تسير إلى الوغى
ولم ترَ منهم واحداً شبه قادمِ
فماتت امانيها وصارت اذا دُعوا
تودعهم مفجوعةً بالمآتمِ
وتلبسهم اكفانهم قبل بينهم
وتندبهم قبل اقتحام الملاحمِ

وهذه القصيدة منشورة في (ديوان فرحات) المطبوع في سان باولو سنة ١٩٣٢، وفي الربيع المطبوع سنة ١٩٥٤ في المدينة نفسها.

أرسلت هذه القصيدة كما قدمتُ فقلت، مضمونة بالبريد إلى طنجه، ورحت أنتظر خبر وصولها إلى الامير عبد الكريم ولكن بعد عدة اشهر أعادها بريد طنجه إليّ وعلى غلافها جملة افرنسية: (لا علاقة لنا به!...).

بعد تحالف فرنسا واسبانيا تطورت الحرب في الريف المراكشي، واضطر الامير للاستسلام بعد ان وعدوه مقسمين بشرف فرنسا العسكري... بمنح بلاده الاستقلال الذي يريده لها، وعلى طريقتهم المشهورة.. خانوه واخلفوا وعدهم وارسلوه منفياً إلى جزيرة (ريونيون) إحدى جزر المحيط الهندي، شرقي افريقيا.

بقي الامير البطل في منفاه عشرين سنة، نسي العالم فيها اسمه، ولم تنسَ اسبانيا وقائعه! ولأمرٍ ما شاءت فرنسا أن تنقله من الجزيرة النائية إلى الارض الافرنسية، فحملته إحدى بواخرها، وبينما تقف هذه الباخرة في إحدى موانئ قناة السويس، نزل الامير إلى اليابسة واحتمى بالراية المصرية، فاحتجت فرنسا ورفعت عقيرتها وقامت قيامتها ولكن دون جدوى، لان مصراً أبت أن تعيد الاسد إلى قفصه...!

وحملت البرقيات خبر نجاة الامير من الاسر الافرنسي ولجوئه إلى مصر، وما ان سمعت هذا الخبر السارّ المدهش حتى رجعت بأفكاري القهقرى إلى زمن معارك الريف الاسطورية، وقمت فوراً فنسخت

القصيدة وبعثت بها إلى الامير عبد الكريم مع رسالة جديدة اطلعه فيها على الحادثة من أولها ، ولم يمض سوى شهر واحد حتى جاءني منه جواب مطول يشغل صفحات ، وكلها شكر لي ومديح وثناء على القصيدة التي وصلت اليه بعد أكثر من عشرين سنة من تاريخ نظمها !

عندما وصلت القاهرة في ٢٦ شباط كانت زيارة الامير عبد الكريم في رأس لائحة الزيارات التي انوي القيام بها ، ولكني في الايام الاولى شغلت بواجباتي الرسمية ثم شغلت بعدها بمرض زوجتي فلم أتمكن من القيام بما كنت قد وعدت به نفسي ، ولكن ... قبل مغادرتي القاهرة بيومين دعاني هاتف الفندق فقمت لارى من الداعي ، وإذ بصوت يقول : « هنا منزل الامير عبد الكريم الخطابي » فأحسست بقشعريرة تجري في جسمي كله ! وقال الصوت : « ان الامير يريد أن يراكم ، وانه منذ ان علم بوصولكم إلى القاهرة وهو يسأل عنكم ليعرف مقركم الذي اكتشفناه اليوم ، فأمرني الامير أن اتصل بكم فوراً وان اقدم اليكم تحيته وتهنئته لكم بوصولكم سالمين ، والامير مريض لا يبارح فراشه ، ولكنه يريد أن يراكم ، فتفضلوا انتم بزيارته ! » قلت عفواً ، اني ذاهب لزيارة سموه في هذه الساعة . واقفلت الهاتف وفوراً دعوت رفيقي الاستاذ أحمد زكريا قائلاً هلمّ بنا إلى زيارة الامير عبد الكريم الخطابي . وفي لحظات كانت السيارة تجري بنا إلى مقرّ الامير ، فلما وصلنا ترجلنا وتوجهنا إلى بوابة كبيرة كان يقف حيالها حارساً أحد رجال الشرطة المدنية ، فاعطيناه اسمينا فغاب دقيقة وعاد الينا يقول : تفضلوا ، فدخلنا ومررنا

في قاعة ثم في ممشى والحارس امامنا حتى وصلنا إلى بابٍ تراجع الحارس عنه وهو يقول: تفضلوا، هذه غرفـة ألامير، فدخلت أولاً ثم دخل الرفيق الاستاذ جميل، ورأيت في إحدى زوايا ألغرفة، رجلًا جالساً في سريره، فدنوتُ والقيت عليه التحية مادًا يدي لمصافحتهِ، فمدّ هو يده وامسك بيدي وشدني اليـه، وراح يقبلني والدمع يجول في عينيـه والابتسامة المشرقة تملأ وجهـه المستدير.. قال أهلًا بالشاعر الحبيب، اني اسأل عنك من أيام وقـد طلبت اليوم من ولدي أن يسأل عنك وان لا يعود إليّ إلاّ بعد أن يكتشف مكانك، وقد فعل ما أمرته بهِ، وقد عاد بك إليّ والحمد لله! فاعتذرتُ عن تقصيري، واخبرتـه اني منذ ان وصلت إلى ألقاهرة لم ارتح ساعة من ألرسميات، وان زيارته كان من ألواجب أن تكون اولى زياراتي، ولكن الشواغل منعتني. فقال أنا مريض وعاجز عن ألقيام، وإلاّ لما كان يمنعني شيء عن زيارتك في ألفندق، واني اريد أن اقيم لك احتفالاً يليق بك ولكني كما تراني. ونحن في رمضان!. ثم راح يذكرني بقصيدتي فيـه، وينشد منها أبياتًا، واتذكر الآن وانا اكتب هذه ألكلمة انه قال لي: « ما أبدع قولك:

وما أنا عبد المال ابغيـه مادحًا ولكنني عبد العلى والمكارمِ »

انه قولٌ فيه رجولة وعزة واباء، فقلت عفوًا، ان بطولتكم هي التي أوحت إليّ القول، وان رجولتكم هي التي علمتنا الرجولة ونحن لم نأخذ العزة والاباء إلاّ عنكم! فقال: بارك الله فيك، ثم سألني: هل ستطول

اقامتكم في القاهرة؟ فقلت اني مسافر بعد غد، اني ساعود إلى البرازيل حيث أولادي، وذكرتُ له بيتاً من شعري اقول فيه:

ألنبت يثبت في الثرى باصوله   وانا المعذب ثابتٌ بفروعي!

فقال: حقاً. حقاً! ثم قال: ان دواوينك ليست عندي. قلتُ ولكني بعثتُ بها اليكم، أنا واثق من هذا الامر، فأجاب قائلًا انها لم تصل إليّ، فقلت الامر بسيط، اني سابعث اليك بها حال وصولي غداً إلى البرازيل، وهي هذه المرة لن تضيع لاني أصبحت اعرف عنوانكم! قال حسناً، وانا اريد أن اراك بعد فهل تردني غداً؟ قلت سافعل وسيكون حظي كبيراً إذا تمتعت برؤيتكم.

جلست في حضرته نحواً من ساعة فودعني مقبّلًا باسماً دائماً. . وهو يقول إلى الغد!

في عصر اليوم التالي رجعتُ اليه فقابلني كما قابلني امس، ولا اكتم القارئ اني كنت اتوجس من هذا الاجتماع الذي لم اذكره في طبعة عودة الغائب الاولى، ولم اذكره لاحد، خوفاً من أن يكون في ذكره ما يسيء إلى الامير، قلت اني كنت متوجساً، ولقد كان توجسي في محله، فان الامير اغتنم فرصة وجودي معه وحدنا فمد يده إلى تحت مخدته واخذ غلافاً دفعه إليّ معتذراً، فتزاحمت الافكار في راسي، ان هذا الرجل عاجز، عجز مرض وعجز شيخوخة وانه كان في يوم من الايام مالئاً الدنيا وشاغلًا الناس، وانه اليوم يتذكر ولا شك أيام مجده ويودّ

لو استعادها أو استعاد شيئاً منها ولو بتذكرها ! ان هذا الغلاف الذي يناولني اياه فيه دون ريب نقود قد يكون هو أحوج مني اليها، ولكن رفضي هديته جارح لكبريائه ماسّ بكرامته، وقد يكون قاضياً عليه... وبغتة رأيتني امدّ يدي واتناول الغلاف منه واضعه في جيبي قائلاً: شكراً. شكرا. فقال بل أنا الذي يجب أن اشكر لك قبول هذه الهدية الضئيلة، اني رأيتك متردداً في قبولها وخفت أن تغلب كبرياؤك على صداقتك. فلم اجب! ولم اطل الاقامة، فقمت وودعت وما أن وصلت إلى الفندق حتى فتحت الغلاف فاذا فيه خمسون جنيهاً!

وكنت قد اوصيت أحد مجلّدي الكتب أن يجلد لي مجموعة اقدمها إلى الرئيس جمال عبد الناصر، فبلغني ان الرجل لم يجلدها وانه لن يجلدها قبل اسبوع... فاستعدتها منه وقمت إلى الهاتف اقول للامير عبد الكريم اني وجدت مجموعة من دواويني، وهي الآن باسمه في الفندق فليتفضل ويرسل من يأخذها، وفي أقل من ساعة كانت مجموعة الدواوين بين يدي الامير البطل!

هذا آخر يوم لنا نقضيه في القاهرة وكنا بسبب مرض جوليا ألغينا برنامج تنقلنا في القطر المصري العزيز، ألغينا الزيارات التي كانت في البرنامج وهي إلى بورسعيد والمحلة الكبرى والاسماعيلية والسويس ومديرية التحرير، فلم نخرج من القاهرة إلاّ بزيارة قصيرة إلى القناطر الخيرية وزيارة اخرى مثلها إلى حلوان، والمحلتان من ضواحي القاهرة، وكانت زيارتنا لهاتين المحلتين قبل زيارة الحمّى لزوجتي!

لم يبقَ من الايام المعدة لزيارة القاهرة إلاّ بقية اليوم الذي نحن فيه، والرئيس لم يعد من الشام! وانه لمن معاندة الاقدار أن اعود إلى البرازيل بعد قضاء أكثر من عشرة شهور في اقليمي الجمهورية العربية المتحدة دون أن اجتمع بـه ولو مرة واحدة. وماذا سأقول لاخواني الذين ينتظرون عودتي لاحدثهم عن جمال؟ انهم – ولا شك – سيقولون لي لائمين: كان عليك أن تذهب إلى دمشق يوم وصل اليها وانت في بيروت، وبين بيروت ودمشق (رمية حجر!) أو (شربة سيفاره..) كان عليك أن تقابله هناك يوم وصوله، وانك لو سعيت لما اخفق مسعاك! ربما كان اخواني مصيبين في لومهم. ولكني ما حسبت انه سيبقى في سوريا اربعين يوماً.. اني كنت اريد أن اجتمع بـه واحدثه (على رواق) ولم يكن (الرواق) بالشام موجوداً... ولهذا فضلت الاجتماع به في القاهرة، وحسبت اني ملاقيه فيها ولكن حسابي كان مغلوطاً.

ليس في المدن التي اعرفها مدينة تضاهي القاهرة جمالاً وفخامةً. فشوارع القاهرة عريضة مستقيمة، نظيفة، وساحات القاهرة رحبـة، ومساكن القاهرة قصور زاهرة! وتجارة القاهرة وصناعتها في المرتبة الاولى!. ولقد شقّوا بعد الثورة جادّةً تحاذي النيل، ممتدةً من القناطر الخيرية إلى حلوان، ويسمون الجادة هناك وفي بيروت (كورنيشاً) فيقولون كورنيش النيل – وكورنيش المطار، في بيروت، وكورنيش

المزرعة! قالوا لي ان طول كورنيش النيل يبلغ اثنين واربعين كيلو متراً، وان لفتحه قصة، وهم يروونها باعتزاز، وقصة فتح كورنيش النيل هي:

كانت السفارة الانكليزية القريبة من النيل تملك أرضاً تمتد إلى مياه النهر العظيم، وكانت هذه الارض مسوّرة، فلما شقوا الكورنيش وقفوا عند (السور الانكليزي) من كلا الجانبين وطلبوا من الانكليز أن يبيعوهم من الارض ما يكفي لوصل طرفي الكورنيش فأبى الانكليز أن يلبوا هذا الطلب، فما كان منهم إلاّ ان جاؤوا بدباباتهم واقتحموا بها السور من جانبيه، فصاح الانكليز وعربدوا ولكن أحداً لم يسمع عربدتهم أو يهتم بها! وهكذا تم فتح الكورنيش وذهب صياح الانكليز مع الريح...

وفي القاهرة أحياء قديمة، هي ككل الاحياء القديمة في المدن الشرقية. زواريب وازقة ضيقة يزدحم فيها المارة من كل صنف، ولا سيما السياح الاجانب، إذ ان في هذه الازقة تباع التحف الثمينة التي لا مثيل لها في الغرب، فقد زرنا الفيشاوي (جار الازهر) وزرنا خان الخليلي وكلاهما مشهور، الاول بليالي رمضان، والثاني بما يصنع فيه من السلع الثمينة ويباع.

السبت، ١٩ آذار، جاء الاستاذ جميل أحمد زكريا باكراً، فرآنا على استعداد للسفر، فالحقائب جاهزة وما هو خارج الحقائب مرزم، ولم يبق امامنا سوى الذهاب إلى المحطة وركوب القطار الذاهب إلى الاسكندرية. وقبل أن ندخل السيارة اشتريت إحدى الصحف

الصباحية، وحملتها معي إلى القطار، فلما جلسنا في اماكننا في القطار فتحت جريدتي وإذا بعيني تحملقان عند هذا الخبر: «وصول سيادة الرئيس جمال عبد الناصر مساء اليوم إلى الاسكندرية ...»

لقد عاقت عيناي بهذا الخبر وكنت كلما حاولت ابعادهما عنه تزدادان اليه اقترابا وبه اتصالاً والتصاقاً.

قلت لرفيقي: «اليوم عند الساعة السادسة مساء سيصل الرجل الذي كان علي أن اقابله قبل اي رجل آخر، والذي مضى علي عام في انتظار ساعة لقائه، سيصل إلى الاسكندرية بعد مغادرتي الاسكندرية بساعة واحدة!. لقد بقيت في الجمهورية العربية المتحدة نحوا من سنة، وسأودعها اليوم إلى ما شاء الله. أنا اودعها والرئيس المرجو يصل قادماً من الشام، ولقد كنت واياه في الشام فلم اسع اليه ولم أره ولا سبيل إلى تأجيل سفري إلى موعد آخر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ورحت أتلهى عن معاندة الاقدار بالنظر إلى ما نمر به من سهول ومدن وقرى، وكان منظر السهول جميلاً، ولم يكن هكذا منظر القرى! اني أرى أكواخاً من طين يتصل بعضها ببعض، لا اثر للهندسة فيها، وكنت قد مررت مرتين في هذا الطريق، المرة الاولى يوم جئت من البرازيل، والثانية يوم جئت من بيروت، ولكني لم أرَ في المرتين السابقتين شيئاً من القبح الذي أراه اليوم، ولم ألحظ مظاهر الفقر فيها قبل اليوم، فلا شك إن للحالة النفسية التي أنا عليها الآن يداً في تشويه

ما أراه، اني اعود إلى البرازيل دون أن أرى الرئيس جمال، فكيف أرى جمالًا في ما لا جمال فيه من هذه الاكواخ...

مررنا بمدينة (بنها) قرأت اسمها على جدار المحطة، فنظمت بيت عتابا.. نعم بيت عتابا! وهو هذا:

بناية مجدنا تماسك لبنها وسناها امتد من زحله لبنها
ونحنا امنا الطاهر ابنها سقت أولادها أصفى شراب!

في الاسكندرية ذهبنا توًا إلى أحد الفنادق حيث تركنا جوليا التي كانت في طور النقاهة ترتاح فيه، ثم ذهبنا إلى الجمرك فأخرجنا حقائبنا المودعة هناك، وبعثنا بها وبما معنا مما جلبناه من القاهرة إلى الباخرة حيث بقيت أنا معها، وعاد الرفيق الاستاذ جميل إلى الفندق ثم عاد إلى الباخرة ومعه زوجتي المرهقة من السفر ومن بقايا المرض، وظل هذا الرفيق الدمث المهذب معنا في الباخرة حتى دنا موعد عودة القطار إلى القاهرة فودعنا داعياً لنا بسفر سعيد وودعناه شاكرين له ما لقينا منه من لطف وتهذيب طول مدة اقامتنا في قاعدة العروبة! وحوالى الساعة الخامسة عصراً أخذت الباخرة (اسبيريا) تتحرك نحو اوروبا ورحت القي على أرض الوطن آخر نظرة وفي العين عبرة وفي القلب جمرة!

عندما وصلت بنا (اسبيريا) إلى (جنوه)، وقبل أن ننزل إلى اليابسة، صعد إلى ظهر الباخرة قنصل الجمهورية العربية المتحدة العام الاستاذ محمد علي فهمي ونائبه الاستاذ محمد عبد العزيز بسيوني، وراحا

يسألان عنا، فلما لقيانا أظهرا لنا كل تكريم وكل معونة، واخذانا إلى الفندق بسيارتهما، وفي اليوم التالي زرتهما في القنصلية فكانا مثال اللطف وحسن الذوق. وقد دعاني وزوجتي ورفيقين (زوجين) لبنانيين كانا معنا، الى عشاء يقدمه لنا في بيته فشكرت له اريحيته وقبلت دعوته، وبيت القنصل العام كائن في بناية القنصلية نفسها. وفي الموعد المضروب ذهبنا إلى منزل القنصل الغيور، وتعرفنا إلى السيدة الفاضلة زوجته، وكان نائب القنصل الاستاذ محمد عبد العزيز بسيوني معنا على العشاء، كما كان معنا أحد موظفي السفارة العربية في (بون) المانيا الغربية، فتعشينا وسهرنا سهرة لطيفة للغاية، وفي يوم سفرنا من (جنوه) جاء القنصل العام ونائبه بسيارتهما إلى الفندق واخذانا إلى الباخرة العظيمة (جيوليوس سيزاري) جوليوس قيصر، وودعانا ثم عادا يحملان شكرنا لهما وللوزارة التي أعلمتهما بمرورنا (بجنوه) وأوصتهما بنا!

وصلنا إلى الريو دي جانيرو عند ظهر الثامن من نيسان، فوجدنا في انتظارنا على الرصيف ولدينا خالداً وعصاماً، وكنتنا زوجة خالد وابني أخي الدكتورين اميل وشكري فرحات وزوجة هذا، ووجدنا شقيقتها دعد وبعض الانسباء.

فبتنا في الريو ليلةً واحدة ثم توجهنا صباح اليوم التاسع من نيسان، بالسيارة إلى الافق الجميل فوصلنا إلى منزلنا الذي كان غاصاً بالاهل والاصدقاء عند الساعة الثالثة عصراً.



عودتنا الى الافق الجميل



كيف استقبلنا الاخوان في بيلو اور يزونتي (الافق الجميل) بعد عودتنا

بقيت في البيت اتقبل زيارات الاصدقاء وتهانيهم شهرًا كاملًا سافرت بعده إلى سان باولو لارى اصدقائي الذين غادرتهم فيها من أكثر من سنة ، فالتقينا مجددًا وداوينا الشوق ، وقضينا عليه ...!

* * *

وفي سان باولو شاءت جمعية متخرجي الجامعة الاميركية في بيروت ، التي تحاول أن تعيد إلى الجالية حياتها الادبية التي كادت تفقدهـا ، شاءت هذه الجمعية النشيطة أن القي محاضرةً أتحدث فيها عن انطباعاتي في رحلتي إلى الجمهورية العربية المتحدة ولبنان ، ودعت إلى اجتماع عام يقام في نادي راشيا مساء الثامن من حزيران ، وقد حضر في الموعد

المضروب عدد يبلغ الثلاثمائة ، فقدمني الاستاذ رافائيل يافث (رئيس الجمعية) فالقيت المحاضرة التي كنت اعددتها لمثل هذا الموقف. تكلمت نحواً من ساعة ، وكان في جملة الحضور من الرسميين قنصل العربية المتحدة الاستاذ علي حمدي حسين وقنصل لبنان العام الاستاذ صلاح المنذر ، أما المحاضرة فهي :

« الشعوب العربية تؤمن بالقومية العربية وتؤمن بالوحدة العربية لانها ترى في هذه وفي تلك عزتها ومنعتها ، وترى فيها كرامتها ومجدها ، فالقومية العربية هي الطريق والوحدة هي الهدف والكرامة والعزة هما الامنية الكبرى !

« ولعلّ أشدّ الشعوب العربية شعوراً بوجوب الوحدة والدعوة الملحة اليها الشعب السوري ، انه هو الذي حمل لواءها ، وخاض في سبيلها المعارك بالعشرات ، وقدم لها الضحايا بالالوف .

« من يزر الاقليم السوري اليوم يرَ القوم هناك ولا حديث لهم غير القومية العربية ، ولا هدف يسيرون اليه سوى الوحدة العربية ، ولا امنية يعملون في سبيل تحقيقها إلاّ تعزيز العروبة ورفع رايتها حتى تسامق أرفع رايات الشعوب واشدّها منعةً وقوة. ولقد كان حظ العروبة أن تجاوب الشعب المصري مع أخيه الشعب السوري تجاوباً صادقاً فأصبح الشعبان العربيان شعباً عربياً واحداً ، له حكومة واحدة وجيش واحد وراية واحدة ، واصبحت اسرائيل التي كانت تزأر على الحدود ، أصبحت هذه الدولة المسخ تموء وتعوي !

« ومضى الدخيل يعد باقي عمره بعد السنين السود بالايام
ذهب الزئير وراءه وأمامه بغروره فصحا من الاوهام
ودرى الحقيقة حين أبصر نفسه كالشلو بين مخالب الضرغام

« ولكن ما ان ولدت الجمهورية العربية المتحدة حتى ولد حولها البغض لها والحقد عليها والحسد منها، ومدار البغض والحقد والحسد الخوف، فانّ الدول الغربية، وهي أميركا وانكلترا وفرنسا تبغضها لانها تخاف منها على مصالحها واسرائيل تحقد عليها لانها تخاف منها على كيانها، وبعض الزعماء العرب يحسدون زعيمها جمال عبد الناصر لانهم يخافون منه على مراكزهم، وهكذا فقد اشترك بالتشنيع عليها الدول الغربية واسرائيل وبعض الزعماء العرب، فضلاً عن الشيوعيين الذين لا يعترفون بالقوميات، وفضلاً عن السوريين القوميين الذين يريدونها قومية سورية ذات عرق آرامي اشوري سرياني كلداني...

« لقد تألبت على الوحدة العربية الفتية فئات كانت متنافرة يبغض بعضها بعضاً ويكيد بعضها لبعض، فليس في الدنيا شيء أغرب من اتفاق القوميين السوريين والشيوعيين، وليس في العالم أعجب من اتفاق اليهود وبعض الطوائف الكاثوليكية.

« ان قيام الوحدة بين مصر وسوريا وحد بين مختلف هذه الطوائف والفئات المتنافرة المتشاكسة، الف بين مصالحها، وان لم يؤلف بين قلوبها، فراح هؤلاء المتنافرون المتشاكسون يلفقون الاشاعات التي تسيء إلى سمعة الجمهورية العربية المتحدة ويختلقون عنها الاحاديث التي

تضر بها وينشرونها في صحفهم ويذيعونها من محطات اذاعاتهم . فصرنا إذا قرأنا خبراً ملفقاً في جريدة يهودية ، مثلاً ، قرأناه بحذافيره في جريدة بغدادية قاسمية شيوعية ، أو جريدة ارجنتينية شيوعية ، أو قرأناه بنصه الحرفي في الجرائد الغربية وفي جرائد القوميين السوريين المختبئين في بيروت ، وقرأناه بحرفيته في جريدة الكتائب وفي غيرها من الجرائد العربية اللبنانية التي تسير في ركاب الغربيين ، وهي ليست قليلة .

« فكان على القاهرة ، والحالة هذه ، أن تواجه حملات منظمة مركّزة ، والقاهرة اليوم ليست عاصمة للجمهورية العربية المتحدة فحسب ، وإنما هي كذلك مركز الثقل في العالم الشرقي الذي اتخذ الحياد الايجابي خطةً سياسية لا يحيد عنها يميناً ولا يساراً .

« والقاهرة بعد ، أصبحت ملتقى الوفود الآسيوية – الافريقية ، وقاعدة المؤتمرات الاقتصادية والسياسية لدول القارتين الكبيرتين ، هذا فضلاً عن كونها معقد آمال العروبة المتحررة . فكان عليها أن تقابل حملات الاعداء بالصبر أحياناً وبحملات اذاعية صحافية معاكسة أحياناً اخرى ، وكان عليها أن تسدّ في وجه الاستعمار المنافذ التي يحاول الدخول منها اليها وإلى اخواتها العربيات وجاراتها الشرقيات ، وان تقيم دونه الحواجز والسدود ، ولا شيء يصدّ الاستعمار ، على اختلاف أنواعه ، كالمشاريع العمرانية ، فراحت الجمهورية العربية المتحدة تنشئ المشاريع في اقليميها ، فمن السدّ العالي على النيل إلى الوادي الجديد في الصحراء الغربية ، إلى سدّ على الفرات إلى سدّ آخر على الخابور ، إلى آخر على

العاصي ، ثم إلى تجفيف الغاب ، فالى حفر آبار ارتوازية في بادية الشام ، إلى بناء حظائر في هذه البادية ، لوقاية الماشية من الظماء صيفاً ولحمايتها من الصقيع شتاء .

« ثم راحت تشق الطرق في كل وجهة وتفرشها بالزفت ، ثم باشرت مد خط حديدي يصل الجزيرة بحلب ويصل حلب باللاذقية ، تسهيلاً لنقل المحصولات الزراعية من منابتها إلى مرفأ تصديرها ، وراحت من جهة اخرى ، تشيد المعامل الضخمة والمصانع الكبيرة ، في اقليمي الجمهورية حتى تستغني بالانتاج المحلي عن الاستيراد من الخارج .

« ثم أخذت توسع دوائر التعليم ، فالمدارس تتضاعف وعدد الطلاب يزداد سنة عن سنة .

« قال لي وزير التعليم التنفيذي في الاقليم السوري ، صديقي الدكتور امجد الطرابلسي ، ان عدد الطلاب في العام الفائت ، في سوريا وحدها ، تجاوز الخمسمائة ألف طالب وطالبة .

« وهكذا ترون في الجمهورية العربية المتحدة ثورةً عارمةً ، ولكنها ثورة علم وعمران ، زراعة وصناعة ، وترون جمهور الشعب مطمئناً إلى مستقبله ، راضياً مستبشراً .

« ان الوحدة أنقذت سوريا من حمى الانقلابات ، واوجدت فيها امناً تاماً واستقرارًا ثابتاً ونظاماً مطاعًا ، وانها فتحت أبواب العمل لكل عامل وابواب العلم لكل عالم ولكل طالب علم .

« ومع كل هذا فان أعداء هذه الجمهورية الفتية ما زالوا يخترعون الاشاعات الباطلة والاكاذيب، وما برحوا يشوهون الحقائق ويحاولون، بكل قواهم، أن يهدموا ما تبني، ولكن هيهات!.

« اني منذ عودتي من الوطن ما زلت أتلقى الاسئلة عن حالة الوطن الجالا، يقول السائلون: (كيف تركت البلاد؟ وكيف رأيت الحكومة والشعب؟ وهل صحيح انه لم يبق في دوائر الحكومة السورية أحد من السوريين؟).

« وانا اجيب على هذه الاسئلة بسرد الحقائق التي لمستها بيدي ورأيتها بعيني، ولم أستغرب شيئاً من الاشاعات الباطلة التي ينشرها دعاة الشرّ هنا، إذ ان المسافة التي تفصلنا عن الوطن كبيرة تتسع لشتى الاشاعات، وكيف استغربها ولقد كنت أسمع شرًّا منها وانا في بيروت! وبيروت لا تبعد عن دمشق أكثر من مئة وخمسة كيلومترات، وبيروت تتصل بدمشق بسلسلة لا تنقطع من السيارات الرائحة الغادية بين المدينتين يومياً، والهاتف يعمل بينهما ليل نهار، ومع كل هذه المواصلات التي لا تنقطع، كنت اقضي في دمشق الشهر والشهرين دون أن اسمع خبراً سيئاً، حتى إذا هبطت بيروت هبطت عليّ غرائب الاسئلة المفجعة!:

« أصحيح ان الجند السوري قتل عشرات من الضباط المصريين!!! »

« أصحيح ان السوريين يتأهبون لثورة تكسر النير الفرعوني الذي وضعته الوحدة على رقابهم؟!! »

« هذه الاسئلة كانت تضايقني ، وأحياناً تثيرني ، فكنت أدفع هذه التهم الباطلة بنرفزة لا ابرئ نفسي منها ، و كنت أحياناً أتهكم على السائلين ، ولقد قلت مرةً لاحدهم : (هذا مـا تريدون أن يحدث في سوريا ، ولكني اؤكد لكم ان ليس في سوريا شيء من هـذا الذي تتصورون حدوثه ، بل الذي ترغبون من كل قلوبكم في حدوثه ، ! ان سوريا إذا سلمت من ألسنتكم فقد سلمت من شرٍّ كبير ! .)

« ويريد اخواني هنا أن احدثهم عما رأيت في سوريا ، ويسرّني أن اعلن لهم ان كل ما رأيته كان يدعو إلى الغبطة وإلى الامل بالازدهار .

« في دمشق قلما تمضي ليلةٌ لا يُشهد فيها مجتمع أدبي ، فالامسيات الشعرية التي لا نعرفها هنا ، تعقـد في الاندية والبيوت ، وفي هـذه الامسيات يقرأ المؤلِّفون آخر ما ألّفوه وينشد الشعراء آخر وأجود ما نظموه ، ويكفي أن يجتمع في هذه الاماكن الشعراء والشاعرات والكتاب والقاصّون على اختلاف نزعاتهم وأساليبهم ، فيتعارفون ويتباحثون في شتى الشؤون الادبية ، هناك عرفت معظم ادباء دمشق فضلًا عن ادباء سائر المدن السورية وبعض الاقطار العربية الاخرى ، ممن يؤمون حاضرة العروبة في دنيا العرب الآسيوية ! .

« في هذه الاجتماعات تعرفت إلى الشاعرة سلمى الحفرا الجيوسي ، وإلى الدكتورة الشاعرة طلعة الرفاعي ، وكوليت خوري ، وعزيزة هارون ، وإلى الاديبات عناية رمزي وثريا الحافظ التي يتحول منزلهـا اسبوعياً إلى منتدى أدبي يعرف (بمنتدى سكينة) ، كما تعقد جلسات

أدبية اخرى في منزل السيدة الفة عمر باشا الادلبي ، وهي سيدة أنيقة واديبة تؤلف القصص الناجحة وتهيئ للجمهور مجتمعاً راقياً فخماً ، وهناك تعرفت إلى الاديبة الكبيرة السيدة وداد سكاكيني وإلى زوجها الاديب الشاعر الدكتور زكي المحاسني ، وإلى الاديبة المصرية (بنت الشاطئ) وفي هذه المنتديات تعرفت إلى الاديب الكبير ، الوافر الانتاج ، عضو المجمع العلمي العربي وعضو المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب ورئيس الدائرة العربية في المعهد العربي الافرنسي (اللاييك) الدكتور سامي الدهان ، وإلى الدكتور حكمة هاشم رئيس جامعة دمشق ، والدكتور شكيب الجابري ، والدكتور ابرهيم الكيلاني ، والدكتور عبد الله عبد الدائم ، وإلى شاعر الشام الاستاذ شفيق جبري ، وإلى الامير الشاعر صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة ، في الخليج العربي ، وإلى الشاعر أنور العطار ، والشاعر القاضي عدنان مردم بك ، والشاعر الصحافي مدحة عكاش ، وإلى الطبيب الاديب كامل حمارنه ، وإلى المربي الاستاذ سليم اليازجي ، وإلى الصحافي القدير النزيه الاستاذ نجيب حرب ، وغيرهم ممن تصعب تسميتهم لكثرتهم .

« وفي دمشق لقيت الاخوان الذين كنت اعرفهم سابقاً في البرازيل ، وفي مقدمتهم المفكر الناضج الاستاذ ميشيل عفلق ، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي ، والاستاذ نظير زيتون ، وهو غني عن التعريف لشهرته في عالم الادب المسجوع ... ونائب صافيتا السابق الاستاذ عبد اللطيف اليونس ، وهكذا كان صاحب الفضل

الاول في دعوة الحكومة لنا، إذ انه هو الذي اقترح على مجلس النواب السوري (يومئذٍ) دعوتنا لزيارة الوطن، فلباه المجلس بالاجماع ولبت الحكومة طلب المجلس فوراً. وفي دمشق عرفت الاديب الحلبي المشهور الاستاذ سامي الكيالي، وهو أيضاً عضوٌ في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب، وكان إلى زمن قريب يصدر مجلة (الحديث) في حلب.

« والدمشقيون يحبون الادب على اختلاف أنواعه، ولكنهم كسائر العرب يفضلون الشعر على كل ضروب الادب.

« في الصيف الماضي رأت وزارة التربية والتعليم أن تقيم مهرجان الشعر في دمشق، سبع ليالٍ شهدتها كلها، كان هذا المهرجان يقام في ساحة معرض دمشق الخارجية، وهي ساحةٌ تتسع لآلاف المستمعين، فكانت تضيق بهم، على رحبها، فيبقى جمهور كبير منهم واقفاً لا يجد مكاناً للجلوس، وكان بعض الفتيان يتسلق الاشجار وأعمدة التنوير ويبقى هناك إلى آخر السهرة، وكانت النساء تفد إلى المكان قبل الموعد المضروب بساعات حتى يؤمنَّ امكنة لجلوسهنَّ، وكن يلبثن دون تأفف أو تضجر حتى يسمعن آخر كلمة مما يقال، وتؤكد صحف دمشق ان عدد الحضور كان يربي على العشرة آلاف، ومع هذا فلم تكن تُسمع لهذا الخلق ضجةٌ إلا ضجة تصفيق الاستحسان عندما يستجيدون ما يسمعون.

« هذا في دمشق وسهرات دمشق، اما في غير دمشق فلم تكن تطول اقامتي كثيراً، إذ كنت اذهب بدعوة تأتيني من الادباء أو من المراكز الثقافية العربية المنتشرة في مدن الجمهورية، ففي اللاذقية مثلاً، بت ثلاث ليال أقام لي فيها ادباء المدينة والمركز الثقافي العربي حفلتين في ليلتين متواليتين. وفي حلب كان ما كان في اللاذقية. وهكذا في حمص وحماه ويبرود وتدمر والسويداء وصلخد وشهبا وبصرى، ويطول بي الكلام إذا رحت أتحدث عما اقيم لي من حفلات، ويصبح الحديث ثقيلاً إذ بدلاً من أن يكون عن البلاد يتحول إليّ شخصياً، وهذا ما اريد أن أتجنبه.

« ولئن كان سروري بما لمست في الوطن من نهضة أدبية ومن حركة اقتصادية عظيماً، فانه كان بما رأيته من تطور اجتماعي أعظم، انه كان فوق حد الوصف لان التطور الاجتماعي طغى على كل شيء سواه.

« عندما وقعت عيناي على أول امرأة محجبة، وكنت قد لحظت من مشيها البطيء الثقيل انها قد تجاوزت حد الجمال والدلال.. قلت لمرافقي الرسمي، مشيراً اليها، بعد عشر سنوات تحملون هذه وامثالها إلى المتحف! فضحك مؤمناً على كلامي.

« وبعد هذه السيدة رأيت سيدات غيرها محافظات متحجبات ولكنهن أصبحن قلة في البلاد، إذ ان الجيل الجديد من الفتيات العربيات، في دمشق وفي غير دمشق، لا يتعرفن إلى الحجاب، لقد طرحنه جانباً ونزلن إلى الشارع عاملات، انهن اليوم يسرن ركضاً إلى

العمل في دوائر الحكومة ومكاتب التجار وقاعات التدريس ، ومعظم من عرفت منهن ، يحمل الالقاب العلمية من جامعة دمشق أو من جامعات مصر واوربا واميركا ، ويتخرج منهن في جامعة دمشق وحدها أكثر من الف فتاة في السنة الواحدة ، أما اللواتي يتخرجن من المدارس الثانوية فيزدن على عشرات الالوف ، وعددهن يتضاعف سنوياً .

« كنت ، على اثر وصولي إلى دمشق ، في سهرةٍ أدبيةٍ زاهرة ، في منزل الشاعرة الجميلة كوليت خوري ، وهي حفيدة شيخ الادباء والسياسيين العرب الاستاذ فارس الخوري ، وكان في المنزل عشرات من الضيوف من رجال ونساء ، فسمعت فتىً يقترح على فتاة انشاد شيء من شعرها ، ولم تكن الفتاة بخيلة ، فراحت تنشد من الشعر الاجتماعي الرصين ، فاقترح عليها الفتى أن تنشد شيئاً من شعرها العاطفي (الغزلي) فترددت أول الامر ، غير انه ألحّ عليها الحاحاً حملها على تلبية طلبه ، فراحت تسمعنا شعراً غزلياً جميلاً ، غنياً بالالوان والصور العاطفية الجياشة ، فصفق الحضور لهـا ، وطبعاً شاركتهم في التصفيق بحماسة ! فسألوني رأيي في ما سمعت ، فقلتُ اني لم أنتبه لمعاني الشعر لان ذهني كان منصرفاً إلى ما أرى من تطور اجتماعي فاق كل ما كنت أتخيل حدوثه ا. فلقد كانت الشاعرة مسلمة ، هي الدكتورة طلعة الرفاعي ، وكان الشاب المقترح الملح مسلماً كذلك ، وهو أخوهـا ، وكذلك هو دكتور ، شاب مسلم من اسرة مسلمة عريقة معروفة يقترح على اخته الشابة المسلمة ، في مجتمع عام لكلا الجنسين ، انشاد شعرها الغزلي ،

ويلجّ ويلحّ حتى يتفجر الشعر من صدرها كوثرًا عذباً ... انها وثبة في التطور الاجتماعي لم اكن أحلم بها.

« بعد هذه الشاعرة سمعت كثيرًا من الشاعرات، وكلهن مسلمات إلا كوليت خوري، مسلمات، لقد ذكرت سابقاً الشاعرة سلمى الخضرا الجيوسي، وهي سيدة متزوجة، ولقد كان زوجها في ما مضى يتولى سفارة الاردن في بغداد (قائماً بالاعمال) وهو الاستاذ برهان الجيوسي، ومثلها السيدة عزيزة هارون، أصلها من اللاذقية وهي اليوم متزوجة في حلب، ومثل عزيزة نسيبتها هند هارون، عرفت هندًا في اللاذقية، وسمعت شعرها الحماسي القومي القوي فأطربني، وكنت اظنها عزباء فاذا بها تفاجئني بان قدمت لي زوجها ليشترك معها في دعوتي إلى زيارة بيتها، وما كان أحبها إليّ دعوة لولا ضيق الوقت، وفي اليوم التالي جاءتني بقصائد مكتوبة بخط يدها، فاخذتها شاكرًا، وانا الآن احتفظ بقصائد هند هارون، شاعرة الشاطىء الحالم، كهدية من انفس الهدايا التي حملتها من الوطن.

« عندما ذهبت إلى دمشق في كانون الثاني من هذه السنة، زرت وزوجتي في إحدى السهرات صديقي الاستاذ عبد الله عبود، الموظف في دائرة الدعاية والانباء. ولقد كان هذا الاستاذ مرافقي الرسمي مدة اقامتي في الوطن، منذ ان وطأته قدماي إلى ان ودعته عائدًا إلى البرازيل، وفي اثناء هذه المدة الطويلة توثقت بيننا عرى الصداقة، فجمع حولي ليلتئذٍ باقةً نضرة عطرة من صبايا الحيّ الذي يقطنه، وكنّ كلهن مسلمات

جئن (يتفرجن على الشاعر المهجري ، فراح الشاعر المهجري يتفرج عليهن ۰۰۰ !) فسألتني : ما أحسن ما رأيت عندنا يا استاذ؟ فكان الجواب الفوري : انّ أحسن ما رأيت هذه الوجوه النضرة الجميلة التي كانت التقاليد البالية العفنة تحجبها عنا . وها هي اليوم سافرة تملأ الجوّ مرحا وبهجةً واشراقاً ، ثم قلت مداعباً : عندما سافرت إلى البرازيل كان عمري تسع عشرة سنة ، ومع اني كنت اعيش في بيروت وحواليها ، فلم اكن رأيت وجه آنسة مسلمةٍ بعد ، فكنت اظن ان للمرأة المسلمة عيناً واحدةً تتوسط جبهتها ! وان لها انفين اثنين كل أنفٍ نابت في خدّ !... اما الآن فاني أراكنّ كغيركن من النساء ، بل أراكن أجمل من غيركنّ !

« فضحكن لمداعبتي وطربن لاطرائي جمالهنّ وحمدن الله على ما وصلن اليه من حرية .

« ولقد كنت في كل اجتماع ابشر وادعو إلى سنّ نظام مدني علماني للاحوال الشخصية ، يقوم عليه بناء الاسرة العربية بقطع النظر عن اختلاف الطوائف الدينية ، إذ يكون الزواج مدنياً ، ومثله يكون الطلاق بحيث يصبح من السهل زواج المرأة المسلمة – إذا هي شاءت طبعاً – برجل غير مسلم ، كما هي الحال في العالم المتمدن ، فتتمكن روابط الاسرة العربية عن طريق المصاهرة ويصبح حنا مثلاً خالاً لمحمد ، وعلي خالاً لطنوس ... فقالت لي مرةً إحداهنّ : « ان هذا الذي تبشر به وتدعو اليه يا استاذ لا يجوز قطعاً ، لانّ في القرآن نصاً صريحاً على

تحريمه » فاجبتها ضاحكاً : « ان في القرآن نصاً صريحاً على وجوب قطع يد السارق، فلو قمنا بهذه العملية لما سلم لنـا كثيرٌ من الايدي ... » فضحكت هي الاخرى وقالت : « صدقتَ ! » .

« ان (علمنة) قوانين الدولة وتوحيد انظمة الاحوال الشخصية لا تعني اخراج الناس عن دينهم الذي نشأوا عليه، فالمسلم يبقى مسلماً كما كان، والمسيحي يظل مسيحياً، ولكنها تحفظ كرامة الاديان وتحفظ وحدة الامة ولا تمنع من يريد أن يتزوج دينياً عما يريد، ولكنها تشترط عليه أن يتزوج مدنياً أولاً لانها لا تعترف بغير هذا الزواج، انه هو وحده الزواج الشرعي القانوني، وما الزواج الآخر إلاّ تلبية لرغبة العروسين في المحافظة على التقاليد الاجتماعية !

« وبجعل انظمة الاحوال الشخصية واحدة تختلط الاسر وتموت النعرات الدينية والمذهبية، والعلم إذا لم يكن علمانياً محضاً لا ينفع كثيراً لانه لا يزيل التعصب الموروث، فلقد رافقتُ في الباخرة التي أرجعتني إلى البرازيل زوجين لبنانيين (درزيين) وكان الرجل هادئاً سكوتاً، وهو من المهاجرين القدماء، ومع انه غير متعلم فقد كان – بسبب هجرته الطويلة – أصحّ تفكيراً من زوجته الشابّة المتعلمة التي تقول انها تلقت علومها في مدرسة (الجامعة الوطنية) في عاليه، كانت هذه السيدة تغادر لبنان لاول مرّة في حياتها، ولقد جاءت مع زوجها الذي يعود إلى البرازيل ليصفي أعماله فيها ويعود إلى لبنان نهائياً. وقد تركت عند والدتها في لبنان أولادها الثلاثة، وكانت ما تنفك تذكر

ابنتها الطفلة الجميلة التي يوازي حبها لها حبها لأخويها معاً (لانها أجمل وأذكى طفلة في الدنيا ...) فسألتها مرّة : افرض ان طفلتك هذه، بعد أن تصبح فتاةً في سن الزواج، رزقها الله عريساً فيه كل الصفات الطيبة التي تؤهله للزواج بها، إلا انه غير درزي فهل كنت تزوجينها منه؟ فأجابت دون أقل تفكير : « اني افضل أن أراها ميتةً امامي على أن ازوجها لرجل غير درزي ... » وهنا (قطعت جهيزة قول كل خطيب ...)(١)

« ويسرني كل السرور أن اذكر لكم اني بقيت في سوريا، اعاشر كل الطبقات، نحواً من سنة لم أسمع في خلالها كلمة مسلم ومسيحي أو لم يقل قائل ان فلاناً المسلم تشاجر مع فلان المسيحي، حتى لكأن القوم هناك قد محوا من قاموسهم هاتين الكلمتين، كما لم اشهد مدة اقامتي وتجوالي في سوريا شجاراً جرى بين اثنين، ولم اسمع إلا بحادث سرقة واحد، إذ سُرقت بقرات جوزيف زيتون، في حمص ولم اسمع في الشوارع كلمة بذيئة مع اني كنت اخالط كل الناس، واني اكرر القول صادقاً ان بلادنا في خير، بل انها في الف خير، ولا يقول لكم عكس هذا إلا المنافقون الدساسون المتعصبون، وعليّ أن اعلن ان في سوريا

(١) لقد تعلمتُ من هذه السيدة شيئاً لا يمكن ان انساه ابداً ، سألتها : « كم عدد الدروز في العالم ؟ » فكان جوابها القاطع : « ان عددهم يكون دائماً اكثر من عدد نصف سكان الارض ... »

وهكذا ، وللمرة الثانية قطعت جهيزة قول كلّ خطيب !

اليوم شاكين ، وانهم ثلاثة : الاول كان موظفاً فعزل لسوء تصرفه أو ألغت الحكومة وظيفته لعدم الحاجة اليها ، والثاني كان اقطاعياً يتحكم برقاب الفلاحين ويأكل ثمرة اتعابهم ، فكفت الحكومة يده عن ضحاياه ، وارجعت الثمرة إلى أصحابها الحقيقيين وهم الذين غرسوا الشجرة بايديهم وسقوها عرقهم ، والثالث كان تاجراً يبيع بالثمن الذي يريده فاذا جاء آخر السنة عجز عن معرفة ارباحه لوفرتها ، فحددت له الحكومة الاسعار وحددت الاستيراد فصار ربحه محدوداً ، ولكنه يكفيه ويكفي عشرات من العيال ، هؤلاء ، هم الذين يشكون في سوريا اليوم ويتظلمون ، وهذا لا يعني ان الحكومة هناك مجموعة ملائكة لا يخطئون ، ولكنه يعني ان الخطأ إذا وقع عن نية حسنة لا يصلح بالدس واثارة النعرات وتلفيق الاشاعات التي لا ترتكز على اساس من الحقيقة ، وإنما يصلح بالنصيحة المخلصة والارشاد والتساهل ووضع الامور في مواضعها ، فلا نقول ، مثلاً ، ان مصر أرسلت إلى سوريا عبد الحكيم عامر مفوضاً سامياً يمثل الاستعمار الفرعوني كما سمعت من بعض الافواه القذرة وإنما نقول الحقيقة وهي ان الرئيس جمال عبد الناصر أرسل عبد الحكيم عامر إلى سوريا ليزيل الخلاف الذي استحكم بين الحكام السوريين وابناء قطرهم الاقطاعيين بسبب تنفيذ قانون الاصلاح الزراعي ، إذ ان كلا الفريقين يرى الحق في جانبه ولا يتنازل عن شيء منه . فجاء المشير عبد الحكيم عامر حكماً بين الاخوان المختلفين ففض الخلاف وكفى البلاد شر المشاغب والقلق .

« وخلاصة القول، ان في سوريا شعباً واعياً وحكومة ساهرة وان القانون فيها فوق كل شيء!..

* * *

« والآن فلننتقل إلى لبنان، لبنان الذي خلقه الله في اليوم السادس، اي ان الله خلقه واستراح...

« المسافة بين دمشق وبيروت مئة وخمسة كيلومترات، والطريق بينهما كأحسن الطرق المعبدة المزفتة. ولكن بين المدينتين حدود وسدود ومعاملات ومزعجات، كنت كلما وقفت هناك انشد على مسمع رجال الامن الرابضين في الجهتين:

هذي دمشق وذي بيروت انهما في طامة الوطن المعبود عينانِ
لسنا نفضل، مهما نلقَ من عنتٍ، عيناً على اختها، لسنا بعورانِ!

« فيضحك الخفير ونستأنف المسير، فنجتاز سهل البقاع عرضاً إلى جنةٍ وارفة الظلال يسمونها (شتوره!) وما ان نجتاز هذه الجنة حتى تأخذ السيارة في التصعيد، وفي أقل من نصف ساعة تقطع سنام الجبل من (ضهر البيدر) وتشرف على دنيا من الجمال لا اظن ان في الكون ما يضاهيها، هذا وادي حمانا عن يمينا، ترصعه القرى الجميلة المنتشرة على جانبيه، ويغلفه أحياناً ضباب خفيف شفاف، يزيده جمالاً كما يزيد البرقع الشفاف في جمال الحسناء، ثم هذه صوفر آخذةٌ بيد بحمدون، وهذه بحمدون آخذةٌ بيد عاليه، وهذه عاليه واقفةٌ على كتف الكحاله!

وتحت هذا كله بيروت ، ووراء بيروت البحر وهو أشد زرقـة من السماء ، والسماء أشد صفاء من غير الماء ... وبيروت أجمل مـا تراه من الجبل ، فاذا دخلتها قلتَ : ليتني بقيت بعيداً عنها ، أتمتع بنظر منها هناك ، انها كاللوحة الزيتية تأخذ بلبك وانت بعيد عنهـا فاذا دنوتَ منهـا أزعجتك رؤية الاصباغ !

« اما قرى الاصطياف في الجبل فهي جنائن معلقة أين منها جنائن بابل ! اني لا أعرف لقرى الاصطياف في لبنان مثيلاً . وقفتُ مرةً في بيت مري ، في منزل الصحافي الاستاذ كامل مروه ونظرتُ شرقاً فخلتني أرى (ضهر البيدر) ثم نظرت شمالاً فظننتني أرى طرابلس ثم أرسلت نظري جنوباً فتوهمتُ اني أرى صور ، اني أرى نصف لبنان في لفتـة واحدة ، فهتفتُ بصوتٍ عالٍ : أنا أتحدى الكون أن يبرز منظراً رائعاً كهذا !

« انّ لبنان رائع حقاً ، واعني بلبنان جبل لبنان ! اما بيروت فانها مدينة مزعجة ، مدينـة لا تتسع لاكثر من مائتي الف من النـاس ، يزدحم في ازقتهـا في النهار مليون مخلوق من بني آدم ... وليس الذنب في هذا ذنبها أو ذنب حكومتها أو بلديتها ، وإنما هو ذنب الطبيعـة التي أوجدتها في هذا المكان الفريد ، ان قربها من الجبـل ، وجودة الطرق منه اليها يحمل أبناءه كل يوم على الانحدار من القمم العاليـة ، والصعود من الاودية العميقة ، والزحف إلى المدينـة الوحيدة الجامعة

لكل أنواع المتاجر والمصانع والملاهي والملاجئ، فضلاً عن المدارس، فهي قفير بشري يعجّ بكل صنف من صنوف الناس!

« ان الغريب الذي يدخل ازقة بيروت يحسن إلى جهازه العصبي إذا هو حشا اذنيه قطناً، انه بهذه العملية البسيطة السهلة ينجو من الضجيج الذي يصمّ الاذان، ومن سماع ما لا يحسن سماعه من بذاءة السواقين والبحارة والمتشردين!

« على ان دائرة بيروت الخارجية آخذةٌ بالاتساع، فالبلدية تعمل في فتح الطرق العريضة الجميلة حول المدينة، ولا سيما في جهة (الحرش) و(المطار) والاغنياء من السكان يبنون القصور الفخمة على جوانب هذه الطرق، ولعل قلب بيروت، المزعج اليوم، يصبح غداً رحباً جميلاً، إذ توفق البلدية إلى ازالة ازقة (النورية) القذرة الكريهة المنظر والرائحة، ان هذه الازقة لتجعل من بيروت جحيماً لا يطاق، وانه لا يليق بمدينة الجامعات أن يكون فيها مثل هذه القاذورات!

« اذكر انني عندما مررت لاول مرّة في أحد تلك (الزواريب!) كدت اختنق من الزحام، ورحتُ اتحامل على نفسي حتى لا اقيء ما في جوفي أمام الناس، بل على الناس... هذا والنورية هذه لا تبعد عن ساحة الشهداء أكثر من مئة متر، وساحة الشهداء هي قلب بيروت النابض بالحياة!

«وبيروت، مع هذا، مدينة الفنادق الفخمة، والمطاعم الانيقة، والملاهي والكبريهات، ومعظمها منتشر حول البحر على جانب (الكورنيش) الجميل.

« وفي بيروت يزيد عدد الصحف على حاجة السكان، فيعجب المرء كيف يستطيع الصحافيون الذين يُعدّون بالعشرات والمئات أن يقوموا في واجباتهم المادية في بلد صغير كلبنان، ولكن عجبه يزول ويتلاشى عندما يعرف ان معظم هذه الصحف يعيش بمال الدول العربية والاجنبية، وبمال الامراء العرب والشركات الغريبة عن لبنان، وبمال كل صاحب مصلحة في اجتذاب أهل لبنان.

« قال لي مرةً أحد الصحفيين: هل تعلم ان (قاسماً) « عبد الكريم قاسم » قد اشترى الليلة الماضية خمسة عشر جريدة، فبهتُ لهذا الخبر، وقلتُ كيف؟ قال طبعاً ليس هو الذي اشترى وإنما سماسرته قد اتفقوا أمس على جذب ١٥ جريدة إلى سياسة قاسم، وعليه فنحن ننتظر حدوث أي شيء في العراق!

« وهكذا، وفي هذا الخضمّ من المصالح والنزعات المضطربة تسبح الصحافة اللبنانية! ومع هذا فهي صحافة حرّة...

« والعمران في لبنان يكاد يكون منتشراً في كل مكان، إلاّ انه في بيروت وما وراءها من (المتن) أوسع انتشاراً وأعمّ وهو في الشمال والجنوب بطيء جداً، ولكنه على كل حال تراه في المناطق المتأخرة أوسع مما هو في القرى السورية التي هي في حاجة ماسة إلى سائر وسائل التطور.

« والأبنية في مصايف لبنان قصور جميلة المنظر، بديعة الهندسة، مبنية كلها بالحجر الابيض المنحوت، وعلى أشكال يأخذ جمالها بالقلوب،

وبعضها يشبه أقراص الحلوى التي تُصنع لاعراس الذوات في البرازيل...
ومثلها قصور ومنازل دمشق الحديثة، التي شبهتها بقصائد شاعر فنان مجدّد، نظم بعضها محافظاً على عمود الشعر التقليدي، ونظم بعضها الآخر موشحات اندلسية أو مهجرية!. قصائد وموشحات فيها التساوق والانسجام ولكن ليس شيء مما يسمونه الشعر الرمزي أو الشعر الحرّ! ذلك لان الفنان الذي نظمها عاقل، والعاقل لا يعمل عملاً غير مفهوم! وليس كذلك عمل الطبيعة، ان الطبيعة قد تعمل أعمالاً في غاية الجمال وتكون مع جمالها طلاسم غير قابلة الحلّ، ان مغارة جعيتا، مثلاً، هي خير مثال لعمل الطبيعة، ولكن ماذا تعني؟ ولماذا هي هكذا؟! سؤال لا جواب عليه! وارجو الا يكون في هذا التشبيه ما يغري أصحابنا ناظمي الشعر الرمزي أو الشعر الحرّ بالسير قدماً في ما هم فيه تشبّهاً بالطبيعة، في نظم الشعر الذي لا يفهمه أحد حتى ولا هم انفسهم!...

« اما الحديث عن الحياة في بيروت فهو لا يرضي، لسوء الحظ، الذين يحبون لبنان، ويريدون له الطمأنينة والأمن، في الصيف الماضي شاءت حكومة لبنان أن تقيم مهرجاناً لتكريم المغتربين العائدين إلى وطنهم زوّاراً وشاءت أن يكون المهرجان في قصر « بيت الدين » فانتقلت هي إلى هذا القصر، وانتقل معها الوف من أهل المدينة والجبل، وعلى مقربة من « بيت الدين » وفي زحمة ذلك الخلق الكثير قُتل النائب نعيم مغبغب، فاضطربت المدينة والجبل، واضطرب لبنان

من أقصاه إلى أقصاه ! وتأزمت الحال تأزماً لازم الاهالي والمصطافين طول مدة الصيف.

« وقبل أن ينسى الناس هذا الحادث الفظيع المؤلم ، قَتَلَ أحد جلاوزة البلدية في بيروت وفي قلب قصر العدل ، رجلاً اسمه متري العقدة ، اما اسم القاتل فحسَين أو حسن شميساتي ، وهو شيعي ، والمقتول مسيحي من « قبضايات المزرعة ! » قتله بثأر أخيه الذي كان قتيل اليوم قد قتله من اثني عشر عاماً ، فهاجت بيروت وماجت ، وتجمهر شبان المزرعة والمصيطبة وقاموا بالمظاهرات الحماسية .. وراح الرصاص يلعلع في الفضاء بالالوف وبعشرات الالوف ، وكنت يومئذٍ مقيماً في (المزرعة) وعلى بعد امتار من بيت القتيل. فشهدت كل هذا من نافذة البيت الذي أنا فيه ، ثم عدت فأقفلت النافذة واويت غرفتي ، ومنعت زوجتي ومن معها عن فتح النافذة والاطلال منها على الشارع خوفاً عليهنّ من الرصاص الطائش الذي كان يتطاير في كل وجهة ، ثم ان فرق الشرطة وقفت بعيداً تسدّ منافذ المزرعة والمصيطبة دون أن تدخلهـا ، وذلك منعاً لدخول الغرباء والمشاغبين ، ولتحول دون اصطدام الفرق المتنافرة ، هذا واقتناء السلاح ممنوع في لبنان ، ولكن ظهر منه في ذلك اليوم في ايدي الناس ما يكفي لطرد اليهود من فلسطين ...

« قلت ان القتيل من (قبضايات المزرعة) وهو كذلك ، فلقـد سمعت احدى نسيباتي تقول : « الله يقتلهم ! كان حامي المسيحيـة ! ، كان حامينا !... » فتذكرت كلاماً مثل هذا كنت أسمعه قبل سفري

إلى البرازيل، اي من نصف قرن... فقلت لنفسي: (يا ويلاه! بعدنا مطرحنا..).

حاشية: لم اذكر في المحاضرة هاتين الحادثتين المؤلمتين، حتى لا ازعج السامعين، وانما اذكرهما هنا حرصاً على التاريخ.. وعلى الصدق!

« قلت للدكتور عبد الله اليافي، وأنا ازوره في مكتب جريدته «السياسة»: اظن يا دكتور، بل اؤكد لك، انكم كلما ابتعدتم عن النعرات الدينية خطوة قرب لبنان إلى العروبة خطوات. ففهم الدكتور اني اعني النعرات الدينية الاسلامية، وكنت فعلاً اعنيها، فأجاب: « ان التعصب الديني عندنا داء محلي، انه كبعض الامراض المستوطنة! لا علاقة له بالقومية العربية، اننا - كما يعلم الجميع - حاربنا ونحارب (حلف بغداد)، وممن يتألف هذا الحلف؟! انه يتألف من تركيا وايران وباكستان وكانت فيه العراق، وكل هذه دول اسلامية، فأين تعصبنا الديني؟! اننا نتعصب للقومية العربية وهذا تعصبٌ لا نستحي به وإنما نعلنه على الملأ مفاخرين!. فأفحمني.

« قبل مغادرتي لبنان بيوم واحد، شاءت الحكومة اللبنانية الكريمة أن تكرمني فمنحتني وسام الارز الوطني من رتبة فارس، فأقام الوزير علي بزي، وهو وزير الداخلية والانباء، في هذه المناسبة، حفلة دعا اليها جمهوراً من الادباء والسياسيين، وألقى بعد أن قلدني الوسام كلمةً قال فيها: ان الحكومة اللبنانية إنما تكرم نفسها بتكريمها أحد فرسان القريض، وانّ سيف الدولة ابن حمدان لو أعطى المتنبي كلّ ما

ملكه لما وفاه حقها، فرددت على الوزير الصديق بكلمة شكر له وللحكومة اللبنانية، جاء فيها : اني اشكر لكم، يا سيادة الوزير، وللحكومة اللبنانية هذا العطف، وارجو أن تسمحوا لي بالقاء قصيدة القيتها مدة اقامتي في لبنان عدة مرات، واني ساظل القيها ما دمت أرى ان الحالة في لبنان تستدعي الضرب على هذا الوتر، اني أرى الضرب على هذا الوتر ضروري لاني أرى ان التعصب الديني والطائفي لا يزال في لبنان كما كان منذ ان هجرت هذا الوطن الجميل. وانشدت القصيدة التالية :

ها قد وصلتَ إلى النمير الصافي ... فاستاقِ تحت مظلة الصفصافِ
وأصخ بسمعك للخرير كأنه ... شكوى المحب إلى الحبيب الجافي
الروض حولك بالورود مرصعٌ ... ومزركش الاوساط والاطرافِ
ومن الزنابق للعطور قماقمٌ ... ومن البنفسج والشقيق مصافِ
والشوق مضطرم الضلوع مسهدٌ ... والحب في حضن الطبيعة غافِ
والارز ممدود الذراع مرحبٌ ... بالعائد المشتاق والمصطافِ
والليلة القمراء مظهرةٌ على ... وجه الخضمّ تراقص الاطيافِ
وعلى الشراع قصيدةٌ مرسومةٌ ... عشتار تمزقها على المجذافِ
والموج يضحك للنجوم مؤانساً ... ضحك الفتى العربيّ للاضيافِ
والبدر في بيض الغيوم كأنه ... راعٍ يحيط به قطيع خرافِ

* * *

صنين في ورع الشيوخ معمم ... والشط في مرح الطفولة حافِ
والناس بينهما تلقّوا عنهما ... عز الشموخ وذلة الاسفافِ
يتجاهلون فيحسبون مهاجرًا ... أقصى منازلنــا وهنَّ منـافِ
فيهنَّ غابشةً تقلبنا النوى ... مثل الدراهم في يــد الصرافِ
فلو انهم طابوا كجوِّ بلادهم ... عشنا وهم فيهــا بخيرٍ وافِ
متباينو الاخلاق والاذواق والـ ... عادات والنزعات والاوصافِ
كثرت مدارسهم فقـل وفاقهم ... وتشعبوا بتشعب الاهدافِ
الطائفية شوهت حسناتهم ... ومحت جمال المدن والاريافِ
جمعت جهالات العصور فصيرت ... منهــا لانوار العقول مطافي
لبنان يا وطني فديتك موطناً ... مضنى يصدّ عن الدواء الشافي
مني لك النصح البريء ومنك لي ... قلب الشفاه وهزة الاكتافِ !
اتذل اقلام النوابـغ في الحمى ... وتعز فيــه خناجر الاجلافِ
ونرى من العلم الغلاف فندعي ... أ ننا فضضنا عنــه كل غلافِ ؟!
ونرى اللآلئ في المغاص فنتهي ... عنها بما في الشط من اصدافِ ؟!
اني ارى (يا مصدر الاشعاع) في ... دعواك الوانًا من الاسرافِ
وارى التعصب خلف علمك بارزًا ... كالقبـح خلف البرقع الشفافِ
لبنان، كذبني تجــد مني فتىً ... ادنى بني الدنيــا إلى الانصاف
لا يعرف التدجيل في شيء ولا ... يُعلي اخا تاجٍ على اسكافِ
لبنان، ان ترضِ العروبة كان لي ... في القول فيك من النجوم قوافِ
يا شيــخ ما لك والثلوج كثيفةٌ ... حرزٌ سوى هذا الفراش الدافي !

القلب انت وما شغافك غيرهـا   أرأى امرؤ قلباً بغير شغاف
والعرب اهلك ان يقابل معرضٌ   عن اهـله إلا بالاستخفـافِ
ما انت الأهم فهم الك معدنٌ   هذي الرياض اصولهن فيافِ
والتمر في أعلى النخيـل مناطه   وحياته بالجذر والالياف ا

« فلما انتهيت من القائها قال الوزير: هذا كان في الماضي يا فرحات فقلتُ وهل تمني ان الحالة اليوم أحسن منها امس ؟!.. فضحك الوزير الصديق وشاركه الباقون في الضحك ، إذ ان الحالة كانت يومئذ سيئة للغاية ، وذلك بسبب تعرض أهل الكحالة للذاهبين إلى دمشق لتحية الرئيس جمال عبد الناصر .

« عندما غادرت لبنان ، في شباط من سنة ١٩٦٠ كانت الحال في لبنان في غاية السوء ، وكانت الافكار قلقة مضطربة ، فقد اعترض بعض أهل الكحالة سيارات الذاهبين إلى دمشق ليحيوا الرئيس جمال عبد الناصر مرتين متواليتين واشتبكوا مع ركاب هـذه السيارات في قتال ، لم يسفر لحسن الحظ عن شر كبير ، وحدث اعتداء آخر من هذا النوع في فرن الشباك ، فكان لهذه الحوادث ردة فعل في (البسطة) إذ هاج شبانهـا ، ولما لم يروا امامهم إلا مركبات الترامواي حطموهـا واحرقوا بعضاً منها!.. فخاف الناس أن تتجدد حوادث ١٩٥٨ المشؤومة التي لم تكن الجراح التي صدرت عنها قد التأمت بعد ، وخشي العقلاء على أرواحهم ومصالحهم ، وجاءني رسول من أهلي يطلب مني عدم قبول اية دعوة هاتفية من اي كان ، وان ادعو من يريـد أن يقابلني أن

يتفضل إلى بيتي ، وما ذلك إلا خوفاً عليّ من الخطف... ومن كان من الممكن أن يخطفني؟ ، طبعاً ليس الصبايا ! وإنما كان الخوف ممن يريدون الانتقام دون تمييز بين المجرم والبريء !

« والغريب ان الذين يتعصبون للدين يعصون أوامر الدين ونواهيه ، ويعصون رئيس الدين الاعلى ويعصون الحكومة والعقل ، ولا يطيعون إلا نزعاتهم الملتوية !

« بعد وصولي إلى بيروت بايام قليلة ذهبت والشاعرين الصديقين عمر أبي ريشه والاخطل الصغير إلى زيارة غبطة البطريرك المعوشي في بكركي ، فرحب بنا أجمل ترحيب ودعانا إلى تناول طعام الغداء على مائدته ، فقبلنا دعوته شاكرين .

« قلت له في كلمة التحية التي ألقيتها بين يديه : (ان موقفكم المشرّف من حوادث لبنان المؤلمة في السنة الماضية ، لم يحقن دماء اللبنانيين فحسب ، وإنما هو حفظ لهم كرامتهم أيضاً ، فلولا هذا الموقف لحدثت مذابح في لبنان ، مذابح دينية هائلة ، ولفضحت أخبار هذه المذابح في العالم المتمدن دعوى اللبنانيين الذين يزعمون ان بلدهم بلد الاشعاع ، إذ لا اشعاع مع التعصب الديني !) فقال لي غبطته :

(وبسبب موقفنا هذا سمعنا من أبنائنا كثيراً من الشتائم ، انهم كانوا يريدون أن نعلنها حرباً صليبية ، وعلى من ؟! على نصف سكان لبنان المسلمين ، ان التعصب ، يا ابني ، يعمي ويصم ، انه يطمس العقول التي خلقها لنا الله ، اننا نريد أن نعيش في هذا الوطن مع اخواننا على

اختلاف أديانهم ومذاهبهم كما يعيش الاخوان في البيت الواحد، ولا نريد أن نكون كاليهود في فلسطين، محاطين بالاعداء من كل جانب، ولكن المتعصبين من أبنائنا لا يفهمون هذا ولا يريدون أن يفهموه! انهم كانوا يشتموننا علناً وعلى صفحات جرائدهم! لقد وهموا انهم أشد حرصاً على لبنان منا، وانهم أصدق مسيحية من البطريرك!..) ثم قال: (ارجو أن يعلم أبناؤنا المغتربون اننا قمنا بواجبنا نحو الدين والوطن وان ضميرنا مرتاح وهذا حسبنا).

« فشكرتُ له اخلاصه ووعدته بنقل كلماته إلى المهاجرين، ثم أسمعته أبياتاً من الشعر كنت اعددتها لهذا الموقف، فسر بها وامر بتسجيلها على آلة عنده، والابيات هي:

يا صاحب القلب الذي غمرتْ	آمـاله آلام لبنـانِ
وطوت ضغائن كان ينشرها	باسم الديانة كل شنآن
أنا من وراء البحر كنت أرى	مـا كان يجري بين اخواني
وأرى الجناة يسطون على	هذي الربوع طوائف الجانِ
وأراك تدفع كلَّ نازلةٍ	عنهم باخلاصٍ وايمانِ
حتى اذا ما النازحون مشوا	والشر منهم موشك دانِ
علقتُ رسمك عوذةً لهمو	وطردتُ باسمكَ كلَّ شيطانِ

« وقبيل مغادرتي لبنان إلى البرازيل ذهبت صحبة الصديق صاحب (الراصد) إلى بكركي فودعتُ غبطته، فما كان منه إلا ان

أرسل يوم سفري ، الاستاذ الياس الحويك ، إلى الباخرة لتوديعي ، فكان لتلطفه هذا أجمل الاثر في نفسي .

« ان العصبية الطائفية في لبنان هي السائدة ! . فاني ما زرتُ درزياً في بيته إلا وجدتُ بيتهُ مكتظاً بالدروز ، وما زرتُ شيعياً إلا كان زواره كلهم من الشيعة ولقد أبديت هذه الملاحظة في سهرة كانت لنا في منزل الاديبة الصحفية السيدة نورا نويهض حلواني ، ابنة الصديق الاستاذ عجاج نويهض ، وقد كان أبوها في هذه السهرة كما كان فيها كذلك المربي المجاهد المؤمن الاستاذ علي ناصر الدين ، أبديت هذه الملاحظة فاحتج الاستاذ علي ناصر الدين احتجاجاً قوياً ، زاعماً اني واهم وان لا عصبية طائفية بلبنان اليوم وإنما هو وهم تملكني منذ ان كنت صبياً ! . على ان واقع الحال كان يضع الحقّ في جانبي ، ولم يكن المتوهم إلا هو ، مما يؤكد ان القوم لا يشعرون بتعصبهم ، كما لا يشعر المريض بالداء المزمن الذي لازمه منذ طفولته !

« قلتُ له (يا استاذ ، طوّل بالك ولا تغضب ! يكفي أن ترى المجتمعين في هذا البيت الكريم وتحكم ، فادار نظره في الحضور واستولى عليه الوجوم كانه كان نائماً فاستفاق بغتة) . لم يكن في المنزل بين الحاضرين البالغ عددهم العشرين أو أكثر ، رجل غير درزي إلاّ أنا ...

« على اثر اضطراب حبل الامن في لبنان بسبب حوادث الكحالة ، جاءني رجل من أهل الرأي ، وكان هذا الرجل مسيحياً مارونياً ، وكان لي صديقاً ، فقال بعد حديث طويل : (ان لبنان لن يعرف الامن والراحة

إلا إذا التحق، بطريقة من الطرق، بالجمهورية العربية المتحدة، وان في البلد حركة للاتصال بالمسؤولين في القاهرة ودمشق لهذه الغاية، فما رأيك؟) فأجبته مصارحاً: اني اخاف على الجمهورية العربية المتحدة منكم، ولا اظن ان هذه الجمهورية تقبلكم وانتم على ما انتم عليه من التفرقة وحب المشاغبة، اصلحوا أولاً انفسكم وازيلوا من بينكم الحواجز الطائفية، واغسلوا قلوبكم من الضغائن وادهنوها بزيت المحبة والالفة حتى إذا دخلتم الوحدة دخلتموها اصحاء القلوب ففتحت هي ذراعيها لاستقبالكم بشغف ومحبة، اجل، لا اظن انها تقبلكم على علاتكم، وإذا هي قبلتكم وانتم تتعصبون لطوائفكم ويحقد بعضكم على بعض وجب عليها أن تضعكم في المحجر الصحي (الكرنتينا) مدةً تشفون فيها من أمراضكم، حتى لا تدخل عدواكم إلى شعبها!...

«كنت وانا اطوف في جبال لبنان الساحرة اردد شطراً من الشعر نظمته وتعذر عليّ اتمامه ليصبح بيتاً كاملاً، وهو:

(يا جنةً اهلها شياطينُ!)

«والحقيقة ان ليس كل أهل لبنان شياطين، وان فيه كثيراً من الملائكة، ولكن هؤلاء الملائكة هم الذين يتألمون لما يتخبط فيه لبنان، ثم ان هناك حقيقةً اخرى، وهي ان شيطاناً واحداً يفسد في ساعة ما يعجز عن اصلاحه كل الملائكة في سنة كاملة!

«وقد يخطر في فكر بعض الناس أن يسأل: (أوَ ليس في غير لبنان شياطين؟!)

« والجواب : (قد يكون عدد الشياطين في غير لبنان أكثر منه في لبنان، ولكن يظهر انهم لا يجرأون على رفع رؤوسهم لانهم يخافون السلطة التي اماتت المحسوبيات وأحيت القانون ! وهي جادة في توحيد النزعات المختلفة ولا تتساهل قط مع من يفسد عليها عملها) .

« ان مصيبة لبنان الكبرى متأتية عن اختلاف مناهج التعليم في مدارسه. ان كل مدرسة فيه تعلم ما يحلو لها وما يتفق مع نزعات أصحابها ومديريها، واصحابها ومديروها اما لبنانيون متعصبون (بالوراثة !) واما أجانب طامعون، وهؤلاء واولئك هم الذين يربون الشياطين ! فاذا توفقت الحكومة إلى توحيد برامج التعليم، والاشراف على تنفيذ هذه البرامج، على أن تكون (وطنية علمانية) لا اثر فيها لدين من الاديان، بقيت الجنة جنة وأصبح الشياطين ملائكة !

« كان الله في عون لبنان » .

* * *

– استدراك –

كنت قد ذكرت في الصفحة ٢٠٣، اثناء زيارتي لحلب، ان المركز الثقافي في عاصمة الادب اقام لي امسية شعرية تكلم فيها شعراً الصديق الاستاذ عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة « الضاد » . ولما كنت قد اضعت هذه القصيدة بين الاوراق، لسوء الحظ، ولم اعثر عليها الا بعد ان انتهى هذا الباب من هذا المؤلف آنئذٍ رأيت ان اثبتها في آخره لكي لا يحرم القراء الكرام من لذة مطالعتها . واليكم هذه القصيدة كما نشرت في مجلة الضاد الغراء : –

الشاعر الثائر

نشرنا في الصفحة ٣٣٧ من عددنا الماضي، وصف الحفلة التكريمية، التي اقامها المركز الثقافي العربي بحلب، للشاعر المهجري الكبير الشهير الاستاذ الياس فرحات، بمناسبة زيارته الشهباء .

وها نحن ننشر في ما يلي، القصيدة التي القاهـا صاحب « الضاد » ، في تلك الحفلة الرائعة الشائقة :

* * *

تُصغي اليـك النيّراتُ فتطرَبُ
وتعُبُّ من خمرِ البيانِ وتشربُ
وتودُّ لو كانت قوافيـكَ التي
تسبي عقولَ الماهـرينَ وتخـلُبُ
خلِّ البلابلَ في الرياضِ وشدوَهـا
واصدحْ بشعركَ إنَّ شعركَ اعـذبُ
شِعرٌ هوَ الابـداعُ إلاَّ أنـهُ
كالسيف يلقى الظالمـينَ فيضربُ

* * *

هو شاعرٌ تسبيكَ روعةُ سبكهِ
فتخالُ أنَّ السحرَ فيـهِ مذوّبُ
لا تعجبنَّ إذا سكرتَ بفنّـهِ
فالشيءُ من مأتاهُ لا يستغربُ

طلقُ الجناحِ فلا يحدُّ خيالَهُ
أفقٌ، ولا يرقى إليهِ كوكبُ
الشمسُ ودَّتْ لو تكونُ يراعةً
في كفهِ يُوحى إليهِ وتكتبُ

* * *

فارقتَ أرضاً روّعتها عُصبةٌ
منْ آلِ عثمانٍ تجورُ وتنهبُ
وتعذّبُ الأحرارَ، كم حُريّةٍ
خُنقتْ وكم ظلّامَ الاباةُ وعُذّبوا
وأتيتَ ربما طيّباً متحرراً
يحنو على الحرِّ الكريمِ ويحدبُ
والحرُّ يأبى ان يعيشَ مقيّداً
واخو النشاطِ مشرِقٌ ومغرِبُ
في كلِّ قطرٍ للمناضلِ ساحةٌ
وبكلِّ أفقٍ للقشاعمِ ملعبُ
النسرُ مجروحاً يظلُّ محلّقاً
والليثُ مأسوراً يثورُ ويغضبُ
قد ثُرتَ منْ أجلِ العروبةِ مثلما
ثارتْ على كفّارِ مكةَ يثربُ

نصرتْ نبيَّ العربِ فاعتزّتْ بـهِ
والعزُّ يُنمى للنبيِّ ويُنـسبُ
إنّـا نسيرُ إلى الجهـاد وكلّنـا
يومَ الجهـادِ عزائمٌ تتلهّبُ
إنّـا نحطّمُ باتحـادِ قلوبنـا
مستعمرًا هوَ في المطامعِ أشعَبُ
قولوا لهُ إنْ شاءَ غزوَ بلادنا :
النمـل جاهزةٌ فأين العقربُ ؟ !
إنّا على دينِ العروبة أخوةٌ
والدّينُ العربيُّ لا يتمذهبُ
وأنا على دربِ التسامحِ سائرٌ
لكنني اعروبتي متعصّبُ
الوحدةُ الكبرى نحققها غدًا
فانظرْ فانَّ شعوبنا تتأهّبُ
قـد قـامَ يجمعُ شملنـا ويقودُنا
بطلٌ أبيٌّ في الحروبِ مجرّبُ
هو ناصرٌ رمز الكفاحِ وشُعلةُ
الحقِّ الصّراحِ وقائـدٌ لا يُغلبُ
هو قاهرُ المستعمرينَ ومصلحٌ
باهى الخلودُ بهِ ، وباهتْ يعربُ
* * *

هذا النظيرُ(١) وهذه آياتهُ
غررٌ يتيهُ بها الزمانُ ويطربُ
هو كالبنفسج نفحةً وتواضعاً
لكنهُ في العلمِ ليثٌ أغلبُ

* * *

يا شاعرًا ملأ الوجودَ روائعاً
هرعت اليكَ المكرماتُ ترحبُ
لكَ يا صديقيَ من بيانكَ منبعٌ
ثرٌّ ، وكونٌ بالابائةِ مخصبُ
أهدى الربيعُ إليكَ طيبَ زهورهِ
فقبلتهُ والطبعُ عندكَ اطيبُ
وملكتَ ناصيةَ القريضِ وأنتَ في
دنيا القريضِ مخلّدٌ ومحببُ
فانزلْ على سعةِ الصدورِ ورحبها
ودع التواضعَ إنّ صدركَ أرحبُ

عبد الله يوركي حلاق

حلب في ١٧ — ١٠ — ١٩٥٩

---

(١) اشارة الى الكاتب المهجري الكبير الاستاذ نظير زيتون والذي كان في حلب رفيقاً للشاعر فرحات وقد شهد معه الاحتفال .

الباب الثالث

مغامرة صيد في حوض اراغوايا

درب اراغوايا كدرب المجدِ   الجهد في تسهيله لا يجدي !

الفصل الاول

برازيليا

كنا في اواسط شهر تموز سنة ١٩٦٢ عندما وصل أخي كريم إلى (الافق الجميل) في زيارته السنوية لنا، وكان عازماً على قضاء شهر عندنا ثم السفر إلى برازيليا، عاصمة البرازيل الجديدة حيث تقيم ابنة أخينا (فيليب) أسعد فرحات، انيسه، وزوجها واولادها، وكنت أنا عازماً

على مرافقة كريم إلى برازيليا التي لم اكن أعرفها بعد فأرى المدينة الحديثة وازور ابنة أخي فيها ، وكنا قد كتبنا إلى انيسه نخبرها عن زيارتنا المقبلة . وفي تلك الاثناء عادت نظيره ، اخت انيسه ، من برازيليا واخبرتنا بالهاتف ان أنيسه وزوجها وابناءهما ينتظروننا هناك ، وانهم يستعدون لرحلة جماعية يقومون بها إلى نهر اراغوايا ، ولما كان كريم قد ذهب إلى اراغوايا في رحلة سابقة وحدثني بعد عودته منها عما هناك من طبيعة وحشية قاسية ، وعما في حوض اراغوايا من عجائب وفي السفر اليه من مشقات ، وعما في تلك المنطقة النائية من حيوان طائر وسابح وسارح ، وان هذه الرحلات تقوم بها جماعات من الاصدقاء فيغيبون في الرحلة شهراً أو أكثر ، وانها رحلات صيد أسماك وأطيار وحيوانات برية ، وانها في النهاية مغامرة ماتعة يتعرف فيها الانسان إلى دنيا جديدة من فيافي ولاية غوياز ، وانه إذا لم يكن من هواة الصيد فهو ولا بد من هواة الجديد ، فاستهواني بوصفه وجعلني اقرر مرافقة الحملة إلى اراغوايا ، فرحت استعد لهذه المغامرة واشتري ما يلزم لها من ثياب خاصة ، فاشتريت بنطلوناً من التي يلبسها الرعاة في أميركا ، وقميصين رياضيين (سبورت) وحذاء طويل الساق (جزمه) أدفع به عن ساقيَّ أشواك الغاب وانياب الافاعي ، وأعددت مسدسي وهو من عيار ٣٨ وكان محشواً ومهجوراً منذ أربع سنوات إذ كنت أطلقت رصاصاته في الواحد والثلاثين من شهر كانون الاول سنة ١٩٥٨ عند منتصف الليل احتفاء بالعام الجديد وبدات بالفشك الفارغ فشكاً محشواً ثم

سافرت بعدئذ إلى ألوطن وعدت منه والرصاصات ما تزال في المسدس، فاشتريت له رصاصات جديـدة، واعطاني ابني خالد فانوساً كهربائياً وزوج قفاز من جلد، وخالد من هواة الصيد ويعرف مـا يلزم لهذه ألرحلات، واشتريت قطعة من نسيج الشاش الشفاف عملت منها كوفية ترد عني الشمس والغبار والبعوض، وحملت في حقيبتي عقالاً كان قد جاءني مع كسوة عربيـة كاملة من صديقي الامير عبد الله الجابر الصباح، وزير المعارف في دولة الكويت، فجربت ملابسي الجديدة في ألبيت قبل السفر ونظرت في ألمرآة إلى نفسي وزهوت واختلت وتخطرت كأنني طفل في ثياب العيد!

ونزلت وكريماً قبل سفرنا إلى برازيليا، نزلنا إلى ألسوق فاشترينا بعض الهدايا لابنة أخينا وابنتها وزوجها واولادهما وكناتهما حتى لا نصل في زيارة كهذه وايادينا فارغة! ونسيت أن اذكر ان كريماً زلق على رصيف الشارع عندنا فكسر يده قريباً من ألكتف، ولكن العظم المكسور قد انجبر لنفسه كأنه عظم طفل! وفي صباح الرابع والعشرين من شهر آب أخذنا خالد بسيارته إلى محطة سيارات برازيليا، وقـد وجدنا هناك في انتظارنا صهرنا ازوالدو زوج ابنتي ليلى فودعنا وودعنا خالداً وقامت بنا السيارة الكبرى عند الساعة الثامنة تماماً، وراحت تنهب ألارض نهباً ومما يستحق ألتسجيل أني في ألسفر احب ألجلوس قريباً من نافذة السيارة ولكن كريماً طلب مني أن يجلس هو هناك إذ تكون يده المكسورة إلى جهتي والسليمة إلى جهة النافذة وحجته أنه

قد ينسى أن يده مكسورة فيتكئ عليها فيتألم ! وما زلت إلى هذه الساعة أفكر كيف تمكن أن ينسى هو أن يده مكسورة وأبقى أنا ذاكرًا ؟! أفلا يخاف أن أمسكه بها ، وهي في متناول يدي ، وأشده منها لأريه ما يوجب الرؤية في الطريق ، أو لأنبهه إلى أمر ما ؟! إن هذا الأمر أشكل عليّ فهمه وما زلت ، كما قلت ، افكر فيه إلى اليوم !.

وصلنا إلى برازيليا في الساعة الثانية والعشرين فلم نر في المحطة أحدًا في انتظارنا ، فأعطاني كريم رقم تلفون أنيسه قائلًا قل لها إنا هنا ، فسألت أحد الواقفين هناك عن تلفون قريب فقال اذهب إلى فوق فان في الصيدلية تلفونًا ، فصعدت على درج متحرك آلياً وأخبرت أنيسه أننا في المحطة منتظران ، وفي أقل من عشر دقائق كانت هي وزوجها وبعض أولادهما يرحبون بنا ، وبعد السلام والعناق خرجوا بنا بسيارتهم من المحطة وما لبثوا ان خرجوا من المدينة أيضاً ودخلوا حرجًا رحباً ، وقد فهمت بعد وصولنا إلى البيت أن في الحرج خارج المدينة بيوتًا أخرى يسكنها موظفو شركة البناء (باشيكو فرنندس دانتاس) وان زوج أنيسه يرأس أحد مكاتب هذه الشركة التي ، مع غيرها من الشركات الكبيرة ، تقوم ببناء برازيليا .

عندما أطلت سيارتنا على برازيليا دهشت لطريقة تنويرها الحديثة ولأنوارها القوية الساطعة ولقد فكرت منذ اللحظة الأولى في نظم قصيدةٍ أصف بها هذه الرحلة ، ثم تطورت الفكرة في رأسي من نظم قصيدة إلى نظم ديوان كامل أتوسع فيه في وصف مشاهد برازيليا

ووصف ما اشاهد في حملة الصيد، وفعلًا باشرتُ منذ اليوم التالي لوصولي نظم أرجوزة في وصف المدينة، وكان في فكري أن أنوّع أوزان القصائد الوصفية وقوافيها تسهيلًا لي وللقارئ، وبعد أن نظمت في وصف برازيليا وصفاً متقطعاً، فكرة من هنا وفكرة من هناك، ونظمتُ كذلك شيئاً في وصف الرحلة، عدلت عن فكرة النظم نهائياً وعزمت على تأليف كتابٍ نثريٍ أصف به الرحلة وما فيها من متعٍ ومشقات، أذ أن المقصود من تأليف الكتاب وصف حوادث ووقائع حقيقية لا تخيلات، والشعر، إذا خلا من الخيال كان جافًّا، وحتى لا يفوت القارئ الشيء القليل الذي نظمته، اسجله له هنا كما جاء وكما نظمته، وأعني أني اسجله دون ترتيب، وها هو:

برازيليا عجيبة دروبها | عجيبةٌ تسحر من يجوبها
اكواعها كأنها أهلّه | على دنىً مسحورةٍ مطلّه
وهي لدى محطة الحوافلِ | خطان عالٍ ينتهي بسافلِ
وثمّ خطٌ ثالثٌ بينهما | منبسطٌ بين حضيضٍ وسما
ترى على الخطوط سياراتِ | مسرعةً ذواهباً اواتي
فتارةً في نفقٍ مفتوح | وتارة ركضاً على السطوحِ
تجري على الارض وتحت الارضِ | وبعضها يركض فوق بعضِ
بينما ترى نفسك في سياره | إذ أنت في ما يشبه الطياره

* * *

تلقى بها القناطر المقلوبه   حاملةً اعمدةً منصوبه
تخطيط مجنونٍ من العباقرِ   او شاعرٍ موسوسٍ او ساحرِ
دخلتها كأنني في حُلُم   أعجز عن تصويره بالكَلِمِ
بيوتها تدير دون وازعِ   من خجلٍ ظهورها للشارعِ
أما الوجوه الحلوة السماتِ   فقد ادارتها إلى ساحاتِ
خضراء يكسو ارضها الفريشُ   لطفاً كما يكسو الجناحَ الريشُ
يدخلها من شاء من صوبينِ   بشرط أن يمشي على الرجلينِ
فليس فيها للدواليب ممرّ   ولا لشيءٍ آخرٍ فيه خطر
يجتازها المشاة غافلينا   ويلعب الاولاد . آمنينا
وتلتقي الجارة فيها الجاره   فتشكوان الخادم الثرثاره . . .
ويجلس العشاق في المساء   على الفريش الدائم الرواء
ما خططوه الأمس أمسى في اليدِ   فاليوم هم يخططون للغدِ
يبني لهم خيالهم علاليا   ينظمها شبابهم لآليا
ان الهوى يعطي خيال اليافعِ   حرارةً تذيب ثلج الواقعِ

ثُمّ :

أعدَّ الرفاق المطايا وهمّوا   وقالوا هلمَّ فقلتُ هلمّوا !
وكنت وكانت بقايا الظلام   بأول موج الضحى تستحمُّ
وليست مطايا الزمان الجديد   سوى مركباتِ صداها يُصمُّ
اضالعها خشبٌ والقلوب   حديدٌ ونفط العراقين دمُّ
وأرجلها عجلاتٌ تدور   فتترك وشماً عليها ينمُّ

وثمَّ عيونٌ وليست ترى | وثمَّ انوفٌ وليست تشمّ
وما في الذكور هناك أبٌ | ولا في الاناث هنالك أمّ
نتاج العقول الصحاح التي | ينار بها الغسق المدلهمّ
لها زفراتٍ ذوات الحياة | ولكنها أبدًا لا ترمّ
وتسلس حيناً وتحرن حيناً | فتُخمدَ طورًا وطورًا تُضَرَّم

ثمّ

وراحت القافلةُ الجباره | على ارغوايا تشنّ الغاره
عدّتها البندق والشصوصُ | لكلِّ ما يطير او يغوصُ
وليس للراكض منها منجى | وليس للزاحف أمن يُرجى

ثمّ

درب ارغوايا كدرب المجدِ | ألجهد في تسهيله لا يجدي
تلك الاخاديد وهذي الحفر | للشرّ في اعماقها مستترُ
يرافق الرعديدُ فيها وجلَه | حتى كأنه ملاقٍ أجلَه
أمّا الذي علّمه الزمانُ | أن المنى يقتلها الأمانُ
وأن من يجتاز في السير الحفَرْ | يسعده في آخر الشوط الظفَرْ

فانه يمشي ولا يبالي بما سيلقاه من الاهوال
يقتحم الاخطار باطمئنانٍ ويركب الهول الى الاماني
فاللذة الحقة في المغامره والعيش لا يخلو من المغامره ا

ثم هذه الفكرة التي لا أدري من أين أتت ولا كيف كان يمكن ادخالها في الموضوع :

سبحان عقلي ، إن عقلي ربي وهو لي المرشد والمربّي
ما دام لي عقلي ولي ضميري فالدين لا يدخل في تقديري

هذا ما نظمته وأنا لا أزال في برازيليا .

الفصل الثاني

نحن، أخي كريم وأنا، في برازيليا منذ الرابع والعشرين من شهر آب الماضي، أتينا زائرين انيسه - الاسم المعروفة به سيسينيا - ابنة أخينا أسعد وزوجة الفارو طورس، وهما زوجان سعيدان لهما سبعة أولاد ذكور وابنة واحدة هي آخر نتاج زواجهما، وزوج (سيسينيا) شيخ عمره فوق الستين ولكن فيه همة الشباب، فمنذ ان وصلنا إلى بيته أخذ يعد العدة لحملة صيد في نهر اراغوايا، وهي على ما قيل لي سفرة شاقة، إذ أن المسافة بين برازيليا واراغوايا تبلغ الالف من الكيلومترات، والطريق اليها مزفت في قسم صغير منه. أما القسم الكبير فهو من التراب المرصوص. وهناك قسم أخير لا يجوز اطلاق اسم طريق عليه إلا من قبيل المجاز، أما الذين يؤلفون الحملة أو القافلة فهم صهرنا الفارو طورس وسيسينيا امرأته وابناؤهما كارلوس (كارلينيو) وسيزر وسيرو واخي كريم وأنا، ثم هناك اثنان أحدهما جوغوسلافي والآخر برازيلي وقد أعدوا للرحلة سيارة شحن كبيرة هي ملك البرازيلي، وهو قائدها، وسيارة ركاب ماركة فورد هي ملك طورس، وراحوا يستعدون لها ويجهزون ما يلزم من مؤونة، ومن كمية المؤونة التي جهزوها فهمنا ان غيابنا سيطول عشرين يوماً أو أكثر، فهناك كمية

كبيرة من الأرز واللوبياء والبطاطا والمكرون، والزيت والدهن والملح والسكر والبرتقال والليمون الحامض والعرق البرازيلي المستخرج من قصب السكر والجعة والمياه المعدنية واحضروا قارباً ليأخذوه معهم بالسيارة الكبيرة ويستعملوه عند بلوغهم النهر، وسنقوم مبتدئين بالرحلة في صباح الاثنين الواقع في العاشر من شهر ايلول، وستكون أولى المدن التي نصل اليها مدينة آنابولس، في ولاية غوياز، كما ان النهر الذي نقصده يقع في هذه الولاية ويفصل بينها وبين ولاية ماطو غروسو، نحن اليوم في الثامن من ايلول ولا يفصلنا عن يوم السفر سوى يوم واحد.

قضينا عصر امس الاحد منهمكين في تحميل سيارة الشحن، فقد وضعنا فيها عدا المؤونة والقارب اسرّتنا، وهي من نوع اسرّة الميدان، ووضعنا فرشنا بحيث يسهل انزالها واستعمالها في الطريق. ثم حزمة من القصب الخاص المعد بخصوصه لصيد الأسماك، ثم البنادق لصيد الطير والحيوانات البرية وما يتبع البنادق من رصاص وفشك، هذا وقد قيل لنا أن الصيد في المنطقة التي نقصدها كثير جداً، وان من السمك ما يزن فوق المئة كيلو غرام، وان الحيوان البري موجود بكثرة، ثم هناك نوع من السباع يُعرف بالبرازيل باسم (اونصه) وهو نوع من النمور الخطرة وهناك كثير من التماسيح وهي لا تقل خطراً عن النمور، كما وان هناك الافاعي والحيات غير السامة، وهذه لا تقل خطراً عن تلك، فهي كبيرة جداً وهي لا تلدغ ولكنها تفترس، انها تفاجئ الحيوان في حجم الخنزير أو العجل أو الأيل فتمسك بانفه ثم تلتف عليه بقوتها

الهائلة فتطحن عظامه وتحوله إلى عجينة تلتهمها بسهولة ، واسم هـذا النوع الهائل من الحيات (سوكوري)(١) وهذا الاسم من لغة الهنود أهل البلاد الاصليين ، هذا فضلاً عن أنواع الطير التي لا تحصى لكثرتها ، ولا سيما البط الوحشي ، وانا لم اكن صياداً بالمعنى المعروف قط ، وإنما كنت في شبابي اصيد بعض العصافير ، إلا اني صرت ، من سنوات أتورع حتى عن هذا النوع البسيط من الصيد ، ولهذا لم يكن معي من السلاح إلا مسدس وخنجر ، للدفاع فقط ، أو لقتل الضواري الخطرة إذا وجدت منها شيئاً ، أما رفاقي فقد كان معهم المسدسات والبنادق البعيدة المرمى ، ولقد قرأت مؤخراً مقالاً بقلم الاستاذ المفكر ميخائيل نعيمه ينعت فيه الصياد الذي يقتل العصفور بالهمجي ، فحمدت الله على انـه أخرجني من هذه الطبقة ! ، ولكني كنت اود أن أعرف رأي الاستاذ في من يصطاد الطيور الكبيرة والوحوش البرية ، وانا أعلم ان الاستاذ نعيمه روحاني يحرم قتل الحيوان ، أو هو من فئـة الروحانيين وهذه تحرم قتل الحيوان ، كنت اود أن اوجه اليه مثل هذا السؤال : قتـل الحيوان حرام ولكن ما نريد أن يفعل الناس بالافاعي والضواري التي إذا لم نقتلها قتلتنا ؟! وكيف نرضى عن قتـل الجراثيم بالملايين ، ومـا الجراثيم إلا حيوانات صغيرة ، لا ترى بالعين ولكنها تفتك فتك الضواري ؟!

---

(١) يفهم مما جاء في « معجم الحيوان » للفريق الدكتور امين معلوف أن الافاعي كلها سام ، وعليه فان تسميتي « للسوكوري » التي لا سم فيها بالافعى خطأ يجب تصحيحه • وعن معجم الحيوان ان اسمها العربي أصَلة او تنين بري •

والذي أعلمه ان الاحياء عموماً يعيش بعضها على بعض، ولا يسلم إلا الاقوى والاذكى، فالعصفور الذي يستحرم الاستاذ نعيمه قتله، يقتل هو بدوره الديدان والهوام، وهكذا كل حيّ يستفيد من حيّ آخر أضعف وأقل حيلةً منه، ولولا هذا القانون الطبيعي لما بقي الانسان سائداً على الارض إلى اليوم.

عند الساعة الثالثة من صباح اليوم (الاثنين ١٠ ايلول) راحت سيارتنا تجري بنا فوق الطريق المزفت ووجهتها مدينة آنابولس، وكانت سيارة الشحن قد سبقتنا منذ اوائل الليل، فوصلنا إلى آنابولس عند الساعة السادسة صباحاً ولم نستطع القيام منها إلا بُعيد الساعة الثامنة، ومن آنابولس ودعنا الطريق المزفت ورحنا نثير الغبار وراءنا ونتلقى الغبار الذي تثيره السيارات التي امامنا، وفي آنابولس لي اصدقاء كرام لم أتمكن من مقابلتهم على اني زرتهم في الاسبوع الماضي ونعمت بضيافتهم ثلاثة أيام، واصدقائي هؤلاء هم الاخوان السادة يوسف صموئيل سمعان من صافيتا، والاستاذ جاد سليمان الخوري من عكا والصديق نظير الحاج من طرابلس، والاخ بربهان الحلو وصهره حليم الحلو من مشتى بيت الحلو والخوري يوسف الحمصي من طرابلس، ورشيد فلوح من حوران والصديقان سليم وكاسر كايد، ولا بد من ذكر إحدى السهرات الصاخبة بفضل النزعات السياسية المختلفة، فقد كنا في منزل الاستاذ جاد سليمان الخوري، وفي السهرة زارنا فريق من أبناء الوطن العربي بينهم اثنان من القوميين السوريين. وكان أحدهما نزقاً لا يحترم

لسواه رأياً فسمع مني ما لا يرضيه طبعاً فضرب المائدة امامه بجمع يده وقام مغضباً دون أن يودع أحداً حتى ولا صاحب البيت ، وبقي الثاني يماحك - على طريقتهم - إلى آخر السهرة !

تركنا آنابولس عند الساعة الثامنة ، وتركنا جيرالدو (صاحب سيارة الشحن وسائقها) وراءنا يستعد للحاق بنا ، قطعنا ثمانين كيلومتراً الى (جاراغوا) وجلسنا في ظل بعض الأشجار ننتظر وصول جيرالدو ، وقد انتظرنا ساعتين ولم يأت جيرالدو ولم تأت سيارة جيرالدو ، وفي سيارة جيرالدو صناديق المؤونة واسرّة الميدان ! فلا أكل ولا نوم دون جيرالدو ، ولكن جيرالدو لم يصل إلاّ بعد أن سئمنا الانتظار ، وكنا قدرنا أن لتأخره سبباً وأن فيه سرّاً ، وأخيراً وصل جيرالدو والابتسامة على شفتيه - وهذه فضيلة يجب أن نسجلها له - وقبل أن نسأله عن سبب تأخره أخبرنا ان قلب السيارة معطوب وأنه لا بد من تداركه في أول مستشفى نصل اليه وإلا ماتت السيارة ! وتعذر علينا التقدم أو التأخر ، وكنا عندما رأينا جيرالدو يصل بسيارته حمدناه ! فلما سمعنا حديثه حوقلنا ! وعلى كلٍّ لا بدَّ من السير إلى (سيرس) وهي أول مدينة وفيها أول « مستشفى » !

في هذه المدينة (سيرس) المغطاة بالغبار ، ذهب جيرالدو بمريضته تواً إلى المستشفى وعرضها على طبيب اخصائي ، وهناك بقينا خمس ساعات نصلي لأجل صحة السيارة وننذر النذور من شموعٍ وبخوراً ومشيٍ على الركب وضرب على الصدور..

كانت السيارة معطوبة فعلاً وكانت تحت خطر الموت ولكن الطبيب الذي تداركها كان بارعاً وكان لصلاتنا ونذورنا فعل طيب ، فعندما انتهى الطبيب من عمله وأعلن ابعاد الخطر عن السيارة كانت الساعة قد بلغت الثانية والعشرين ، ولما كان القمر في سمائه يقترب من الكمال ، أغرانا نوره الساطع بالسير ليلاً فسرنا خمسين كيلو متراً وصلنا في نهايتها إلى مكان جميل حيث تظهر إلى جانب الطريق ساحة رحبة حولها بعض البيوت وفي وسطها أربع أو خمس دوحات ، فقررنا المبيت في تلك الساحة ، وهذا المكان والنهر القريب منه يحملان اسم سان باتريسيو ، وهؤلاء الرفاق الذين إذا استثنينا منهم (سيسينيا) — وهي كما قلت ابنة أخي — ليسوا بدواً ولكن البداوة في طبيعتهم ، فما أن قررنا المبيت في هذه الساحة حتى رأيتهم ينصرفون كالعفاريت كل إلى عمل ، فهذا يجمع الحطب وهذا ينصب الموقد وهذا يضرم النار ، وسيسينيا وكنتها ، التي لم اذكرها سابقاً ، انصرفتا إلى اعداد القهوة ، ومد الفرش (على الارض العراء) تحت الدوح ، ثم نودي على القهوة فتناول كل فنجانه ومضى إلى فراشه ، إلا أنا فقد فضلت النوم على مقعد السيارة .

لقد أمطرتنا الشمس في أثناء النهار شواظاً محرقاً احاله لنا ضوء القمر المنعش برداً وسلاماً ، والطريق ، وان لم يكن مزفتاً ، إلا انه حسن ، ولولا غيوم الغبار التي تتصاعد منه لكان يستحق شهادة جيد جداً ، ولقد كشف لنا ضوء القمر بعض المزارع وكثيراً من البيوت متفرقة

على جانبي الطريق، ومررنا بقرية اسمها (نورتيالاندايا) أي (أرض الشمال)
وقد أخبرني الرفاق أن هذه المنطقة كانت إلى سنوات خلت حرجا
بكرًا واحدًا فقطعوا أشجاره وأحرقوها وقسموا أرضه مزارع ومراعي،
وفي الصباح رأينا فعلًا بعضاً من المزارع وكثيرًا من البقر الهندي الكبير
الحجم، الجميل المنظر، وأجمل ما فيه ثيرانه، فانك ترى الثور متبخترًا
بين بقراته فتحسبه أحد مهارج الهند القديمة أو أحد ملوك العرب في
عصرنا هذا وهو يمشي متبخترًا في حريمه بين نسائه الأربع وجواريه
الاربعمائة، متسلحاً بالآية الكريمة والسخية... (وما ملكت ايمانكم!)
نهضنا صباحًا قبل الساعة السادسة فحمل كل منا منشفته وصابونته وتوجه
إلى النهر يزيل عن وجهه أثر النوم، وأوقدت النار ونودي على قهوة
الصباح فتناولناها وقمنا نعيد سيرة الأمس، فمررنا ببعض القرى، ولاحت
لنا في الأفق قبة شاهقة فصاح الرفاق: وصلنا إلى (اورواسو) واورواسو
هذه مدينة حسنة، مررنا في أحد أطرافها فاذا هناك أبنية جديدة وفنادق
كبيرة وحانات مليئة بالروّاد ومعظمهم من المارة، وفي هذه المدينة
مركز للتفتيش عن البضائع المهربة، وها أنا جالس في مقعدي في السيارة
اكتب واصفاً ما أرى والشرطيان يفتشان سيارتنا الكبيرة تفتيشاً رمزياً،
إذ عرفا بأننا لسنا تجارًا ولسنا من المهربين وان وجهتنا نهر اراغوايا
ومقصدنا الصيد وشهادتنا هذا القارب الملقى في السيارة، وهذه القصبات
البارزة من ورائها!

ان سيارة جيرالدو لم تشف تماماً من مرضها، فقد وقفت مرتين في الساعتين اللتين مشيناهما، وقفنا في اورواسو نحواً من ساعة، ولحظنا ونحن نفارقها، عن يميننا، تمثالاً قائماً في إحدى الساحات المحاذية للطريق، فسألت: لمن التمثال؟ فقيل لي انه رمز لتكريم المهندسين والعمال الذين شقوا طريق برازيليا – بيلين، وبالمناسبة أقول ان طريق برازيليا – بيلين، الذي شُقّ في عهد حكومة جوسيلينو كوبتشاك دي اوليفيرا، ان هو إلا تتمة للطريق الذي نسير عليه منذ أمس، وفضل الرئيس جوسيلينو كان في شجاعته في اقتحام غابات الامازون التي تطير الطيارة فوقها ست ساعات ويسميها الطيارون الجحيم الخضراء. وهذا الطريق يمتد من الجنوب إلى الشمال في خط يكاد يكون مستقيماً.

وقفنا للغداء عند نهر صغير ماؤه غير صاف، وسبب عدم صفائه هو انهم يستخرجون منه الذهب بالتصويل، وهو على صغره فيه كثير من السمك الصغير الذي كان يلتهم بشراهة فتات الخبز الذي نلقي به اليه. ولما كان الحر ساعتئذ شديداً فقد خلعنا ثيابنا إلا سراويل السباحة ونزلنا إلى الماء نبترد.

بقينا هناك ساعتين. الاولى منهما انتظاراً للطعام الذي كان يطهى امامنا والاخرى للاستراحة، وقد اكتفيت أنا من الغداء بقطعة من اللحم رششت عليها قليلاً من الملح وشككتها بسفود ثم شويتها على الجمر.

بعد الغداء والاستراحة قمنا والشمس تمطر الارض ومن عليها بشواظ من نارها، فمررنا ببلدة جميلة اسمها نوفا غاوريا اي (المجد الجديد)

ثم ببلدة اخرى أسمها امارو روزا واخرى اسمها امارو ليتي ، ومعنى الروزا الورد ومعنى ليتي الابن الحليب ولا أعرف لكلمة أمارو معنى ، وهاتان البلدتان الاخيرتان قريبة احداهما من الاخرى ، ثم مررنا ببلدة اسمها استريلا دو نورتي اي (نجمة الشمال) ثم تابعنا السير من نجمة الشمال هذه إلى مدينة كبيرة اسمها بورونغاتو والاسم هندي لا افهم له معنى.

وقفنا في الطريق الذي يمرّ في أحد أطراف بورونغاتو واطلنا الوقوف منتظرين سيارة الشحن التي تركناها وراءنا. وبما ان موعد وصولها قد مضى فقد راحت الافكار السيئة تزدحم في رؤوسنا ، وقد لجأنا ، لاطفاء حرارة الشمس وتلطيف حرارة الخوف على جيرالدو وسيارته، إلى إحدى الحانات وطفقنا نشرب المبردات ، وراحت عيون الرفاق تتطلع إلى الوراء متوقعة وصول السيارة المتأخرة وصاحبها.

لم يصل جيرالدو بسيارته إلا عند الساعة التاسعة عشر وبعد ترحيب وجدال عنيفين تركنا البلدة وسرنا في ضوء القمر نحواً من أربع ساعات كانت أمتع ساعات السفر ، فالقمر يكاد يكون بدراً والهواء المنعش يقبل وجناتنا فينسينا قبلات الشمس المحرقة، وبعد مسير أربع ساعات، اي عند الساعة الثالثة والعشرين وصلنا إلى ألفورادا (الفجر) وبتنا في حرج تمرّ به ساقية. وقد بتّ أنا في السيارة كما فعلتُ في الليلة السابقة ، وبعد أن نمتُ ساعتين افقتُ من نومي ونظرت إلى رفاقي المنتشرين على الارض كالغنم ، أخذتُ افكر في الضواري التي تجوب هذه البقاع ، ووقف فكري عند « السوكوري » وهي الحية الهائلة التي يبلغ طولها

عشراً من الأمتار، وقد يبلغ العشرين، كما يقولون واخصب خيالي فرأيتها من وراء زجاج السيارة مقبلة عليَّ فأنزلت الزجاج حتى يتسع لمرور رأسها وجلست انتظر وصولها ويدي على مفتاح الزجاج، وهو الذي يدار باليد لرفع الزجاج أو لانزاله، وجاءت السكوري وهي آمنةٌ على عنقها من غدر الانسان... وما ان رأيتها تصل وترفع رأسها وتدخله في الفتحة التي تركتها لها عمداً حتى أدرتُ المفتاح بيديَّ الاثنتين وبأقصى سرعة، وأحست الحية بشيء يضغط عنقها من الحلق والقفا فحاولت سحب رأسها من هذا الفخ الانساني الشيطاني، والتراجع، ولكن كيف؟! فأخذت تضرب الارض بسائر جسمها فتصيب الاغصان اليابسة فتكسرها وتحدث ضجة هائلة افاق عليها الرفاق مذعورين، ولما وقعت أبصارهم على هذا المنظر الرائع ازدادوا ذعراً ثم رأوني ممسكاً بكلتا يدي بالمفتاح واني آمن شرها، وهم مثلي آمنون، فانهالوا عليها بالعصي والسواطير، وبعد عراك طويل أسلمت الحيّة الروح... وهكذا قتلت بخصب خيالي وسعة حيلتي شر ضواري الغاب البرازيلي!

أفقنا من نومنا عند الساعة السادسة صباحاً فغسلنا وجوهنا بماء الساقية وشربنا قهوتنا وحملنا أثقالنا في سيارة جيرالدو وعند السابعة تماماً تركنا ألفورادا قاصدين اراغوايا في المرحلة الأخيرة، على ان سيارة صاحبنا جيرالدو لم تسر أكثر من كيلومترين حتى وقفت وأوقفتنا معها، فرحت أنا - كعادتي - أكتب مذكراتي قاعداً في مقعد سيارتي وراح الرفاق يعالجون سيارة جيرالدو!

من ألفوراذا سرنا في طريق برازيليا بيلين مئة كيلو متر ثم ودعنا هذا الطريق العريض المستقيم عاطفين يساراً إلى طريق ضيق كثير التعاريج، هو الطريق المؤدي إلى حوض اراغوايا.

نحن الآن في أقصى الشمال « الغوايانو » سيارتنا تسير بين أشجار عجفاء محروقة يابسة لا ترى فيها عوداً مستقيماً، حتى لكأنها جماعة من العجائز اللواتي لا يمشين إلا مستعينات بعكازات، وان هذه الجماعة رأت منظراً هائلاً وقفت عنده مسحورة وانها لا تزال واقفة ترتجف ذعراً.

وصلنا عند الظهر إلى ساقية (غاميليرا) فما ان وقعت أبصارنا على مائها الصافي الرقراق حتى نزلنا عندها للغداء، وما ان نزلنا حتى نزل علينا جيش من البعوض الثقيل الدم! وراح يهاجمنا بجرأة كنا نهاجم طعامنا بمثلها، فرحنا نتقيه بما يصل إلى أيدينا من أغصان مورقة ومناشف، ولكنه كان وقحاً لا يكاد يهرب حتى يعود وهو أكثر وقاحة حتى لكأنه كان ذا ظمأ إلى دمائنا وحقد علينا لاننا لم نستقبله الاستقبال اللائق به!

بعد الغداء عبرنا جسراً من الخشب منصوباً فوق الساقية وسرنا ووجهتنا نهر اراغوايا الذي سيضيفنا الليلة وبضع ليال غيرها.

بعد ساقية غاميليرا بقليل عبرنا نهر البيغاء الذي لا جسر عليه، ثم نهراً ثانياً مثله، عبرناهما بالسيارة غائصة دواليبها في المياه، في تمام الساعة الثالثة إلا ربعاً وصلنا إلى قرية صغيرة اسمها فورموزو، اجتزناها إلى نهر كبير يحمل اسمها، اي ريو فورموزو، قلت انه نهر كبير وهو كذلك

ولكننا اليوم في ابان فصل الصيف فماء النهر شحيح يعبره المحتاجون إلى عبوره دون جسر، واجتزنا من قرية فورموزو إلى نهرها مرجا رحباً سهلاً يكسو أرضه عشب أخضر جديد. ويصلح أن يكون لاستقامته واستواء أرضه مطاراً تهبط فيه وتقوم منه الطيارات الكبيرة، وقد اجتزناه في أكثر من نصف ساعة بالسيارة.

بعد مرورنا بقرية فورموزو مررنا بعدد من المزارع الكبيرة القريبة بعضها من بعض، فكنت افكر واسأل نفسي: كيف يمكن أن تعيش السباع والسوكوري في هذه المنطقة الآهلة بالناس وبالحيوانات الاهلية؟ وقد صح ظني بعد ان وصلنا إلى شاطئ اراغوايا واخبرنا بعض السكان ان الحيوانات البرية أصبحت في المنطقة قليلة جداً وأما الضواري فهي معدومة قطعاً، وان هنا بعض الصيد من الطيور والاسماك. ولحظت ولحظ الرفاق انهم ضلوا الطريق فوصلوا إلى غير المكان المقصود. وكانت الخيبة أليمة ثقيلة عليّ لاني لم ارافق الحملة إلا على أمل أن أرى الوحوش في مواطنها والافاعي في مساربها والتماسيح في مسارحها، ورأيت ان الرفاق يشاطرونني ألم الخيبة، ولكن ما العمل وقد وصلنا الآن إلى شاطئ النهر واصبح الانتقال وانتقاء مكان آخر أكثر مناسبة في حكم المستحيل بعد أن سرنا تحت الشمس المحرقة ثلاثة أيام، وهكذا رضينا بما قسم لنا، ولما كان وصولنا بعد الساعة الثامنة عشر وكان الليل قد باشر مد طيلسانه الاسود على الارض أخذ الرفاق المتمرسون بمثل هذه الرحلات يرتجلون مكان النوم ارتجالاً فنصبوا على الفور سرادقاً

كبيرًا اتسع لأكثر الأسرة وخيمة اتسعت للباقية منها، وأخرى للمطبخ، ثم أخذوا ينزلون حمولة السيارة الكبيرة، ولقد نمتُ تلك الليلة على سرير من أسرة الميدان نصبته لي سيسينيا، ولما كانت سيسينيا وزوجها قائدي الحملة وكان أولادهما وبقية الرفاق جنودًا لها وزّعا علينا المراكز، وكان معنا في الحملة رفيق نشيط متفائل أبدًا اسمه كارلو (بمط الواو) وكان هذا الرفيق متمرساً برحلات الصيد وهو في الوقت نفسه مهندس ميكانيكي ولولاه لما وصلت سيارة جيرالدو إلى شط النهر، وكان هذا الرجل يحمل معه بطارية كهربائية وقنديلين أناطهما بعمودين من أعمدة الخيمة الكبيرة ووصلهما بواسطة سلك من المعدن بالبطارية فأنارا المكان، وقد ساعدنا ضوء القمر على الاغتسال في النهر قبل النوم، واغرب ما حدث لي هو اني وجدت ماء النهر فاترًا فلما أظهرت عجبي للرفاق ضحكوا مني قائلين ان الشمس كانت طول النهار تغلي هذا الماء ولم تغب عنه إلا من وقت قريب فأي عجب إذا فتر ؟!

في صباح اليوم التالي، وهو الخميس الواقع في الثالث عشر من شهر ايلول نهضنا من النوم باكرًا واخذ الرفاق يصلحون منزلنا المرتجل ويعدونه لقبولنا اسبوعين أو عشرة أيام على الاقل، وكان هذا المكان في أعلى الجرف وعلى مقربة من ممر الناس والبهائم إلى النهر، فثبتوا السرادق بالحبال شدًا إلى الاشجار القريبة المجاورة، ونظفوا الارض من بقايا عروق الشجر والاوراق اليابسة والحطب المبعثر هنا وهناك، ووضعوا صناديق المؤونة واكياسها في مأمن من الخنازير الاهلية التي

رأيناها تتمشى في الجوار، ورحت أنا أتعرف على الطبيعة حولي فرأيت أن النهر في جهتنا يؤلف ما يشبه هلالاً مديراً ظهره الينا ووجهه إلى الجهة المقابلة لنا وان الماء في ناحيتنا غزير صاف وكأنه راكد وأما في الناحية المقابلة لنا فان للنهر شاطئاً ورملياً جميلا وان هذا الشاطئ الرملي الجميل لا يبعد عنا أكثر من مائتي متر وانه شاطئ (جزيرة الموز) «ايليا دو باناناال» أكبر جزيرة نهرية في الدنيا، طولها ٤٨٠ كيلومتراً وعرضها ٧٢، وهكذا فهي أكبر من الجمهورية اللبنانية باكثر من ثلاث مرات، ونهر اراغوايا هذا ينبع في ولاية ماطو غروسو، ثم يجري شمالاً في اتجاه ولاية باراه، وهو ينقسم في بعض أجزائه إلى فرعين كأنهما ذراعان وهاتان الذراعان تضمان هذه الجزيرة الهائلة الحجم، وطول مجرى اراغوايا يزيد على الفين وستمائة كيلومتر، وهو يلتقي نهر توكانتين ويجريان نهراً واحداً باسم توكانتين الذي يمر فرع منه في مدينة بيلين، حاضرة ولاية باراه، وينحدر منها إلى المحيط، وفرع آخر يذهب ليصب في الامازون، هذا والذراع التي نزلنا عندها هي الذراع الصغرى واما الذراع الاخرى فانها الاغزر والاسرع جرياً ويقع أحد شاطئيها في ولاية ماطو غروسو، وهكذا تكون جزيرة الموز تابعة جيوغرافياً لولاية غوياز.

جلست على أحد صخور الجرف أتأمل الماء امامي والشاطئ الرملي المقابل لي ووراءه جدار من الاشجار النضة الخضراء الدكناء المتراصة ووراءها عالم كبير من الهنود والحيوانات البرية والسباع والافاعي

وكلها من سكان الجزيرة التي لا يفصلني عنها ألا هذا الماء المنبسط امامي والذي لا بد لي من اجتيازه اليوم أو غدًا والوصول إلى جزيرة باناتال.

الحر شديد للغاية وهو تحت السرادق في الظل مثله تحت الشمس لان الهواء خارج الخيمة يلطف من حرارة الجو، وبين حين وآخر يهب علينا نسيم نجده بالنسبة للحر العام منعشاً، ولقد جلبنا معنا كثيرًا من البورتقال والليمون الحامض فأنا أشرب الماء ممزوجًا بعصير البورتقال وأنا أشربه ممزوجًا بعصير الليمون الحامض، وفي الحالين أتمنى لو ان سيله لا ينقطع لاني اشعر ان حلقي يلتهب.

رمى أحد الرفاق طائرًا كبيرًا كان ينعم ببرودة الماء وهو يفتش فيه عن رزقه فأصماه، ولما جاء به إلى حيث كنت جالساً وجدته شديد الشبه بالاوز الاهلي ولكن قيل لي انه ليس اوزة وانه لا يصلح للطعام وعليه فقد اتخذوا من لحمه طعماً للسمك!

كل شيء في طبيعة هذه المنطقة قاس كشمسها، كنت جالساً في سريري تحت الخيمة وكانت الساعة بين الثالثة عصرًا والرابعة. وإذ بي أسمع هديرًا كهدير البحر، وسمعت على الاثر صوت ابنة أخي وهي تصيح بي منذرة: العاصفة يا عماه، العاصفة! فما ان التفت لارى العاصفة حتى رأيت الشجر حولي يترنح والسرادق فوقي يرقص والامطار تنهمر مفاجئة بصورة وحشية لا تدع مجالاً للتفكير، ولم يكن في الخيمة ساعتئذ إلا أنا وكريم أخي وابنة أخي وكنتها، إذ كان الرفاق الباقون

قد ذهبوا إلى الصيد، ورقص السرادق وانهار أحد طرفيه فوثبنا نعالج الطرف المنهار ونحاول اثباته فانهار الطرف الآخر، ووثبت أنيسة كأنها لبوءة مشبل تدافع عن أكياس المؤونة وصناديقها كما تدافع اللبوءة عن أشبالها، فاقتحمت الهواء والماء وانتزعت الفرش والاسرة من شدقيها، وراحت ترمي بها بعضها فوق بعض تحت القسم الباقي من الخيمة ثابتاً يصارع الطبيعة الغضبى، وانهار القسم الاكبر من الخيمة فالجأنا كلنا وتكومنا، نحن والاكياس والصناديق تحت القسم «البطل» الذي ظل واقفاً في وجه العاصفة يتحداها ويدافع عنا وعن مؤونتنا، ولقد نجونا بفضله ونجت أكياس المؤونة ولا سيما كيسي الارز والسكر وهما الصنفان اللذان لا يستطيعان مقاومة الماء، وكما بدأت العاصفة فجأة انتهت فجأة، وبينا نحن نحاول اصلاح ما أفسدته ونعيد الاشياء إلى امكنتها قدم أحد الرفاق الاشداء فطفقنا - هو ونحن نساعده - نرمم بناء السرادق ونقوّم الاعمدة الهاوية ونعيد شدَّ الحبال إلى الاشجار، وبعد جهد مضن عادت الامور إلى ما كانت عليه، وكان الفضل في سلامة الفرش والمؤونة إلى أنيسة وكنتها ماربينا، وسطعت الشمس كما كانت وهي أشد حرارة عما كانت عليه قبلًا، فنشرنا الاسرة والفرش المبللة تحت سرادقها اللاهب وفي أقل من ساعة لم يبق للبَلَل من اثر ومن العاصفة الحمقاء الغادرة إلا ذكرها المضحك المبكي!

شعرت في أول السهرة بألم شديد في عظم ساقي، فعزوته إلى وقوفي في الماء أكثر من ساعة في محاولة صيد لم اصد بها إلا هذا الالم، وقد

داويته بأن دلكت ساقيَّ بالكحول فزال فوراً، ولقد نمت باكراً وأفقت في الليل مرتين، كانت إحداهما عندما رجع الرفاق يحملون سمكة كبيرة من نوع لذيذ جداً اسمه سوروبي، واخرى عندما عاد جيرالدو من رحلة انسانية لم يغب عنا فيها أكثر من ساعتين، وذلك انّا علمنا من بعض الجوار ان رجلًا لدغته افعى وانه يصارع الموت فتبرعنا فوراً بالمصل المضاد لسموم الافاعي، وكنا نحمل منه في صيدليتنا الوقائية، فتطوع جيرالدو باخذ المصل إلى حيث كان «السايم» الملدوغ وبحقنه به.

في صباح الرابع عشر من ايلول نهضت من فراشي باكراً وكنت اشعر بنشاط، وقبل أن اغسل وجهي واشرب قهوتي حملت قصبتي ونزلت إلى النهر والقيت شصي في الماء طامعاً باصطياد (سوروبي) فلم اصطد شيئاً وجاءني أحد الرفاق بمفاجأة، قال لي انه أطلق في الليلة الماضية رصاصة على أحد التماسيح وانه متأكد من اصابته ولكنه غير متأكد من قتله فحسبته يمزح معي لأني لم اكن مصدقاً ان في هذه الناحية من النهر تماسيح، فركب الرفيق زورقاً وانا انظر اليه ولم يبتعد عني أكثر من مئة متر حتى عاد يجر وراءه ضحيته البشعة الهائلة، وما ان وصل إلى حيث كنت حتى قفز من الزورق وسحب التمساح من ذنبه والقاه امامي على الارض وكان هذا الحيوان القتيل يبلغ المترين طولاً، فعزمت على نفسي أن لا انزل إلى الشط إلا ومسدسي معي، إذ قد يخطر لاحد التماسيح أن يداعبني بانيابه فاداعبه برصاصي...

حدثنا في سهرة امس أحد أبناء هذه المنطقة ان الارض التي تقع بين هذا الفرع من نهر اراغوايا وبين نهر فورموزو، أي آخر نهر عبرناه إلى اراغوايا، والمسافة بين النهرين تزيد على الخمسة عشر كيلومتراً، تتحول في فصل الأمطار، في أماكن كثيرة إلى نهر واحد، وان المنطقة كلها تتحول إلى بحيرات ومستنقعات، إذ يفيض النهران ويتدفقان على ما حولهما، فتذكرت وانا أسمع كلامه المرج الكبير الذي ذكرته سابقاً وقلت انه يصلح أن يكون مطاراً تذكرت ان هذا المرج لا بد وان يصبح في فصل الامطار قاعاً للنهر المتجمع من النهرين أو لاحدى البحيرات لان ترابه ونباته يدلان على انه حديث العهد بالشمس المحرقة.

عند الساعة العاشرة أدخلت رجلي في حذائي الطويل الساق (الجزمة) وتسلحت بالمسدس والخنجر وارتجلت عصاً من حوالي الخيمة واخذت امشي قاصداً اكتشاف الارض التي تحيط بنا، فمشيت أكثر من ساعة لم أر في خلالها حيواناً واحداً، رافقت أولاً مجرى النهر من فوق الجرف الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار، حتى وصلت إلى سياج من الاسلاك الشائكة، ففهمت ان هذا السياج هو حد مزرعة السنيور سلومون دي كاسترو التي نزلنا في أرضها، وعطفت إلى اليمين مرافقاً السياج حتى دنوت من بيت المزرعة فانحرفت عنه وتوغلت في الحرج، وهو غير كثيف، معظمه مؤلف من شجيرات والاشجار الكبيرة التي فيه موزعة هنا وهناك، ودرت حول الخيمة، على بعد منها حتى وصلت إلى جرف النهر من الناحية المعاكسة الناحية التي ابتدأت

منها، وكنت وانا في طريقي أرى الرمل يكسو أرض المنخفضات مما يثبت قول الرجل ان الارض تتحول إلى نهر واحد أو إلى بحيرات طيلة اشهر الامطار، وقفت على الجرف مطلّاً على الشاطئ الرملي الممتد أمامي إلى مسافة بعيدة، فرأيت، عن بعد قاربين لم أتبين من فيهما، ثم مشيت مرافقاً النهر في مجراه حتى وصلت إلى خيمتنا آسفاً على جهد أضعته في التفتيش عن حيوان بري ارميه برصاص مسدسي! وما كدت اجلس على سريري واجهز سيغارتي واستعد لتدخينها حتى سمعت ابنة أخي تناديني بلهفة: ياعماه، تعال انظر، فذهبت إلى حيث كانت ونظرت إلى حيث تشير فرأيت نعامة كبيرة تعبر النهر إلى المكان الذي كنت فيه من دقائق، وكان الماء يغمر معظم ساقيها الطويلين حتى إذا وصلت إلى العباب سبحت فيه ورأسها يرتفع نحواً من متر فبدت كأنها قارب ذو صارية، فلما وصلت إلى الجرف صعدته بخفة واختفت في الحرج على مسافة منا لا تكاد تبلغ المئتين من الامتار، فلعنت سوء حظي، ولو انها رأتني وفهمت مقصدي لشتمتني وحمدت حسن حظها...

بعد برهة قصيرة من الزمن هبطنا إلى الشاطئ، شاطئنا الضيق القبيح بالنسبة لشاطئ الجزيرة الرحب الجميل الممتد امامنا، هبطنا لنرى القاربين اللذين كانا يقتربان منا فتبينا فيهما اسرة هندية من انصاف أو ارباع المتمدنين، الذين يقطنون الجزيرة، مرّوا على مقربة منا وسمعنا الرجل يلقي علينا التحية فحييناه بأحسن منها! وكان أغرب ما رأيناه

ثلاثة كلاب تخص الأسرة الهندية وترافقهـا في سفرتها سابحـة وراء القاربين، وكانت أحياناً تقفز إلى الشط فتركض عليه ثم تعود إلى الماء.

ما أنكر بعض الجيران وجوده من الوحوش البرية في المنطقـة أثبتته (تواقيع) هذه الوحوش بما لا يقبل الشك، فلقد رافقت الجماعة عصر اليوم في مغامرة صيد في مكان يبعد عن مضربنـا نحواً من ستة كيلومترات، عبرنا الماء بالقارب إلى الشط الرملي الذي طالما تمنيت العبور اليه، فوطئت قدماي الرمل الابيض الناعم، تركنا القارب هناك بعد ان جررناه إلى اليابسة حتى لا تأخذه المياه معها، وسرنا معاكسين في سيرنا مجرى الماء، مشينا فوق الرمل مقدار كيلومتر واحد فوجدنا المياه الغزيرة تتحول من شاطئنا إلى شاطئ الجزيرة، ولكن على دفعات، قطعنا مجرىً يبلغ عرضه خمسين متراً فكان الماء فيه يبلغ أوساطنـا، ثم اعترضنا لسان رملي عرضه عرض الماء الذي قطعناه فاجتزناه، ثم اعترضنا مجرىً آخر فقطعناه، ثم لسان رملي آخر فاجتزناه وهكذا قطعنا النهر كله شيئاً فشيئاً فوجدنا انفسنا وقد انتقلنا من شاطئ الجزيرة الذي تحول إلى جرف عال إلى شاطئنا الذي تحول بدوره إلى شاطئ رملي منبسط، عبرنا المياه واجتزنا الرمال منتعلين اخفافاً من الليف، وكانت الساعة حوالي الخامسة عصراً وكان الرمل رطباً تنطبع عليه آثار أقدامنا فراح الرفاق المتمرسون في هذه المغامرات، ومعنا الدليل المجرب من أبناء المنطقة، راحوا يدرسون آثار أقدام الحيوان المطبوعة على الرمل المبلل، الذي لا يخطئ ولا يكذب، وكانت هذه الآثار واضحـة كل الوضوح،

فقال أحدهم هذا أثر كف النمر الذي زعموا انه غير موجود في ٱلمنطقة، واجتمع الرفاق حول هذه ٱلآثار الممتدة من ٱلغابة إلى ٱلماء ثم من ٱلماء إلى ٱلغابة فأجمعوا على ما قيل انه أثر كف النمر هو حقاً أثر كف النمر، وشاركتهم في ٱلنظر إلى ٱلأثر ودرسه فرأيت ما يشبه ٱلدائرة التي تزيد على عشرة سنتيمترات وكأنها أثر كف قط هائل الحجم، فقلت لهم هذه طغراء سلطان الغاب، طبعها على أوراق الدولة الرسمية... والنمر في البرازيل هو فعلًا سلطان الغاب، لا ينازعه ٱلسلطة منازع، فان المنازع الوحيد الذي كان من ٱلممكن أن يغتصب ٱلملك ويستولي على ٱلسلطة، وهو الاسد، لا وجود له في هذه ٱلغابات، وإذن فالنمر هو السلطان الوحيد، فهو يعبر ٱلنهر سابحاً وهو يتسلق ضخام الاشجار، وهو إلى هذا، أقوى الضواري وأخفها وأجرأها وأشدها فتكاً، وهو بعد كل هذا، أو قبل كل هذا، جارنا العزيز الذي يوجب علينا احترامه.. وتمددت الآثار، فهذا أثر « كابيڤارا Capivara » يشبهه بعرها الذي لا يزال طرياً وكأنه فستق العبيد، وهذا أثر « أنطا Anta » وكأنه أثر بغل، وهذا أثر « باكا Paca » وكأنه أثر ثعلب، وهذا أثر الأيل وهو كثير هنا وفي معظم أقطار البرازيل، وهذا أثر هذا ٱلحيوان وهذا أثر ذاك ٱلوحش، وهكذا، وهلم جراً، ظهرت لنا هذه ٱلآثار كلها على هذا ٱلطرس الطبيعي فكأنها تواقيع أصحابها التي لا تنكر ولا تدحض، وفوقها جميعها طغراء صاحب الجلالة النمر!

وفي البرازيل عشرات بل مئات من الحيوانات البرية والضواري والزحافات التي لا يعرفها العرب ولا اظن ان لها في اللغة العربية أسماء فالكابيفارا ، مثلاً حيوان يشبه الخنزير الكبير في حجمه ويشبه الفار في شكله ولكنه ليس خنزيرا ولا فارا ، والأنطا تشبه البغل وهي ليست بغلا والبا كا تشبه الثعلب وهي ليست ثعلباً ، فالثعلب موجود بكثرة واسمه رابوزا . الخلاصة قد تقرر لدينا بما لا ريب فيه وجود هذه الوحوش في الغابة القريبة منا ، والآثار التي درسناها كانت آثاراً حديثة وهذا يعني ان أصحابها خرجت ليلاً ، الليلة الماضية من الغابة إلى الماء ، وأما عن التماسيح فحدث ولا حرج ، انها موجودة بكثرة في الانهار والبحيرات والمستنقعات ، وقد رأينا الكثير منها وقتلنا بعضها .

واصلنا السير صعداً مما كسين الماء المنحدر ، سرنا طوراً حفاة على الرمل الرطب ولكنه غير البارد إذ ليس للبرودة محلٌ في دنيا اراغوايا ، الماء يجري عن يميننا وبعد الماء الجرف العالي الذي بناه أو حفره ، ووراء الجرف الغابة الكثيفة في جزيرة باناتال (الموز) ، وإلى يسارنا السهول والاحراج التي تكسو معظم هذه الغابات الهائلة الطول والعرض والتي تتصل شمالاً بغابات الامازون ، والتي يضل فيها أشد أبنائها حذقاً ، فآفاقها قريبة متشابهة لا تستطيع إن ترى ما يدلك على انك مررت من هنا أو من هناك وانك من هنا أو من هناك يجب أن تعود ، وانك لتحسب وانت تنظر إلى الافق من نواحيه الاربع أو الست انه لا

يبعد عنك أكثر من نصف كيلومتر وأن السماء مطبقة عليه كأنه وعاء وهي غطاؤه، وتحسب انك لو مشيت هذه المسافة القصيرة لبلغته ولقبضت على السماء بكلتا يديك ولكنك تمشي مئات الكيلومترات والافق هو هو والمسافة التي تفصله عنك هي هي!

وصلنا بعد الساعة السادسة، أول الليل إلى لسان رملي طويل داخل في الماء الى العباب وحاصر مجرى النهر كله في أقل من مئة متر عرضاً، فانتشر الرفاق على طرف هذا اللسان وفي يد كل منهم عدة حربه: قصبته وشصه المناط بها، والقصبات مجهزة تجهيزاً فنياً كنت أجهل وجوده، فكل قصبة لها ما يشبه البكرة يلتف عليها السلك وهو من (النيلن) المتين، فيرمي الصياد بشصه (صنارته) بعيداً ويدير بكرته إلى أقصى حد يمكن أن يصل اليه الشص، ثم يجلس منتظراً رحمة... السمك الذي يدفعه جوعه أو شراهته إلى التهام الشص المكسو باللحم فيعلق الشص بخيشومه والنتيجة معروفة! ويكون الطعم على الغالب سمكة صغيرة أو قطعة من سمكة كبيرة.

لم يكن الصيد كثيراً ولم يخدم الحظ الصيادين، ولعله كان في خدمة السمك! فلما صارت الساعة التاسعة، وكان القمر بدراً وضوؤه ينعكس ساطعاً على الرمل والماء، اهاب مدير الحملة ومدبرها صهرنا العزيز السنيور الفارو طورس، بالرفاق ان قوموا فقد آن اوان العودة، فجمعوا سلاحهم ولموا شصوصهم وقصباتهم وعادوا، وانا طبعاً معهم،

في الطريق الذي جئنا منه ومحمولنا ثلاث سمكات لا تزن مجموعة أكثر من ثمانية كيلو غرام.

في عودتنا اكتشفت ان فانوسي الكهربائي معطل فمشيت مستنيراً بفوانيس الرفاق وضوء القمر وقد حررت قدمي من الخفين إذ مشيت حافياً اطأ الرمال الرطبة حيناً والجافة حيناً آخر، وهذه اجتيازها أصعب إذ تغوص فيها القدمان فيشعر المجتاز ان وزنه قد تضاعف، وتارة أقطع المياه مستأنساً بالرفاق، وكانت عيون التماسيح تلمع بكثرة على الشاطئين وقد قتل أحد الرفاق فرخاً منها وحمله إلى الخيمة، وهم يزعمون انهم سيأكلون ذنبه مطبوخاً حساء وانه اكلة فاخرة .

نمت الليلة باكراً، وكان نومي عميقاً، والفضل في هذا يعود إلى التعب النسبي الذي أصابني في رحلة الصيد المذكورة آنفاً، وكما نمت باكراً افقت باكراً، فوجدت الرفاق يستعدون لرحلة يقومون بها إلى الجزيرة، يتوغلون في غاباتها التي يصعب التوغل فيها، لكثافتها، على غير أهلها من الوحوش، فلما أظهرت رغبتي في مرافقتهم نصح لي أخي كريم بالبقاء في الخيمة زاعماً ان هذه ستكون رحلة استكشاف، فقبلت نصيحته، وقد بقي في الخيمة مدير الحملة صهرنا طورس وامرأته وكنتها وجيرالدو الذي لم يشأ أن يرافق الجماعة، وبعد أن ذهب الصيادون قال لي جيرالدو: ما قولك برحلة أقوم بها أنا وأنت إلى البحيرة لصيد البط الوحشي؟ فقلت له حسناً، ولكن أنا لا بندقية لي، فبماذا أصيد البط وسمع طورس سؤال جيرالدو وجوابي فقال: خذ بندقية كارلينيو فقد

تركها هنا، فقمت فوراً إلى جزمتي فاحتذيتها للدفاع عن رجلي واعتمرت كوفيتي للدفاع عن وجهي وتقلدت مسدسي وخنجري وحملت بندقية كبير أبناء طورس وتمنطقت بمنطقة الفشك وقلت هلم، ولما كانت البحيرة تبعد أكثر من عشرة كيلو مترات ركبنا السيارة الكبيرة وسرنا، فقال جيرالدو سنمر بالبيت الذي داويت فيه اللديغ (السايم) أمس فان صاحبه سيرافقنا ويكون دليلنا، ووصلنا إلى البيت المذكور فاستقبلنا فيه امرأتان صبيتان وشاب كان يداعب طفلاً عارياً (ربي كما خلقتني) وكان هذا يلعب بالتراب.

سأل جيرالدو عن السنيور جوزه، وهو صاحب البيت، ورب الأسرة، فقالوا له ذهب وراء حصان ضائع ولا يلبث أن يعود، وسألنا عن الفتى الذي لدغته الأفعى فقالوا انه ذهب إلى بيته الذي يبعد ستة كيلومترات فسألتهم أنا وهل شفي؟ فأجابت إحدى المرأتين لا، ولكنه قد يشفى، وأخبرتنا أنه ذهب راكباً حصاناً، بعد قليل وصل السنيور جوزه ممتطياً حصاناً وسائقاً حصاناً آخر أمامه، ثم ترجل ورحب بنا، ثم قال: نتغدى أولاً، فقلنا ان ساعة الغداء لا تزال بعيدة، فقال إذن نأخذ معنا شيئاً نأكله، وقال لامرأته: أحضري لنا شيئاً نأخذه معنا، فجهزت المرأة ما تيسر، ثم قمنا فركبنا السيارة وقد جلست أنا إلى جانب جيرالدو وصعد جوزه والفتى رفيقه إلى أعلى السيارة، وراحا يدلان جيرالدو على الطريق من مركزهما العالي فيقولان: سر يميناً أو سر

شمالاً ، ولا طريق ولا أثر لطريق ، وإنما سهل منبسط بعضه خال من الأشجار وبعضه الآخر حال بها .

سارت بنا السيارة أكثر من ساعة ثم سمعنا صوت جوزه آمراً : قف ! فوقف وترجلنا نحن الأربعة ، وكنت أنا أتلفت لأرى البحيرة فلم أرها فسألت : وأين البحيرة ؟ فقال السنيور جوزه هنا ، فقلت هنا أين ، فاني لا أجد أثراً للماء فهل هي بحيرة جافة ؟ فقال لا ، ولكنها مستنقع تغطيه الأعشاب البرية كما ترى ، والماء فيه كثير ، وهو مأوى لكل أنواع الوحوش والحيات ! ثم قال لي : ابق أنت راصداً تحت هذه الشجرة وانتظر مجيء البط اليها فانه لا بد آت ، أما نحن فسندور من وراء البحيرة وسنطلق بنادقنا على البط الذي يتجمع في تلك الناحية ، فيصاب منه ما يصاب ويطير الباقي إلى هنا فتتلقاه أنت مرحباً برصاصك ! فقلت ولماذا أبقى هنا تحت الشجرة وحدي معرضاً للوحش والحيات ، وماذا علي لو بقيت داخل السيارة ورحبت بالبط منها ؟! فضحك السنيور جوزه وقال : ابق حيث شئت ، المهم أن يكون ترحيبك بالبط حسناً ! ولقد أذهلني هذا الرجل الذي خلع ملابسه كلها إلا سراويل قصيرة كسراويل السباحة ، وعلقها على شجرة أمامي وكان حافياً ، ثم اندفع يحمل بندقيته وساطوره ، إلى البحيرة المكسوة بالأشواك والملأى – كما قال بالحيات والوحوش ، ومشى وكأنه يمشي على سجادة عجمية ! ولم يلبث أن غاب في غابة هائلة من الشجر الشائك وراح رفيقاه وراءه ، فدخلت أنا إلى السيارة وجلست على مقعدها مستحكماً للشجرة التي

سيجيء البط اليها. بعد ساعة عاد جير الدو وحده حاملاً سلحفاة في حجم الجرة الصغيرة القاها داخل السيارة في المكان الذي تحمل فيه البضاعة، تسرح وحدها وتمرح، فقلت له هذا صيدك، ولكن أين رفيقاك؟ وأين البط؟ فأجاب: أما الرفيقان فقد تركاني مذ تركناك وأما البط فلم أجد له اثراً، وها أنا عائد لأرى الرفيقين، قال هذا وقفل راجعاً إلى ما يسمونه البحيرة! واختفى بين اعشابها وشجيراتها التي ترتفع إلى فوق رأسه، على انه لم يلبث ان عاد ماشياً وراء جوزه حاملاً بطة في حجم الحمل، وجوزه امامه حاملاً بطة اخرى أصغر من الاولى، فمد جير الدو إلي يده بالبطة الكبيرة قائلاً: رُزْ، فأخذتها منه ورزتها بيدي وقد قدرت وزنها بخمسة كيلو غرام، أما البطة الصغرى فكانت في تقديرنا تزن ثلاثة كيلوات، وجلس جوزه في الظل تحت الشجرة وجلست وجير الدو حواليه، فسألني ألم تقتل شيئاً! فقلت لم اجد شيئاً اقتله، فان البط لم يزر الشجرة، فقال هو ان البط اليوم قليل على غير العادة، فلقد كانت رفوفه تغطي سماء البحيرة ولم يكن صعباً على الصياد أن يصيب منه العشر والعشرين في ساعة من الزمن، ثم سأل عن الرفيق الآخر فقال جير الدو لم أره منذ افترقنا، ولكني ذاهب البحث عنه، وذهب جير الدو فبقيت والسنيور جوزه نتحدث وقد فهمت منه انه جاء في سنة ١٩٣٩ من ولاية مارانيون إلى هذه الناحية من غوياز وانه يعرفها شبراً شبراً، والسنيور جوزه شيخ كبير تجاوز الستين من عمره وهو خفيف شعر الرأس أبيضه، غزير شعر اللحية والصدر دقيق

الملامح ، خفيف اللحم ، ممروق الساعدين والساقين ، وهو إلى هـذا رقيق البشرة ، وهي مدبوغة ، كأحسن ما يكون الجلد المدبوغ ، حلو الابتسامة ، صافي العينين ، من يتأمله يحسبه من أبناء النعمة والرخاء ولا يصدق انه يصيد النمر والتمساح والسوكوري ، ولا يرى في اساريره شيئاً يدل على بطولته ، ولكنه في الحقيقة يكذب المتفرسين ، فلقد حدثني دون تبجح ودون عنجهية انه قتل مدة اقامته في هذه الناحية (٢٣ سنة) عشرين نمرًا وما لا يحصى من سائر الوحوش ، وقال ان المنطقة غنية بكل أنواع الحيوان البري ، وصحيح ان النمر قد قل فيها ولكنه لا يزال موجودًا ، وان التماسيح تملأ الانهار والسواقي والبحيرات والمستنقعات ، وبينما نحن في الحديث وصل جيرالدو والرفيق الآخر الذي اجهل اسمه ، فجاء جوزه بالطعام من السيارة ، والطعام لحم الخنزير ودقيق المنديوكا وعرضه عليّ فاعتذرت بضعف اشعر به في معدتي من أيام ، ولم اكن كاذبًا فأنا من أيام لا اكاد آكل شيئاً ، فقال السنيور جوزه : معنا لبن ، فهل تريد لبناً؟ فسال لعابي بمجرد سماعي لهذا السؤال ، وقلت اجل ، ولكن لبنكم يختلف عن لبننا ، ومع هذا فانا اجربه ، واسمع رأي معدتي فيه ، فضحك جوزه وقال تفضل ، قال هذا وناولني قصعة فيها ما يشبه القريشة فاخذت منها شيئاً على طرف بناني وذقته فوجدته لذيذاً ، فقال جوزه ضع عليه شيئاً من السكر ، ففعلت وأكلت منه ما اشبعني ، وكان القليل يشبعني ، واعدت القصعة إلى السنيور جوزه فارغة ، وشكرت له الضيافة ، وكان السنيور جوزه يأكل ويتكلم ، وكان

كل كلامه اجوبة على اسئلتي واسئلة جيرالدو، وكانت الاسئلة كلها تتعلق في المنطقة وما فيها من حيوان، سألت السنيور جوزه داسيلفا اغيار (وهذا اسمه كاملًا) أحقيقة ان التمساح يهاجم الانسان؟ واخبرته ان جيرالدو قتل من يومين تمساحًا طوله متران، فقال جوزه ان في انهرنا تماسيح يبلغ طول الواحد منها، والتفت إلى الكامنيون الواقف امامنا، اكثر من طول هذا الكامنيون، فلقد قتلت مرة تمساحًا في ضخامة هذه الشجرة. واشار إلى الشجرة الضخمة المسند اليها ظهره، وقد بلغ طوله ثلاثة وثلاثين شبرًا، كنا يومئذ على شاطئ هذا النهر الذي وراءنا، نهر فورموزو، وكنا ثمانية رجال وثلاث نساء وغلامين، وإذا بتمساح ضخم هائل يطل برأسه علينا فرميته برصاصة بين عينيه فلم يتحرك وظل ينظر الينا بعينيه الجاحظتين وكأنه لم يصب بشيء. فعلمت ان الرصاصة لم تؤثر في جلدة رأسه فرميته برصاصة اخرى اصابت ابطه وهذا أنعم وارق مكان فيه فخبط الماء خبطة اطارت الرشاش عاليًا ولم يلبث ان انقلب فاصبح بطنه فوق الماء، فتأكدنا انه مات فجئنا بحبال ربطناه بها ورحنا نحاول جره إلى الشاطئ المنبسط امامنا ولكننا لم نصل إلى نتيجة ولما اعيانا امر اخراجه من الماء اوعزت إلى احد رفاقي أن يقطع رأسه ليخف وزنه، فقطع الرفيق رأس الحيوان بجهد جهيد، وبصعوبة كلية استطعنا أن نجره إلى خارج الماء ونلقيه على الشاطئ، فلما كنت اتأمل حجمه الهائل وساطوري في يدي اغرزت الساطور في ذنبه، والظاهر انه لم يكن قد مات موتًا كاملًا، فتنفض

ذنبه نفضة أصابني فيها عند ركبتي هذه، واشار إلى ركبته اليسرى فقذفني ألى النهر على بعد أمتار منه، وقد بقيت أكثر من ثلاث سنوات اتألم منها وأعرج. وكان السنيور جوزه يتكلم ببساطة وملامحه تعبر عن صدقه، والحق يقال اني كنت كلما فكرت في انه يبالغ ويهول كعادة الصيادين تذكرت كيف نظرته من ساعتين يتعرى من ثيابه ليخوض المستنقع الملئ بالاشواك والحشرات السامة والوحوش، فأضطر إلى تصديقه، فقلت له يا سنيور جوزه، حدثنا كيف قتلت العشرين نمراً؟ فقال رميت بعضها برصاص المسدس وبعضها برصاص البندقية وأحدها بالسلاح الابيض، فقلت متعجباً: بالسلاح الابيض؟ وكيف؟ هل غرزت خنجرك بين أضلاعه؟! فأجاب كلا، ولن يسلم من النمر من يحاول أن يفعل هذا، ان أقوى اسلحة النمر وأحدّها كفاه واظافره، فلقد تلقيت أولاً كفيه (بالفاكون) والفاكون تكبير (فاكا) وهي السكين، واظن ان ليس في العربية من تكبير سوى القول (الله اكبر) والتصغير فيها قليل بالنسبة للغة البورتوغالية، فان التصغير في البورتوغالية والتكبير يدوران على ألسنة الناس دوراناً طبيعياً، لا فرق في ذلك بين كلام المتعلمين وبين كلام الاميين، والتصغير في العربية قليل نادر وهذا القليل النادر قلّ من يستعمله، ولست أعرف من كلام العامة المصغر سوى قول اللبنانيين (بَيّي وخَيّي) ولا شك في ان اصل الكلمتين أبيَّ وأُخيُّ، والا قول بعض النساء اللبنانيات (خَيتي) وهي تعني أخيّتي تصغير اختي، وما سوى هذا فهو أندر من النادر، ولقد

بعد هذا الاستطراد إلى حديث السنيور جوزه . قال : تلقيت يديَ النمر بالساطور (أو الفاكون) فعطلتهما واصبح الباقي هيناً يسيراً...

والسنيور جوزه يعرف وحوش المنطقة وسائر حيواناتها باسمائها والوانها وعاداتها وطبائعها ومتى تخرج إلى الصيد ومتى تأوي إلى اوجارها فهو عشيرها وجارها منذ ثلاث وعشرين سنة، وهو عدوها الألد، واخبرنا السنيور جوزه انه لا يزال في هذه المنطقة بقايا من الهنود المتوحشين الذين يصبغون وجوههم بالسواد ويعرفون بذوي الوجوه السوداء، وانهم خطرون كاشد الضواري خطراً وأن البيض قتلوا منهم الكثير واما هو فلم يقتل أحداً.

عندما انتهى السنيور جوزه من حديثه وانتهى الرفاق من تناول الطعام كانت الساعة قد بلغت الرابعة عشر، أي الثانية عصراً، وكان الحر الخانق خانقاً حقاً، فلقد كنت اشعر وانا اتلذذ بسماع الحديث حديث السنيور جوزه دا سيلفا اغيار، اني في فرن احترق فيه واتحول إلى فحم أو إلى رماد!

بقينا جالسين في الظل نتحول معه كيفما تحول حتى الساعة الرابعة فحمل جوزه بندقيته وحمل رفيقاه بندقيتيهما وعادوا إلى البحيرة بقصد توديع سكانها.. على ان جوزه لم يلبث ان رجع إلي حاملاً بطة ثالثة، وبعد قليل عاد الرفيقان وكل منهما لا يحمل سوى بندقيته! فركبنا السيارة كالسابق، أنا إلى جانب جيرالدو في مقعد القيادة. وجوزه ورفيقه وراءنا و (فوقنا!) وما سرنا إلا قليلاً حتى سمعنا جوزه ينادي

جيرالدو قائلا : انظر إلى يسارك عند طرف الغابـة ، فنظر جيرالدو ثم أوقف السيارة وقفز إلى الارض وبندقيته في يـده ، ونظرت أنا إلى الناحية التي أشار اليها جوزه فرأيت على مسافة مئتي متر أيلا واقفاً يتلفت يمنة ويسرة ،زهواً بقرنيه المشجرين ا واخذ جيرالدو يقترب من الايل في حذر حتى إذا صار على مئة متر تقريباً منـه رماه برصاصة أصابته ولا شك لأنه وثب وثبة هائلة ، وكنا نظنه وحيداً ولكنه عندما وثب وثبت معه انثاه التي كانت رابضة قريباً منه ، فلحق جيرالدو بهما ولما استحكم ثانية رماه برصاصة اخرى فوثب كالاول واختفى هو وانثاه في الغابة ، فترجل جوزه ورفيقه وراح الثلاثة يفتشون عن الايل فلم يجدوه ولكنهم وجدوا كثيراً من دمه ، وقرر السنيور جوزه مؤكداً ان الحيوان الجميل سيموت في الغابة لا سيما بعد أن أخبره جيرالدو انه استهدف بالرصاصة ابطه ، وهذا في رأي جوزه المقتل الأكيد لا يكاد يسلم حيوان اصيب فيه .

عندما وصلنا إلى بيت جوزه ترجل هو ورفيقه ، وقد دعاني وجيرالدو إلى الترجل والراحة في البيت فشكرنا معتذرين بقصر الوقت لأن النهار أوشك أن ينتهي ولا بد من الوصول إلى جماعتنا حتى لا تقلق علينا ، ومع أن جوزه هو الذي قتل البطات الثلاث فقد أبى ألا أن نأخذها كلها معنا ، فشكرناه ثانية ودعوناه إلى زيارتنـا فوعد انـه يزورنا في الاسبوع المقبل ، فمساه يعمل ، اني قـد استلطفت الرجل وأحببتـه وأعجبت به .

كل الذين عرفناهم في هذه المنطقة من الرجال يتقلدون نوعا من السيوف القصيرة يعلقونها في أوساطهم كما يعلق الضابط سيفه، ويسمون الواحد منهـا (فاكون) أي السكين الكبيرة، وهي بين السيف والساطور يستعملونها في الغالب في شق الطريق ضمن الغابة البكر التي يصعب اجتيازها، ولهم فيها مآرب اخرى ...

والبقر والخيل هنا، كالناس، لم يتحضر بعدا فهي تجفل من صوت السيارة وتخاف رؤيتها.

عندما وصلنا إلى مضربنا. بعد الرحلة إلى البحيرة، وجدت أخي كريماً مستلقياً على سريره، ونظرت فاذا معظم الأسرة مشغولة بأصحابها، فسألتهم ما بالكم نائمين؟ فقال كريم: انك حسن الحظ لانك لم تسر معنا إلى الجزيرة، فلقد مشينا على أقدامنا في غابة كثيفة دخلناهـا وتعذر علينا الخروج منها، وكنا في كثير من الأحيان نفتح الطريق أمامنـا بالسواطير نقطع بها الأغصان الشائكة المتشابكة، ولكن في مقابل هذا فقد قتلنا (جاكويين) و« الجاكو » طائر أسود في حجم الدجاجة الكبيرة، فقلت وأين هما؟ فقال في القدر والقدر على النار، وقد اعجب بالبطات التي اصطدناها، وكريم يحب الصيد على أنواعه وقد تمرس بـه منذ فجر شبابه، فانه لم يغامر في حياته إلا في صيد الطير والحيوان. ويرهاني انه اليوم في الخامسة والسبعين لم يتزوج!

يوم الأحد، السادس عشر من ايلول، حمدت للجماعة محافظتها على قداسة « الأحد » فلم يذهب أحد منها للصيد، وكل مـا عملوه – وأنا

معهم – انهم نزلوا ألى ألنهر يتبردون، وبالمناسبة اقول لقد درج بعض كبار الكتاب على تسمية كل اغتسال استحماماً، فاغتسال في ألبحر هو في نظرهم حمام ومثله الاغتسال بماء النهر، ويسمون ألمسابح العامة حمامات البحر، والحمام لا يكون إلا بالاغتسال بالماء الحار، أما الاغتسال بالماء البارد فهو اغتسال أو إبتراد لا غير، وما دمنا وصلنا إلى ألبحث اللغوي فلا بــدَّ من ألقول أن بعض كبار الكتــاب، ولا سيما من ألمصريين، يؤنثون ألرأس والبطن فيقولون وجعتــه رأسه وانبعجت بطنه!(١)، وكنا رضينا بتأنيث الرأس والبطن، لا لأنه صحيح ولكن لأننا تعودنا سماعه وقراءتــه، حتى جاءنا في ألمدة الأخيرة كاتب عراقي يؤنث ألباب إذ يقول انفتحت الباب وانقفلت الباب!، قرأنا هذا في أحد أعداد مجــلة «الأديب» الصادرة حديثاً، ونحن على كل حال لسنا من علماء اللغة ولكننا نفضل تذكير المؤنث على تأنيث المذكر ونراه أقرب إلى ألطبيعة!. ومن كبار الكتاب الاستاذ علي أمين، فقد قرأت له: (لفلان ثلاثة أولاد وبنتان!) أو شيئاً في هذا ألمعنى، فكأن البنت في نظره، ليست ولداً وإنمــا الولد هو الصبي وحــده... فلا حول ولا قوة إلا... بالوحدة الشامــلة! وإلا في وضع الأمور في أماكنها!

---

(١) ويغضب بعضهم و«ينرفز» على كلمة «مطار» العربيــة الاصيلة الخفيفة المفهومة فيمحوها من قاموسه واضعاً مكانها كلمتين مترجمتين عن اللغات الاوروبية هما (ميناء جوي) عفارم .. وسبحان موزع الأذواق!

لم اكد احمد لجماعتي بقاءهم يوم الاحد في (المضرب) حتى رأيتهم حوالي العصر يستعدون فيحمل كلٌّ منهم عدة حربه وينزل إلى القارب، ولما أظهرت الرغبة في مرافقتهم اعترضتني سيسينيا قائلة: انت لا، لا تذهب، يجب أن تبقى هنا، فقلت متعجباً: ولم يا عزيزتي ؟! ان في الجماعة من هو أكبر مني سناً، وكنت اعني أخي كريماً، فقالت المرضي كبرياني: وانا اريدك هنا لانك قوي تستطيع أن تحمي السرادق في حالة الطوارئ، فلم اصدق ان هذا الذي عنته ومع هذا فقد تظاهرت بالتصديق والرضى ونزلت على رغبتها!.

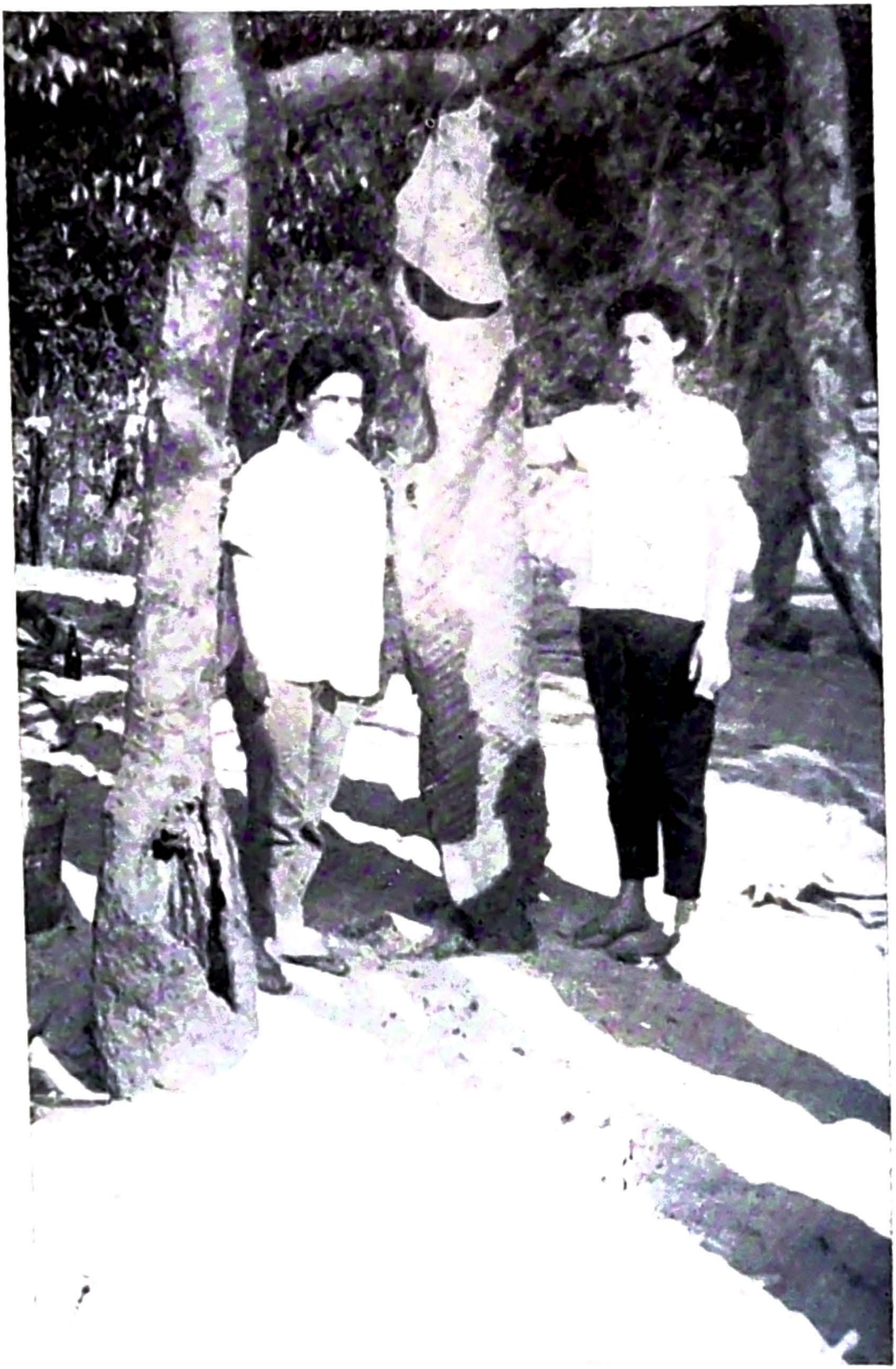
بقيت وسيسينيا في الخيمة ساهرين يسلي أحدنا الآخر باحاديث مختلفة مرتجلة تمضية للوقت وطرداً للملل، ونتذاكر بعض حوادث اسرتنا وقد أخذ مني النعاس مأخذه ولكني لم أسمح لعيني بالاغماض وإلا فما معنى بقائي حارساً إذا كنت أنام واترك رفيقتي في الحراسة ساهرة وحدها؟!

عند الساعة الثالثة والعشرين سمعنا ضجة آتية من النهر، فقمنا وبيد كل منا فانوس كهربائي نستطلع الخبر فوجدنا جماعتنا تصل إلى الشاطئ. بعضها ماشياً على قدميه وبعضها الآخر راكباً الزورق، ثم تجمعوا كلهم على الزورق وسحبوه، أو سحبوا نصفه إلى خارج الماء، ثم صاحوا بي وبرفيقتي: تعاليا وانظرا، فهبطنا الجرف ولما اقتربنا من الزورق رأينا فيه سمكة تكاد تملأه.. سمكة كبيرة قدروا زنتها بخمسين كيلو غراماً، وهذا النوع من السمك كثير في نهر اراغوايا وهو المقصود الرئيسي في رحلات الصيد، واسم هذا السمك « بيراروكو » Pirarocu .

صيد البيراروكو في نهر اراغوايا



سمكة بيراروكو — خالد ، الثاني من اليمين ، و كريم الاخير في الصف ...



خالد بن فرحات وكريم اخوه ...

ولقد كانت فرحة الصيادين كبيرة لان هذه ٱلسمكة كانت أول صيد كبير أصابوه، ولقد تركوها في ٱلقارب إلى صباح اليوم التالي إذ نزعوا عنها فلوسها، والواحد منها يكاد يكون في حجم الكف، ثم سرحوها وملحوها ولم اذكر ٱلسمك الصغير الذي اتوا بـه لان هذه ٱلسمكة الكبيرة غطت كل ما عداها.

تلطفت اليوم إحدى السمكات فقبلت مني قطعة صغيرة من لحم اخواتها جاهلة ان فيها شصاً ! وانها ستكون غذاء لي، على ان سمكة اخرى، من نوعها انتقمت مني إذ قرضت ٱلسلك وقطعتـه قريباً من الشص وهكذا أعادت لي الخيط مبتوراً... وعندما رأى رفاقي اولى ضحاياي هنئوني متعجبين كيف سلمت منـها وانا انزع ٱلشص من خيشومها، وذلك لانها من نوع (البيرانيا) وهو أخطر أنواع السمك واشدها فتكاً، واما كنت أجهل هذا ٱلأمر وكان جهلي له سبباً في جرأتي عليها ! وقد فتحوا فمها وأروني اسنانها الحادة المتراصة، ولقـد قرأت بعدئذ في أحد الكتب أن الثور إذا قذف به سوء حظه إلى جماعة من هذا ٱلسمك الشره الفتاك فانها في أقل من عشر دقائق لا تترك منه سوى عظامه البيضاء.

الفصل الثالث

يأس بعد رجاء

عند الساعة الخامسة عصراً ذهب جماعة من الصيادين إلى المكان الذي كانوا يأملون أن يجدوا فيه صيداً كثيراً، ولقد بقيت أنا والصهر طوروس وامرأته وكنتهما في الخيمة. ولم تعد هذه الحملة الجديدة من رحلتها إلا قبيل منتصف الليل، عادت حاملة بدلاً من السمك آمالها المحطمة! وقد لحظت على ضوء الكهرباء الذي ننعم به بفضل رفيقنا اليوغوسلافي وجوماً في وجوه أفرادها وسمعت منهم كلاماً يدل على اليأس، وفي صباح اليوم التالي نهضت من فراشي باكراً وحملت منشفتي وقصبتي ونزلت إلى الشاطئ فغسلت وجهي ونشفته ثم جلست على صخرة هناك وقذفت بشصي إلى الماء ولبثت أنتظر النتيجة مدة نصف ساعة، ولما لم تكن النتيجة مرضية رجعت إلى الخيمة، وكانت الساعة السابعة صباحاً. فرأيت حركة غير عادية فظننت انهم يستعدون لحملة صباحية تعوض عن الحملة المسائية التي خابوا فيها، ولكن الامر كان أهم وأشد خطورة!

انهم كانوا يستعدون للانتقال إلى مكان آخر قيل لهم ان فيه سمكاً كثيراً ، إلى بحيرة بعيدة جاءتهم أخبارها وقد فهمت ساعتئذ كيف تكون البداوة ! وكيف تقوض الخيم وتجمع المواعين وترزم وكيف يختلط الحابل بالنابل ، فهذا يحمل سريره وذاك يحمل صرة ثيابه وذاك يجمع المؤن في الصناديق والجلبة تملأ الجو ، ان جماعتي تريد النجعة ، وهي لا تنتجع الكلأ وإنما هي تنتجع الماء والسمك ، ولا شيء غير الماء والسمك ، جماعتي لا تنتجع الكلأ كما يفعل عرب البادية ، فليس في في ركبنا ثاغية ولا راغية ، ولا حاجة لنا بالكلأ ، ولا حاجة إلا بالماء والسمك ! اننا لم نصطد في أربعة أيام من السمك الكبير إلا سمكة واحدة ، واذن فالمكان لا يصلح للبقاء فيه ولا بد من الانتقال إلى مكان آخر .

في أقل من ساعتين كانت مواعيننا في السيارة وكان فريق منا ، فريق الشيوخ والنساء ، في سيارة الركاب وفريق الشبان في سيارة الشحن مع المواعين ومشت السيارتان فتذكرت قول المتنبي :

قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها

وخالفوها بتقويض وتطنيب !

سرنا أولاً في الطريق الذي جئنا فيه ، وكانت الساعة التاسعة ، وبعد ان مشينا ساعتين عطفنا إلى اليسار فمشينا ساعتين أخريين وكانت الشمس محرقة والحر لا يطاق والماء عزيز وانا اكاد التهب ويوشك العطش أن يقتلني ، وكان الليمون الحامض الذي كنا نخفف بعصيره من

خطر الماء قد نفذ، فكنت إذا مررت بماء لم يرقني أعرضت – على شدة ظمأي – عنه، فقالت لي نفسي متهكمة :

ونشرب ممـا تشرب الخيـل تارة
وطوراً تعـاف الخيل مـا نحن نشرب !

فلم أقبل تهكمها ورفضت تحديها وأفهمتها أن بين الفتى الذي قال هذا الشعر وبين الشيـخ الذي تخاطبه اليوم متهكمة عليه أربعين سنة، وان ما كان يجوز وهو في الثلاثين من عمره لا يجوز ولا يمكن أن يجوز وهو في السبعين !

عند الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا إلى كوخ فيه امرأة فسألناها عن البحيرة فقالت ان البحيرة القريبة لا صيد فيها وان صيادين قبلنا جربوا حظهم فيها أياماً ثم عادوا اليوم خائبين، ولكن هنالك بحيرة بعيدة كبيرة يقولون ان السمك فيها كثير، فسألناها أين تقع هـذه البحيرة ومن أين الطريق اليها ؟ فاجابت انها هي لا تعرف الطريق ولكن على مسافة قريبة توجد مزرعة إذا ذهبنا اليها فان أصحابها – ولا شك – يدلوننا على الطريق، فقلنا وكيف نصل إلى هذه المزرعـة؟ فأجابت عندي فتاتان تريدان الذهاب اليها لتُحضرا طحين منديوكا فاذا أخذتموهما معكم فانهما تدلانكم على الطريق، وطبعاً رحبنا بالفتاتين وودعنا المرأة ولكن بعد أن أفرغنا جرتها مما كان فيها من ماء بارد مخبإ في الظل ؟ ولم تكن هذه المرة الاولى التي ننقل فيها ما يكون في جرار الاكواخ

من ماء بارد إلى أجوافنا الملتهبة ! فاننا لم ندع كوخاً في الطريق « يعتب علينا » !

وثبت الفتاتان إلى ظهر سيارة الشحن وسرنا نطلب المزرعة التي تؤدي إلى البحيرة وبعد مسير نصف ساعة وصلنا إلى بيت كبير من الطين الجاف وإلى جانبه بيت أكبر من أغصان الشجر والهشيم، هذان البيتان هما بيتا المزرعة، ووجدنا هناك جماعة تصنع دقيق المنديوكا وجاء فتى حسن الوجه، حسن الهندام يشبه أحد طلاب الجامعات أكثر مما يشبه أحد الرعاة أو أحد الفلاحين، جاء فسلمنا عليه وسألناه عن صاحب المزرعة فقال انه غائب وانه هو، أي الفتى الجميل الأنيق، يقوم مقامه، فسألناه عن البحيرة فقال انها قريبة جداً، بل أرانا طرفاً منها مشيراً باصبعه وبشرنا أن السمك فيها وافر وأن البط الوحشي الذي يأوي اليها كثير جداً، فسألناه عن مكان يصلح للنزول فيه والاقامة أياماً فقال: ان هناك مكاناً يقصده الصيادون الهنود وهو مكان حسن ولكنه في طرف البحيرة الآخر، ولم يقل لنا ان طرفها الآخر يقع في آخر الدنيا ... فسألناه إذا كان يرسل معنا أحد الفعلة ليدلنا على الطريق فقال فوراً سيذهب معكم فلان، وسماه، وسأذهب معكم أنا أيضاً، فانسانا الفرح المشقة التي تحملناها وانسنا بهذا الوجه الانيس، وجه الفتى الجميل الانيق، وسرنا بسيارتينا بين الاجم والادغال والفتى والفاعل معنا يدلاننا على الطريق ولا طريق ولا شبه طريق، وكانت سيارة الشحن تتقدم سيارة الركاب، فاجتزنا الغابات والاحراج والادغال

والاجم، والشمس تكوينا بشواظها كياً. وبغتة وقفت سيارة الركاب، اي سيارتنا التي نحن فيها، ووقفت لوقوفنا سيارة الشحن المتقدمة وجاء الفتى يسأل عن سبب الوقوف فاخبره السائق، وهو نسيبنا، وصاحبها سيزر طورس، ان السيارة في حاجة ملحة إلى الماء وان مرجلهـا يكاد ينفجر. فقال الفتى : لا بأس، قف هنا قليلاً فانا على مقربة من مستنقع سنمضي اليه ونحضر لك الماء، فحولنـا من سيارة الركاب أنا وكريم وطورس وسيسينيا وانتقلنا إلى سيارة الشحن، وجاء من هذه إلى مكاننا في الاخرى أخوا سيزر كارلينيو وساليو ليبقيا مع أخيهما حتى يصل الماء، ولم نسر كثيراً لنصل إلى المستنقع، فاخذ الفاعل تنكة فارغة فملأها ماء آسناً ومضى بها إلى السيارة الواقفة ثم عاد إلى سيارة الشحن التي سارت دون إن تنتظر السيارة الاخرى، ومشت سيارتنـا، سيارة الشحن، مشت تشق طريقها بين الاشواك وكنا نتلفت إلى الوراء فلا نرى لسيارة الركاب اثراً. وكنا نسأل الفتى عن البحيرة فيقول سنصل قريباً! وأخيراً وصلنا إلى مكان كنا نرى منه البحيرة وليس بيننا وبينها أكثر من خمسين متراً، ولكنها كناية عن جدار من الشوك المتراص المتلازم يعلو نحواً من مترين وعرضه خمسون متراً! انها اجمةٌ لا اظن الوحوش تنفذ منها ولا اعتقد ان حيواناً يستطيع اجتيازها، فقلت وانا اتأمل ماء البحيرة والجدار الشائك الذي يحميها متمثلاً ببيت المعري :

فيادارها في الحيف ان مزارهـا
قريبٌ ولكن دون ذلك اهوالُ !

فقال الفتى صاحبنا : هذه هي البحيرة ! فقلنا : وأين المكان الذي يقصده الهنود ؟ فقال : هناك عند تلك الشجرات . فقلنا : وكيف نصل إلى تلك الشجرات ؟ فقال : هكذا ! ثم انتضى سيفه وراح يقتحم الأجمة ، ورآه الفاعل ، ورآه رفيقنا الدليل بيريرا ورآه جيرالدو ؛ فانتضى كل منهم سيفه وراح الثلاثة يقتحمون الأجمة من أقرب مكان إلى الماء ، وكانت الشجرات التي أشار اليها الفتى بعيدة والطريق اليها أسهل من الطريق إلى الماء القريب . فعاد بعد نصف ساعة يزعم أنه وصل إلى حيث الشجرات وان هناك مكاناً جميلاً للاقامة ، وان الماء ماء البحيرة غير نظيف وان الهنود يحتفرون على مقربة منها آباراً يستخرجون منها ماء سائغاً ، وكان هو يتكلم ، ونحن ، ولا سيما أنيسة ، نتطلع لنرى السيارة التي تركناها وراءنا وتركنا فيها أولادها الثلاثة ، وكان الفاعل وبيريرا وجيرالدو لا يزالون يحاولون الوصول إلى الماء عن طريق الأجمة الهائلة ، وقلقت أنيسة على أبنائها وشاركنا نحن أنيسة في قلقها عليهم ، ونظرنا لا يذهب أكثر من مئة متر ؛ فان الغابة تغطي كل شيء . وبعد انتظار مجهد سمعنا هدير السيارة فاستبشرنا بقرب وصولها ، ووصلت السيارة فقالت أنيسة : لن نبقى هنا ، وسنعود فنبيت الليلة في المزرعة ، معنا اسرتنا ، ومعنا مؤونتنا ولن نكلف أحداً شيئاً . وجاء الذين اقتحموا الأجمة بالماء الأغبر الكريه الرائحة والمنظر ، فما أن رأته سيسينيا حتى صاحت : عبثاً ! لن نبقى هنا ، ولن ننزل حيث ينزل الهنود ، وسنعود فنبيت في المزرعة . وسمع الفتى قولها وكأنه فوجئ به ، فوجم ، ولم يبد

أقل رغبة في قبولنا في المزرعة. ورأت سيسينيا وجومه فقالت: سنعود إلى برازيليا، وسنبيت الليلة عند أول ساقية نصل اليها. وقر رأي الجميع على هذا الرأي. فأدرنا السيارتين في اتجاه المزرعة وسرنا، وكانت طريق العودة أسهل من طريق المجيء إلى البحيرة، إذ أن بعض أثر دواليب السيارتين كان بادياً في بعض الأماكن التي مررنا بها فلما وصلنا إلى المزرعة، ودعنا الفتى شاكرين له ما أبداه من نخوة وغيرة، وما حملنا من مزرعته من الليمون الحامض، إذ كنت أنا، عندما وصلنا اليها، رأيت عن بعد شجرًا يشبه الليمون وكان هو الليمون، وقد أباحه الفتى لنا فنزلنا عليه نزول الجراد على حقل أخضر خصيب.

وكان الليل قد باشر لبس طيلسانه الاسود، فرحنا نتلمس الطريق، وخدمنا الحظ فوصلنا إلى ساقية البيضاء قبل اشتداد الظلام. ولما كنا قد عرفنا ساقية البيضاء في مرورنا السابق قررنا المبيت عندها. فوقفنا وفي لحظات كان الحطب اليابس يغني تحت القدر، وكنا منذ الساعة الثامنة صباحًا لم نذق طعاماً ولم نرسل إلى معدنا إلا الماء الممزوج بعصير الليمون الحامض. وبينا كان الطعام على النار، أنزل الرفاق اسرتهم وفتح كل منهم سريره استعدادًا للنوم. ان تعب النهار كان شاقاً وقد اجتمع علينا التعب والجوع، وقد قيل قديماً (ضعيفين يغلبان قوياً) والتعب والجوع قويان تسلطا على ضعيف!

بعد العشاء تفرق الرفاق في اسرتهم ولجأت أنا إلى سريري، وهو مقعد السيارة، اني أراه آمن وأسلم عاقبة، فلا هوام، ولا حشرات

ولا افاع ولا وحوش، وكان ان سلطنا انوار فوانيسنا الكهربائية على
مياه الساقية، فوجدناها صافية رقراقة يلتمع تحتها الحصى، وكأنه جواهر
مصقولة، ولم يكن معنا أحد من حاليات العذارى، وإلا لكان منظره
راعها فلامست جانب العقد النظم ...

في الصباح الباكر قمنا إلى ساقية غاميليرا، وهذه كسابقتها، ماء
صاف رقراق، نزلنا عندها، مقررين تناول طعام الغداء في جوارها.
وبدأ الحطب يفرقع، وزكمت رائحة الطعام خيشومي. اني لم أتعش
أمس، وقد اجتمع علي التعب والجوع، وكان الاول أقوى فأزاح
صاحبه من الطريق. لم آكل إلا نصف رأس من البطاطا المسلوقة. لقد
كانت معدتي ملأى بالماء، الماء، الماء! لقد شربت منه أمس ما يملأ
برميلًا ولم يذهب ظمأي. وعندما ذهبت إلى النوم ملأت منه قنينة
ضخمة أخذتها معي فلما أصبحت وجدتها فارغة، شربتها كلها!

تغدينا عند ساقية غاميليرا وارتحنا قليلًا بعد الغداء ثم قمنا نواصل
السير فبلغنا الطريق العام، طريق برازيليا - بيلين، عند الساعة الثالثة
عصرًا، وبعد ان سرنا فيها مئة كيلو متر بلغنا بلدة ألفورادا (الفجر)
وكنا قبل وصولنا اليها بنصف ساعة ودعنا رفيقنا ودليلنا الطبيب بيريرا،
إذ وصل إلى بيته الذي أخذناه منه، واذكر ان مدير الحملة الفارو طورس
دفع له خمسمائة كروزيرو فقبلها شاكرًا. وفي ألفورادا أصلح جيرالدو
سيارته ثم مشينا ليلًا إلى مدينة بورونغاتو Porongatu فوصلنا قبيل

منتصف الليل. فبتنا فيها قرب محطة البنزين، وهناك بئر ودلو وصقالة عليها لكتان لغسل الوجوه والايدي، وثم مرحاض بدائي لقضاء الحاجة.

قمنا عند الساعة السادسة صباحًا، وكان يغطي المنطقة كلها شيء ثقيل لا ادري إذا كان ضباباً أو غبارًا. واظن انه مزيج من كليهما، فمشينا كيلو مترين حتى خرجنا من البلدة ثم انحرفنا عن الطريق قليلًا، ووقفنا لقهوة الصباح، فشربناها وأكلنا خبزًا طازجًا كنّا قد حرمناه من أيام. وتابعنا طريقنا فمررنا ببلدة حديثة لم نرها في ذهابنا. ولا شك في اننا مررنا بها ليلًا فلم ننتبه لها، وهي على ما رأينا تتألف من شارع واحد عريض هو طريق برازيليا – بيلين، قامت على جانبيه البيوت الحديثة، فسألنا عن اسم البلدة فقيل لنا انها فارزيا أو فارجين دو كويليو، والمعنى في الحالين (مرج الأرنب).

لا يزال الضباب الممزوج بالغبار يغطي الشمس، فضرره ممزوج بنفعة نسبية؛ انه يلطف من حرارتها.

مرت بنا سيارة شحن كُتب على عارضتها الخلفية: « اعذرونا على الغبار ! ». من بورونغاتو جنوباً تتغير طبيعة الأرض إذ تظهر بعض المرتفعات والمنخفضات، ويرى المسافر بعض الجبال المتواضعة بالنسبة إلى الجبال الشامخة، والشامخة بالنسبة لما يحيط بها من سهول، ويرى المسافر في هذه الناحية كثيرًا من شجر يشبه النخيل باستقامته وسعفه، وقد ظننته لأول وهلة نخيلًا برياً إلا اني علمت بعدئذ ان الشبه بينه وبين النخيل لا يتجاوز الظاهر، وان له ثمرًا يستخرجون منه زيتاً للطعام

وللآلات ، وان اسمه (باباسو) ، وان الولايات الشمالية الشرقية غنية جداً بهذا النبات .

أما من بورونغاتو شمالاً فانك لا تكاد ترى مرتفعاً ، فليس هناك إلا السهل الذي يمتد إلى غابات ولايتي بارا والامازون . ولاستقامة أرض هذا السهل واستوائها فانك تحسب مياه الأنهار التي تخترقه راكدة ، وهي بالطبع ليست راكدة ولكنها جارية ببطء . وتصب السواقي في الأنهار والأنهار تصب في النهاية في نهر توكانتين ، وتوكانتين يصب فرع منه في البحر توا ، وينحرف فرع آخر ليلتقي الامازون العظيم ، أعرض أنهار الدنيا ، إذ يبلغ عرضه عند مصبه ثلاثمائة وستين كيلو متراً ، ويقتحم ماؤه العذب ماء المحيط إلى مسافة ست ساعات من الشاطئ .

عند الساعة العاشرة والنصف وصلنا إلى مدينة اوروامو فوقفنا فيها للاستراحة والتزود بالبنزين . وعند الحادية عشر إلا ربعاً قمنا نواصل السير وفي نيتنا ، أن نتغدى في سان باتريسيو . فبلغناها بعد الظهر بنصف ساعة . وهناك ترجلنا ، وحمل كل منا منشفته وتوجه إلى النهر ليزيل عن وجهه وسائر جسده الوحل المكون من تراكم الغبار فوق العرق . وكنت أنا أسبق الجميع لاني كنت اخاف أن يجف العرق فأتحول إلى لبنة !

في أقل من خمس دقائق كانت سيسينيا وماريينا توقدان النار تحت القدر ، فهناك بقية من السمكة الكبيرة التي اشربت ملحاً للحفظ من الفساد ، وهناك كثير من البطاطا والبندورة واللحم ، فقد كنا تزودنا لما يكفي لعشرين يوماً . وها نحن نعود في اليوم العاشر .

تغدينا وارتحنا قليلًا . وعند الساعــة الثالثة بعد الظهر قمنـــا إلى (سيرس) . وكنت قد بللت منشفتي وعصرتها قليلًا ، ثم طرحتها على رأسي وظهري العاريين فصاحت بي أنيسة : حذار العاقبــة يا عمي ! فلم أهتم لتحذيرها لان الحر كان يحرقني وكنت اريد أن الطفه بأية واسطة دون نظر إلى العاقبة .

أما عن الغبار فحدث ما شئت ، وبالغ في الحديث ما استطعت ، ان كل وصف لهذا الغبار يكون قليلًا عليه . اني لم أر في حياتي كلها ، وقد قضيت معظمها متجولاً في جنوب البرازيل وشمالها وفي الوسط منها ، غبارًا كهذا الغبار . عرفت في الجنوب بعضاً من ولاية الريو غراندي دو سول ، وعرفت معظم ولاية السانتا كاتارينا وولاية بَرَنا ، وعرفت ولايتي سان باولو وميناس جيرايس ، وماطو غروسّو فقد وصلتُ فيها إلى كورومبا الواقعة على حدود بوليفيا ، وها أنا الآن أتعرف على هذا الجزء من ولاية غوياز . وبكل تأكيد اقول ان هذا الجزء من هـذه الولاية يربح الجائزة الاولى بكثرة غباره !

ان الغبار هنا يغطي البيوت وما حولها من أشجار ، ويغطي السماء فوقها فيحجب في النهار عنها الشمس ، وفي الليل يحجب القمر والنجوم . والسيارات ذاهبة آتية وكل سيارة تثير غيمة من الغبار تعمي عيون الناس ، وكثيرًا ما يضطر سائق السيارة إلى الوقوف حتى يخف الغبار فيتبين طريقه . ولا شك عندي في ان سكان المنطقة المساكين ، ولا سيا

الساكنين قريباً من الطريق، قد أصبحت حلوقهم وقصبات رئاتهم ورئاتهم (مورقة) من الداخل بطبقة كثيفة من الطين!

قلت سابقاً ان هذه المنطقة شمال مدينة (سيرس) كانت لسنوات خلت حرجا واحداً غضاً، وان السكان تقاسموها فيما بينهم مزارع ومراعي. ولقد أخبرني اليوم أحد الرفاق أن حكومة غوياز منحت هذه المنطقة لحكومة الفيدرال في عهد رئاسة جيتوليو فارغاس؛ لتجعل منها مستعمرة زراعية، وان حكومة فارغاس هي التي وزعتها على الاهالي وهي التي شقت هذا الطريق احياء للمنطقة، وهو طريق لولا الغبار لكان حسناً. فهو عريض يكاد يكون مستقيماً، قلما ينحرف شمالاً أو يميناً. وليس فيه منعطفات حادة. وهكذا فقد انتشرت القرى فيه على مسافات قريبة بعضها من بعض، وانتثرت البيوت على جانبي الطريق، واصبحت المنطقة أغنى منطقة في ولاية غوياز بالارز، الذي يزرعونه في الاراضي البعلية، فاغتنت المنطقة واغتنت الولاية، واغتنت بنوع خاص مدينة (آنابولس) التي أصبحت أكبر سوق لتجارة الأرز وجاءت أخيراً حكومة جوسيلينو كوبتشاك فخلقت برازيليا من العدم واقتحمت غابات الأمازون الهائلة بالطريق الذي جعلته امتداداً للطريق الذي باشرته حكومة فارغاس، وانك ترى اليوم سيارات الشحن الكبيرة تسير بين برازيليا وبيلين مخترقة أرضاً لم تكن قد وطئتها رجل بشر قبل هذا العمل العبقري الجنوني!

وصلنا إلى سيرس حوالي الساعة الخامسة عصراً ، ووقف جيرالدو بسيارته عند « الطبيب » الذي كان داواها ونحن في طريقنا إلى اراغوايا وكنت قد أصبحت أعلم ان جيرالدو (فتياته طويلة) يحب الوقوف « ومدّ الحديث ... » وقد عز علي أن امر بهذه المدينة ذهاباً وايابا دون أن أرى فيها وجهاً لعربي ، وكنت أعلم ان العرب فيها كثر ، فقلت لسيسينيا أنا ذاهب في هذه السوق أتعرف عليها وعلى أصحابها ، فاذا تم اصلاح السيارة قبل عودتي فاطلبوني فيها - في السوق طبعاً - ومشيت وفي رجلي خف الليف الذي ذكرته سابقاً والغبار يغطيني من قمة صلعتي إلى أسفل قدمي ، وبنطلوني مقلوب عند أسفله إلى فوق مقدار عشرين سنتيمتراً ، دخلت السوق ، وما أغرب المصادفة ! أول وجه عربي رأيته لم اكن غريباً عليه ، فما ان وقع نظر صاحبه علي حتى ترك العميل الذي كان يساومه وتقدم الي مرحباً معجباً من وجودي في البلدة ومتعجباً من الحالة التي أنا فيها ، ولا ادري ، والله ، كيف عرفني وانا اكاد انكر نفسي ! أما أنا وان كنت قد تذكرت وجه الرجل الا انني لم أعرفه ، لم أعرف من هو ولا أين رأيته قبل اليوم ، ضمني الرجل اليه وراح يسأل كيف وكيف؟ ومن أين وإلى أين؟ فقلت مهلاً ، من أنت أولاً ؟ فقال أنا يعقوب الزيبق ، ولازيدك علماً فانا ابن عم سعيد البابا ، عرفتك في سان باولو وزرتك في بيلو اوريزونتي فقلت ضاحكاً ان تكن يعقوب الزيبق فمن المنطق أن تكون ابن عم علي الزيبق ! لا ابن عم سعيد البابا .. ولكن كيف عرفتني وانا على ما أنا عليه ؟ فقال وهل يخفى

القمر ؟! قلت اجل يخفى إذا كان مثلي تغطيه غيوم من الغبار ، فقال كن ما شئت فانك الليلة ضيفي ، فقلت شكرًا وعذرًا ، لي رفاق ينتظرونني عند طبيب السيارات ، وانا في هذه الاوساخ لا ادخل بيت أحد ، فقال أوساخك ترياها الحمام ، فقلت ولكن لا ثياب نظيفة لدي . فقال نلبسك ثياباً جديدة ونقنع رفاقك بالتخلي عنك الليلة ، ثم قال : دعنا من الجدال ، تبقى الليلة عندنا وفي السهرة نعرفك على الجالية وهي جالية طيبة ، واخيرًا أقنعته ان بقائي مستحيل فاقتنع ، ثم عرفني على ولد له قائلًا : هذا ابني مروان ، يا مروان ، اذهب إلى الحانة واحضر لنا زجاجة ماء معدني ، فذهب مروان وجاء بالماء فشربناه ، فقال يعقوب عندي هنا في آخر هذه السوق محل ثان تديره زوجتي القادمة حديثاً من الوطن ، تفضل معي تتعرف عليها فقمت وذهبت واياه إلى محله الثاني فعرفني على زوجته التي قدمت لي فنجاناً من القهوة العربية ، وقدم لي يعقوب حبلًا من الدخان الغوايانو يكفي لشهر ، ثم قمت أريد العودة إلى الرفاق وقام يعقوب معي وفي الطريق عرفني على فتيان عرب وقال لأحدهم خذنا بسيارتك إلى مصالح السيارات ، فلبى الفتى طلبه فورًا ، وما ان سرنا في السيارة قليلًا حتى التقينا فريقاً من رفاقي يفتش عني في السوق فوقفنا وترجلنا وتعرف يعقوب على هذا الفريق من الرفاق ، وذهبنا معاً إلى حانة هناك فعرفنا على شابين ألحّ عليّ أحدهما بالبقاء ليلة ، على الأقل في سيرس ولكن عذري كان واضحاً وقد سألت عن السيد أديب الشيشكلي الذي كان رئيساً للجمهورية السورية وهو اليوم صاحب

مزرعة في سيرس، فقالوا لي انه غائب في الشمال ولكن ابنه (موفق) هنا وانه تاجر في المدينة ومحله قريب من الحانة وقد دعوه فجاء وسلم علينا فقلت له كنت اريد أن أرى والدك لأوجه اليه سؤالاً، فقال وما السؤال؟ قلت كنت اريد أن أعرف منه إذا كانت رعاية البشر أسهل ام رعاية البقر... فانفجروا جميعاً بالضحك، وفكرت ساعتئذ بنهاية حكم الشيشكلي في سورية وكيف ترك البلاد هارباً فتأكدت ان رعاية البقر أسهل وأسلم عاقبة! وكان اسم الفتى الذي ألح علي بالمبيت في سيرس (كايم). فسلام على يعقوب وعلى كايم وعلى موفق من الصياد غير الموفق.

ودعنا الاخوان الجدد في سيرس وسرنا ليلاً في طريق آنابولس ونحن لا ندري أين سيكون مبيتنا، مشينا إلى الساعة الثامنة (أو العشرين) على الطريقة الحديثة فوصلنا إلى قرية حقيرة فيها مطعم وكنا جوعانين كما كنا مشتاقين إلى الجلوس إلى الموائد فلقد كنا في الايام الماضية نأكل جالسين في أسرتنا وطبق كل منا في حضنه، فجلسنا إلى الموائد وطلبنا من الطعام الموجود وكان كافياً، وبينما نحن نأكل إذ دخل علينا رجل طويل القامة كبير الهامة ضحوك الوجه تعانق وصورنا طورس ودعانا إلى النزول في بيته، فقبلنا دعوته ونحن عشرة أشخاص.. ولما وصلنا إلى داره علمنا انه صديق حميم لطورس وانه دكتور مهندس كهربائي وانه يتولى ادارة محطة توليد القوة الكهربائية لسان باتريسيو، وان اسمه الدكتور رولاند مرتينس، وان داره - وهذا الأهم -

تتسع لعشرات الضيوف لا لعشرة فقط ، قد خلناها واحتللناهـا وهي مركز ادارة كهربائية سان باتريسيو ، أما هو (المدير) فقد جاس معنا ساعة ثم انصرف ومعه أربعة رجال اظنهم من موظفي الشركة ، ذهبوا ليناموا في مدينة سيرس تاركين لنا خادمين ، فنمنا آمنين في هذا المنزل العامر وعندما نهضنا صباحًا وجدنا القهوة في انتظارنا فشربناها ورحنا نتفقد غرف المنزل ومرافقه فكان كما لو اننا بنيناه لأنفسنا؟

ان الدكتور رولاند مرتينس الكريم البشوش لم يبح لنا الدار فحسب وإنما أباح البحيرة لنصيد منها ما نشاء ، وما نستطيع ، فحمل كرلينيو شبكة صغيرة كانت معه وذهب وامرأته إلى البحيرة وذهبت أنا مع أبيه وكارلو اليوغوسلافي (كارلو ستلزر) إلى المحطة نتفقد آلاتها الضخمة ونبارك العلم والعمل ، وهذه المحطة الكهربائية قائمة على السد الذي بنته الشركة على نهر الأرواح (ريو داس ألماس) الذي يشطر مدينة سيرس فيجعلها مدينتين ، وأراني طورّس من المكان الذي كنا فيه شط البحيرة المقابل للشط الذي تقوم عليه المحطة والأرض التي وراءه قائلًا أن الأرض هناك كانت له ولكنه باعها بعد بناء السد لأن المياه غمرت قسمًا كبيرًا منها .

قمنا من كهربائية سان باتريسيو عند الساعة الثامنة والنصف فوصلنا إلى آنابولس في تمام الثانية عشر ، وهنا ، في آنابولس ودعنا الغبار إذ وصلنا إلى الطريق المزفت ، وتركنا كرلينيو وامرأته عند أهلها ، وكذلك تركنا سيزر عند امرأته التي كانت هي وأولادها في انتظاره عند أهلها .

في هذا الشوط الأخير ، من آنابولس إلى برازيليا ، قاد سيارتنا رفيقنا اليوغوسلافي ، تركنا آنابولس بعد الظهر بربع ساعة ووصلنا إلى منزل طورّس في برازيليا في تمام الساعة الثالثة عصراً ، وما كان أشد شوقنا إلى ازالة الغبار والتمتع بالحمام التي حرمنا نعيمها أحد عشر يوماً ، لأن الحمّام كما قلت سابقاً هي الماء الحارّ لا أي ماء سواه !

عبرنا في هذه الرحلة كثيراً من الأنهر والسواقي ، ذكرت أسماء بعضها في الحديث السابق وفاتني ذكر بعضها الآخر ، ورغبة في منفعة القارئ اذكر هنا كل ما علق بالذاكرة منها ، ففي طريقنا من برازيليا إلى ارأغوايا عبرنا نهر ديسكوبرتو (المكشوف) ، آريا Areia (الرمل) ، كورومبا (اسم بلدة) انتاس (جمع انتا وهي الحيوان البري الذي قلت انه يشبه البغل) ، بادري جوزه (الأب يوسف !) ، داس ألماس (الأرواح) ، وهذا النهر يقطع بلدة سيرس نصفين وقد ذكر قبلاً ، سان باتريسيو (القديس باتريسيو) ، فيرميليو (الأحمر) ، دو أورو (الذهبي) ، ساقية غاميليرا (اسم نوع من الشجر) ، ساقية الببغاء ، وأخيراً فورموزو أي (الجميل) وبعد هذا ضربنا أطنابنا على الجرف الجنوبي لفرع اراغوايا ويعرف هذا الفرع باسم جاڤايه Javaié أيضاً .

الفصل الرابع

الحسن في هذه الحملة والقبيح

الحملة ، في نظر الصيادين الذين كانوا يمللون انفسهم بصيد كثير ، لم تكن ناجحة ، ولكنها كانت ناجحة في نظري ، فلقد اصبت فيها الصيد الذي اريده الا وهو هذا الكتاب الذي لو لم تكن هي لم يكن هو ، فلقد تعرفت على أرض جديدة ، ووافقت الوحش برهة من الزمن ، كما يقول المتنبي ، في سكنى مراتعها ، وبالطبع عدت بمخالفتها بالتعويض والتطنيب ا ، ولا أزعم أن هذا الكتاب الذي الفته في هذه الحملة وفي موضوعها ، سفر نفيس جليل ولكنه على كل حال جديد على اللغة العربية ، فما اظن ان فيها كتاباً يتكلم عن هذه المنطقة من العالم وعن الصيد فيها ، واذن فهذا الكتاب هو الصيد السمين الذي اصبته ، الرحلة إلى آرافوايا ماتعة لمن يحب الاخطار ويرغب في البعد ، ولو أياماً عن المدينة ، وفي النزول ، في قلب الطبيعة الوحشية القاسية ، ورؤية الوحوش في مراتعها لا في الاقفاص الحديدية ، والرحلة ماتعة بالرفاق إذا كان بينهم إلفة وانسجام ، فمن أمثالنا الذهبية : « الجار قبل الدار

والرفيق قبل الطريق » ، أجل ، ولكن قلّ من الناس من يترك فراشه الوثير الناعم في المدينة لينام على الارض في الغابــة الخطرة الموحشة ، وقل من الناس من يترك رؤية الصبايا النواعم يتخطرن بثيابهن الانيقة الزاهيــة الالوان ليطرف عينيـــه برؤية بنــات الفلوات اللواتي تغطي الاوساخ وجوههن وسوقهن وايديهن ولا يستطيع النظر أن يميز ألوان ثيابهن لما لصق عليها من الغبار ، وقلْ هكذا عن رؤية الاطفال ، انهم في المدن الراقية كالدمى إناقة ونظافــة وجمالاً أما في فلوات آراغوايا فليسوا كذلك ، انهم يميشون حفاة عراة يزحفون على بطونهم المنتفخة فوق التراب كالديدان وكالحيات ، وتأكل الهوام أجفانهم وتتركهم الاوساخ كالخنانيص ، ولا بيت ولا مدرسة ولا رعاية ولا شيء مما يرفع الانسان إلى رتبة الآلهة ! ان منظر الاطفال في المدن الراقية بهيج مفرح أما في هذه الفيافي فانه يعصر قلب الرجل الحساس عصراً ، اولئك يرثون النعمة وهؤلاء يرثون الفقر والجهل والمرض ، ولا فضل لأولئك ولا ذنب على هؤلاء ، ولكنه الحظ الأعمى لا أكثر ولا أقل .

في كتابي هذا أشياء لا أراها صحيحة ، منهــا اني ترجمت كلمــة (فازندا) (١) بكلمة مزرعة ، وهي ليست مزرعــة إذ لا يزرع فيهــا شيء هنا ، رأيت كثيراً من (المزارع) ولكني لم أر شيئاً من الزرع ! فبماذا نترجم ، إذن ، كلمــة (فازندا ؟) لا ادري ، ان القوم في فيافي اراغوايا يعيشون على تربية الابقار والخنازير والخيل والبغال ، فهل هم

---

(١) ربما كانت كلمة ضيعة اصح ترجمة لكلمة فازندا .

رعاة؟ لا، والله، ان هذه الحيوانات تعيش في اراغوايا دون رعاية، انها تسرح وتمرح في هذه الارض الواسعة، تأكل مما تنبت وتشرب ممـا تراه جارياً في الانهار والسواقي أو راكداً في المستنقعات، انهـا تعيش حرة، على الطبيعة.

قلت اني لم أر زرعاً، والحق اني رأيت صقالتين من جذوع الاشجار، تعلو الواحدة منهما عن الأرض أكثر من المتر قليلاً، وعرض الواحدة منهما لا يزيد عن المتر وطولهـا لا يبلغ المترين وعلى كل منهما شبر من تراب، وفي هذا الشبر من التراب بصل نابت، ورقه أصفر، ضعيف، هزيل، فسألت: لم يزرعون البصل في الاعالي؟ أيريدون أن يقلدوا جنائن بابل المعلقة؟! فقيل لي لا، ولكنهم يزرعونـه (فوق) حتى لا تتلفه الخنازير!

وكما يعيش الحيوان في اراغوايا يعيش الانسان، كلاهما يأخذ مما تعطيه الارض، الحيوان النباتي يأكل ما تنبته الارض والوحش يأكل بعضه بعضاً! والانسان يأكل النبات والحيوان على اختلاف أنواعه!

حمدت اليوم لشمس غوياز، ولا سيما شمس اراغوايا، حمدت لهـا صنيعها بي، وقفت أمام المرآة لأحلق ذقني وازيل بقية الغبار عن صلعتي، فوجدت ان هذه الشمس الغضبى قد دبغت الجلد فصيرته أسمر، وقد

أذابت ما كان في وجهي من قليـــل اللحم فاصبـح خدي اسيلاً ، وانا احب اللون الاسمر في غيري وفيَّ ، واحب كذلك الخد الاسيل ، ولهذا فقـد أعجبني وجهي ا فترحمت على الحطيئـــة ورحت اعارضه في بيته المشهور ، إذ قلت :

أرى لي وجهاً (جَمّـلَ) الله خلقَــهُ

(فبورك) من وجهٍ و(بورك) حامله !

الفصل الخامس

الرفاق، من هم وما هم؟

واخيراً، أرى ان من حق الرفاق عليَّ أن أقول في كل منهم كلمة سداها الصدق ولحمتها الاخلاص وصباغها الذي لا ينصل معرفة الجميل، فلقد كانوا معي كراماً لطفاء، يغضون عن سيئاتي وربما حسبوها لي حسنات، ومن الطبيعي أن يكون أحق هؤلاء الاخوان بالأولية مدير الحملة ومديرها الفارو طورّس:

ألفارو طورّس، ولد في مدينة سان جواون دي نيبو موسينو Nepomoceno، منطقة الحرج، (زونا داماطا)، التابعة لولاية ميناس جيرايس، سنة ١٩٠٠.

عرفت الفارو فتى طري العود، أبيض البشرة رقيقها، دقيق الملامح، صغير الجسم، يعمل في أحد المصارف البرازيلية في بلدة بيكاس، مركز الاسرة الفرحاتية، وجارة سان جواون مسقط رأس طورّس، وفي بيكاس تعرف الفارو الفتى بالفتاة أنيسة بنت (فيليب) أسعد فرحات،

ثالث اخوتي الذكور، وكان الفارو لحسن خلقه ولطفه وتهذيبه محبوباً من جميع أفراد الاسرة الفرحاتية، وخطب الفارو أنيسة وتزوجها، ثم مضت علينا سنوات دون أن نلتقي، فلقد كنت مقيماً في ولاية برنا الجنوبية البعيدة، وكنت قلما أستطيع زيارة اخواني في بيكاس لبعد الشقة وكثرة النفقات، وعندما زرتهم أول مرة بعد زواج الفارو وانيسة كان هذان الزوجان يقطنان في مدينة فالنسيا من ولاية الريو دي جانيرو، فلم التقيهما، وراح المصرف الذي يعمل الفارو طورّس فيه ينقله من بلدة إلى بلدة ويرفعه من مرتبة في العمل إلى مرتبة، ولما انتقلت سنة ١٩٤١ باسرتي إلى ولاية ميناس جيرايس كان الفارو وزوجته واولادهما في مدينة باراه دي ميناس القريبة من بيلو اوريزونتي، فزرتهم فيها وتجددت معرفتي بالفارو وصداقتي له، ثم ترك الفارو الخدمة في هذا المصرف الذي ظل يعمل فيه سنوات طوالاً، ودخل في خدمة مصرف غوياز في مدينة انابولس (ولاية غوياز) برتبة عالية ومرتب حسن يتفق مع امانته واجتهاده، ومن خمس سنوات زرته في انابولس فوجدته يتمتع بسمعة طيبة ويجمع في بيته اسرة كبيرة تتألف من ثمانية أولاد، سبعة منهم ذكور، وعندما بلغ السن القانونية للتقاعد تقاعد عن العمل في المصرف ايرأس أحد مكاتب شركة البناء التي كانت، مع زميلاتها من الشركات الكبيرة، تضع الحجر الاساسي لمدينة برازيليا عاصمة البرازيل الجديدة، وهو لا يزال في هذا العمل إلى اليوم.

كان الفارو طورَس في صغره مولعاً بالصيد يجعله هوايته الوحيدة، والصيد لا يزال هوايته وقد قام بعدة مغامرات صيد جماعيـة في نهر أراغوايا وفي غيره من أنهر وغابات، والفـارو طورَس كريم النفس بشوش الوجه سخي الكف لا يحب الرسميات في بيته وقلما يتقيد بها، وقد نشأ أولاده على غراره وساروا سيرته، وهم يحترمونـه كأب ويحبونه كصديق ورفيق، ولقد زدت في زيارتي هذه لهم معرفـة بهم وبطريقة حياتهم وبساطتها، ولما كنا اليوم في فصل الحر فانهم في البيت لا يلبسون سوى سراويل السباحة، يستقبلون بها اصدقاءهم من الجنسين بكل بساطة وحرية، فكأنهم، في هذا، يمرحون على شاطئ (كوباكابانا) وكأن اباهم الشيخ الابيض الشعر واحد منهم !

أنيسة فرحات طورَس ويدعونها تحبباً (سيسينيا)، هي ابنة أخي (فيليب) أسعد الذي توفي بالسرطان في مدينـة بيلو اوريزونتي، في أواخر سنة ١٩٤٨، ولعل القارئ العزيز يذكر قصيدتي (واقعة حال) التي نظمتها يوم كان شقيقي هذا يعاني آلام هذا الداء الخبيث وكانت زوجتي مريضة وقد وهم الطبيب انها مصابة بالسل، وقد جاء في ختام هذه القصيدة هذان البيتان :

رباه عفوك، ما جنيت وما جنت هذي الرفيقـة والأخ المعوان
في الانكليز وفي اليهود كفاية فعلام هذا السل والسرطان ؟!

تزوجت أنيسة الفارو طورَس، وكان هذا الزواج ولا يزال سعيداً رزقا فيه سبعة شبان وفتاة واحدة هي اليوم في عمر الورد، ولقد برهنت

أنيسة في ما تقوم به، هي وزوجها، من رحلات الصيد أن في عروقها دماً عربياً بدوياً، فهي نشيطة قوية لا تبالي مشقات الرحلات البعيدة المجهدة ولا تهتم لاقتحام الغابات الكثيفة فهي رياضية من الطراز الاول ومدبرة من نفس الطراز، لا تهمل شيئاً ولا تغفل عن شيء، تلبس في سفرها البنطلون الطويل وتعمل أعمال الرجال الاشداء، وقلما تراها عابسة، فهي أبداً ضحوك وهي زكية وتحب الناس والناس يبادلونها حباً بحب، وانيسة بعد، نصف عربية! ان البزرة التي انشقت عنها عربية ولكنها القيت في أرض ايطالية فنمت وترعرعت وازدهرت واثمرت.

عندما وصلت إلى البرازيل في أواخر سنة ١٩١٠ عرفت أمها فكانت لي بمثابة اخت، ترعاني بعنايتها كما ترعى الاخت أخاها، وبعد سنتين من وصولي ولدت أنيسة، وكنت لا أزال تحت تأثير الحب الاول فقد أوحيت إلى والديها باسمها فكان لي ما أردت!

كارلوس (كارلينيو) طورس بكر الزوجين فرحات – طورس، أسمر، رياضي، صياد، سباح، عندما زرت أباه في مدينة باراه دي ميناس سنة ١٩٤٢ كان لا يزال صبياً، وقد راعني ما رأيته منه وقتئذ في إحدى الحفلات الرياضية، حمل أخويه الصغيرين على كتفيه ووقف بهما في أعلى مكان من الصقالة التي يقفز منها سباحو النادي، وقفز إلى الماء كالعفريت فقفز قلبي في صدري خوفاً عليه وعلى اخويه، إلا انه كان واثقاً من نفسه ففاز بالجائزة، واليوم قال لي أحد رفاق الحملة ان (كارلينيو) في الغاب أسرع وأخف من كلب الصيد!

وكارلينيو متزوج وله أولاد، امرأته ماريا أو (مارينا) تشبهه جرأة وشجاعة، وترافقه في مغامراته وهي من مدينة أراغواري في ولاية ميناس، رأيتها في رحلتنا هذه تقوم وحماتها بأعمال المطبخ وتحمل البندقية والمسدس وقصبة الصيد وتذهب مع الذاهبين في رحلات الصيد الليلي، فقلت: (وافق شن طبقة) أو كما تقول عامتنا: «قدرة ولقيت غطاها»!

سيزر طورّس، هو ثاني أولاد الزوجين فرحات - طورّس، رياضي كأبويه وإخوته، سائق سيارة حتى في فيافي أراغوايا... كان في هذه الحملة يسوق سيارتنا الخاصة وقد اجتاز بها أشد العقبات هولاً، وهو الذي اصطاد لنا سمكة السوروبي الكبيرة اللذيذة، متزوج ولكن امرأته لا تشاركه في حملات الصيد، ولهذا فقد تركها وأولادهما عند أهلها في آنابولس.

ساليو طورّس: سادس أبناء الزوجين فرحات - طورّس، رياضي ككل أفراد الأسرة، لعوب طروب، يعرف من اللغة العربية كلمتين جعلهما في حملتنا هذه وقرًا في سمعي، إذ ما كنت أسمعه إلا صائحاً: شوف يا حبيبي، شوف!

كارلو ستلزر: أبوه اسوجي وأمه مَجَرِيّة، ولد في أحدى مقاطعات المجر التي تؤلف اليوم جزءاً من يوغوسلافيا، مهندس ميكانيكي لولا وجوده معنا لما وصلت سيارة جيرالدو إلى أراغوايا... قويّ العضل، عريض المنكبين، مرح، نشيط، متفائل أبداً، كان الحركة الدائمة في حملتنا، لا يحمل سلاحاً للصيد ولا يصيد طيراً ولا سمكاً، ولكنه يحمل

مسدساً وخنجراً للطوارئ فقط، قال لي ان واحده بالرحلات لا بالصيد، وانه لا يدع مغامرة من هذه المغامرات تفوته، ففكرت أن في عروقه دماً مجرياً (غجرياً!) نعمنا بفضله بقنديلين كهربائيين يضيئان بقوة (بطارية) كانا يؤنسان خيمتنا ليلاً.

جيرالدو مارتين دي اوليفيرا: صاحب سيارة الشحن وقائدها، أجرنا سيارته في رحلة طويلة شاقة وهو يعلم انها عتيقة ولا تتحمل مثل هذه السفرات، كان جيرالدو يقف بالسيارة الساعة والساعتين والثلاث كلما مشى بها عشرة كيلو مترات أو عشرين كيلو متراً، يقف ويعالج السيارة المريضة، وكارلو يساعده، أو كان كارلو يعالج السيارة وجيرالدو يساعده! وكنا عندما نقف للغداء أو العشاء أو النوم، نتمنى على جيرالدو أن يفحص سيارته قبل مباشرة السير واستئنافه فكان يقول: لا تخافوا. السيارة عال.. ثم لا نكاد نمشي بضعة كيلو مترات حتى تقف سيارة جيرالدو، فيقول جيرالدو! السيارة عطشانة، يلزم لها ماء.. ثم يأتي بالماء ويسقي السيارة العطشى ويسير على بركات الشيطان! ثم يقف قائلاً. بنزين، يلزم بنزين للسيارة! والبنزين فوق على ظهر السيارة التي هي كالعيس في البيداء... ويزود جيرالدو السيارة بالبنزين ثم نمشي.. وهكذا قضينا ثلاثة أيام ذهاباً إلى أراغوايا ومثلها عودة من أراغوايا، ومع هذا فان جيرالدو من ألطف خلق الله وأحسنهم خلقاً ما رأيته عبس مرة ولا سمعنا من فمه كلمة نابية في الساعات التي يخرج فيها الانسان عن طوره!

لورنس بيريرا ألفس ا شاب رقيق وديع أسمر، من أبناء حوض أراغوايا، يعرف مداخل المنطقة ومخارجها ويعرف الكثير من سكانها، اصطحبناه معنا دليلًا فكان لنا نعم الدليل وكان نعم الصديق لي خاصة، أخذناه من بيته في أول الغابة وأعدناه اليه في عودتنا.

وأخيرًا، كريم فرحات: شيخ الحملة وفيلسوفها ومسك الختام في هذا الكتاب... هو رابع اخوتي الذكور، كنا سبعة رجال وأربع بنات فلم يبق منا إلا هو وأنا واختان احداهما جارتـه في بيكاس والاخرى في كفرشيما.

علاقتي بكريم كعلاقة كل أخوين متحابين عاقلين إذا لم يدخلا في جدال ا ، لكن إذا شبت النار وتناثر الشرار فقل صفق العقل بجناحيه وطار. فكريم عنيد متشبث برأيه، والياس، لحسن الحظ طبعاً، أخو كريم..

وكريم، بعد، مربوع القامة، قوي الجسم أسمر اللون، عريض الكتفين، جيد النوم جيد الاكل، يأكل كل شيء ويستلذه ويشرب كل شيء ويستسيغه، كثير القراءة حسن الفهم، يطالع ما يقع في يده من الكتب العربية والبرازيلية، ويجادل في السياسة والادب والدين، ولا يفوته موعد من مواعيد الاخبار في الراديو فانه يعرف أوقاتها ويحافظ عليها بدقة كما يحافظ المؤمن على مواعيد الصلاة... عمره اليوم خمس وسبعون سنة وهو اعزب يعيش في بيت له في بيكاس، ويقيم في هذه البلدة من خمسين سنة وهو متقاعد من سنوات لا يأتي عملًا ولا

يحمل هماً ، على انه هناك محاط باختنا وبنات اخوتنا وهن كثيرات ومتزوجات ولهن بنين وبنات ، وكلهن يخدمن عمهن كريماً ويحببنه ويحترمنه ويقدمن له ما يحتاج اليه في هذه الدنيا الفانية .. وهذه الحياة الهادئة الوادعة جعلته يتعود الراحة والكسل فقد يقضي في بيته اسبوعاً كاملاً وهو في لباس النوم لا يخلعه ولا يخرج من البيت في زيارة أو نزهة إلا إذا دعي إلى حملة صيد ، كهذه التي قمنا بها فانه ساعتئذ ينشط ويسير في المقدمة ، يقتحم الادغال ويعبر الانهار ولا يبالي المصاعب والاخطار ، ومن حوادثي مع كريم ما اسرده للتفكهة ، أنا انظم الشعر من خمسين سنة وقد نشرت ، كما يعلم القراء ، عدة دواوين ، ولكني ، لم أسمع طوال هذه المدة من كريم كلمة استحسان أو تنشيط ، ولا ألومه في هذا ، فقد يكون ممن لا يستحسنون شعري ، ولكنه كتب إلي مرة ، وكان قد اطلع على قصيدتي (هيروشيما) التي نشرتها في مجلة (الشرق) يقول ان بيتاً من القصيدة أعجبه جداً ، والقصيدة مئة بيت ا ولم يعجبه البيت كله وانما أعجبه من البيت كلمة واحدة هي كلمة (جاف) التي نعت بها (يهوه) إله اليهود ا حيث قلت ان اليهود هم الذين خلقوا إلههم على صورتهم ومثالهم حتى كأنه (جلف) منهم ...

قلت ان عمر كريم خمس وسبعون سنة فهو على أقل تقدير أكبر مني بخمس سنوات ، وأنا من سنوات أخذ سمعي يثقل ، وأعتقد ان للسن يداً في هذا الطرش . وبما ان كريماً أكبر مني بخمس سنوات فهو أطرش أكثر مني بخمس درجات ، لا اقول هذا اعتباطاً وإنما اقوله

عن حقيقة وتجربة، ولكن كريماً لا يقبل هذا المنطق وهو يريد أن يقول ان سمعه دقيق كسمع الخلد!، وكثيراً ما حدث بيننا مثل هذا الحادث الذي ارويه كمثال:

تقول لي صديقتنا سلمى، وتكون في اجتماع عائلي كبير: ان ابنتي ناديه كلمتني اليوم بالتلفون وقد علمت انك غائب فسألت أين كنت؟ فأسمع أنا كلام سلمى وافهمه بحرفيته وقبل أن اجيبها عليه يقول لها كريم بصوت عال: علّي صوتك، الياس أطرش! ثم يلتفت إلي ويصرخ بصوت عال أيضاً: سلمى تقول ان ابنها نديم اشترى تلفون وانه دفع ثمنه اثنين «كونط[1]»! فاضحك أنا ويضحك السامعون كلهم فيفهم كريم معنى الضحك ويسكت على مضض!..

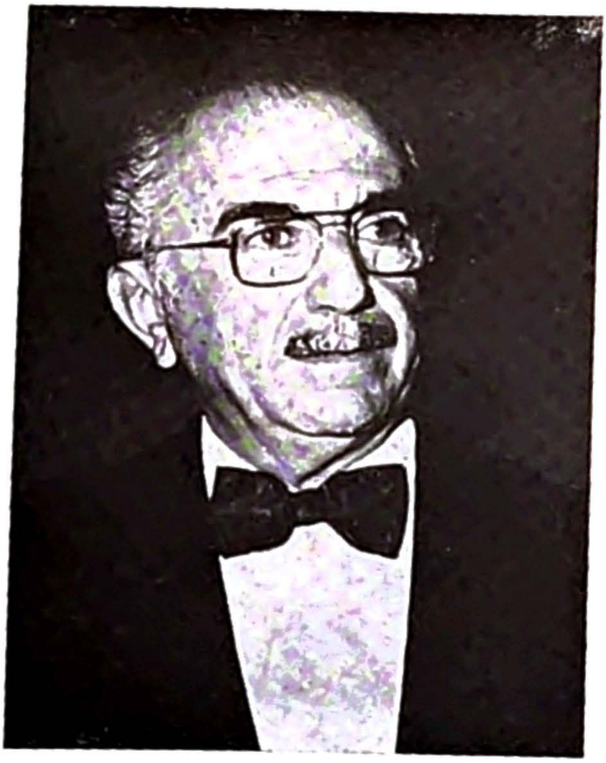
اكتب هذا واعلم ان كريماً لن يكون راضياً عني ولا عنه، ولكنه في النهاية سيرضى وسيغفر لي لأنه كريم...

حاشية: لقد مات كريم في الثالث عشر من حزيران سنة ١٩٧٣ ودفن في بيكاس البلدة التي قضى فيها معظم ايام حياته فأحبّها واحبته عاش ومات عزباً لم يترك امرأة ولا ولداً ولا شيئاً من حطام الدنيا وانما ترك حسرات عارفيه ومحبيه، وقد صح فيه قول من قال:..

جئتَ الحياةَ فقيراً عارياً دمعاً فاذهب غنيّاً بتابوتٍ، واكفان!

---

(١) «الكونط» مائة ليرة برازيلية ولهذا يشكل عليه الأمر اذ يسمع (أين كنت) اثنين كونط!



صفحة

عرفان الجميل والشكر

اميل فرحات ابن اخي سليم المتوفي في السادس من شهر ايلول سنة ١٩٤٠ في بلدة بيكاس من اعمال ولاية ميناس جيرايس ·

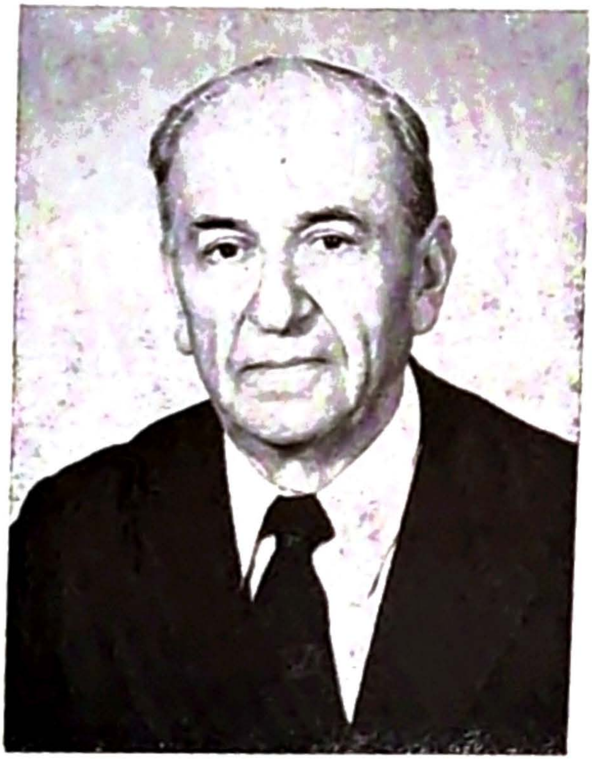
اميل درس المحاماة ولم يتعاطها، اذ انصرف الى الادب والصحافة فجلّى في كليهما، يكفي ان نقول ان روايته الاولى (كانجيرَون) قد نالت الجائزة الاولى لتلك السنة، ولاميل تآليف كثيرة غير هذه الرواية حملت اسمه يعطّر جواء البرازيل ·

ما أن علم اميل — من غيري — اني اريد ان اطبع هذا الكتاب واني لا املك اكلاف طبعه حتى هزّته الاريحية الموروثة من ابيه للقيام بدفع كل ما يلزم لانجاز هذا العمل ، وانا لا استغرب هذا منه ، فاني اذكر اننا عندما كنا صغاراً كنّا عيالاً عَلَى ابيه المهاجر ، آنذاك ، الى (جامَيكا) اذ كان يتولى هو القيام بنفقات البيت ، قلتُ في رثائي له مع رثائي للريحاني :

ابكي معلم امّتي مع امّتي ابكي اخي الحاني عَلَى اخواني
ابكي معزّز امّتي ببيانه ومعززَ البيت الذي رباني

فأنا اسجّل هنا لاخي سليم هذا الفضل الذي يجهله اميل واسجّل لاميل نفسه هذه اليد الكريمة المتصلة به بالوراثة ·

الياس



صفحة

عرفان الجميل والشكر

ما كاد الاستاذ الكريم الفاضل ، والانسان الكامل شاكر الدبس يعلم اني محتاج الى من يقوم مقامي في الوقوف على طبع هذا الكتاب واصلاح مسوّداته وازالة اخطائها المطبعية حتى انبرى متطوعاً متفضلاً للقيام بهذا العمل ، الذي كان متعذراً القيام به عليَّ وانا في الافق الجميل ودار الطباعة في سان باولو ، فاحسن العمل واجاده على وجهٍ افضل مما كان يمكن ان اقوم به انا ، فوجب عليَّ له الشكر :

ادركتني اذ كاد يهلكني السُّرى فكأنما انت الصباح الباكرُ
وأعنتني متطوّعاً متفضّلاً إني لفضلك شاكرٌ يا شاكرُ

فرحات

تصحيح خطأ تاريخي

– سليم اللبكي ، أول شهداء القومية العربية في المهاجر ، قتل في نيسان سنة ١٩١٩ وليس في سنة ١٩١٨.

– قصة دير مار جرجس الحميراء تكرر ورودها في هذا الكتاب مرتين خطأ .

تصحيح اخطاء مطبعية

– في أسفل الصفحة ١٢٥ صوابها : المقدم أدهم عكاش واخوه مدحة صاحب مجلة الثقافة الدمشقية . وكان أخوه مدحة قد سبقنا إلى صافيتا واخبر أخاه عن قدومنا وهكذا جاء الأخوان معاً الخ..

– في أسفل الصفحة ٣٣١ صوابها : وإلى يسارنا السهول والأحراج التي تغطي معظمها ، هذه السهول الهائلة الطول والعرض تمتد شمالاً إلى غابات الامازون الخ..

فهرس الصور والموضوعات التابعة لها

الصفحة

ثمن النسخة من هذا الكتاب مئة (١٠٠) كروزيرو.
الكتاب يُطلب من مؤلفه، وهذا عنوانه :

Sr. ELIAS FARHAT
Caixa Postal 221 — Belo Horizonte — M. G.
Brasil

طُبع في

مطبعة مجلة الشرق